

قضايا وحوارات النهضة العربية «٢٣»

الإشراف الفني :
زهير الجمو
الخطوط :
عبد الرزاق قصيبي

نظرية الشعر

١- مقدمة ترجمة اليازة

قضايا وحوارات النهضة العربية

« ٢٢ »

قضايا وحوارات النهضة العربية

نظريّات شعر

١- مقدّمة ترجمت الالكاذة

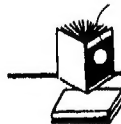
معربة نظماً وعليها شرح تاريخي أدبي
وهي مصدرة بمقدمة في هوميروس وشعره
وآداب اليونان والعرب
ومذيلة بمعجم عام وفهارس

سليمان البستاني

الطبعة الثالثة - ١٩٩٦

تحرير وتقديم:

محمد كامل الخطيب



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٦

نظرية الشعر : مقدمة ترجمة الالباندة معربة نظماً وعليها شرح تاريخي أدبي
/ سليمان البستاني : تحرير وتقديم محمد كامل الخطيب . - ط ٣ . -
دمشق: وزارة الثقافة ، ١٩٩٦ . - ٢٠٧ ص ؛ ٢٤ سم . -
(قضايا وحوارات النهضة العربية؛ ٢٣).

بنوله مقدمة في هوميروس وشعره وأدب اليونان ومذيلة بمعجم عام.

١- ٨٠٩١ ب س ت ن ٢- ٨٨٣٠٠٩ ب س ت ن ٣- العنوان
٤- البستاني ٥ - الخطيب ٦- السلسلة
مكتبة الاسد

الايداع القانوني : ع - ١٧٠ / ٢ / ١٩٩٦

تقديم

- ١ -

انت ترجمة الالياذة لسليمان البستاني، والصادرة في اللغة العربية للمرة الأولى عام ١٩٠٤ وكانها استدراك لنقص ثقافي عربي عمره أكثر من ألف عام على الأقل، ففي حين نقل المترجمون العرب في العصر العباسي كتاب الشعر، لأرسطو باكراً، فانهم لم ينقلوا «الشعر» الذي بنى عليه أرسطو كتابه او نظيراته، وبطبيعة الحال فقد كانت «الالياذة» إلى جانب الشعر التمثيلي اليوناني، من جملة التراث الشعري اليوناني الذي اعتمد أرسطو عليه في بناء نظريته في الشعر، والتي نقلت للعربية أكثر من مرة وشرحها أهم الفلاسفة امثال الفارابي وابن سينا وابن رشد.

لكن اهتمامنا هنا ليس متعلقاً بالالياذة تحديداً، أو بترجمتها، بل هو يتوجه نحو المقدمة النقدية كبيرة الأهمية والتي كتبها سليمان البستاني (١٨٥٦ - ١٩٢٥) مصدراً بها ترجمة الالياذة، والتي اداها البستاني شعرياً، مما جعل أكثر مقدمته يدور حول فن الشعر، وحول فهم البستاني لهذا الفن، ففي هذه المقدمة تكلم البستاني عن هوميروس وشعره والشعر اليوناني، وعن أسباب امتناع المترجمين العرب قديماً عن نقل هذا الشعر، وخصوصاً الالياذة، معيداً ذلك الى وثنية اليونان، والى اعتداد العرب بفنهم الشعري، وبعدها تكلم البستاني عن ترجمة الشعر، ثم بحث عن ملاحم شعرية عربية تقارب الالياذة، ثم قارن بين الأوزان الشعرية العربية واليونانية، وخلال ذلك تحدث عن الشعر العربي القديم ونظريته، ثم قارب الحديث عن الشعراء المحدثين في عهده.

قد تكون مقدمة ترجمة الالياذة لسليمان البستاني أول مسح شامل في العصر الحديث لنظرية الشعر العربي القديم، وبهذا فهي تمثل ماسمي بمدرسة الاحياء في فهم الشعر ونقده، اضافة الى كونها تدعو الى انفتاح الشعر العربي على «شعر» الثقافات الأخرى، أو تطعيم الشعر العربي بنوع شعري قديم موجود في الثقافات الأخرى، لكنه يكاد يكون مفقوداً في الثقافة العربية، وهما - المقدمة والترجمة - تلمحان بالتالي الى انه ما عاد ممكناً للشعر العربي الاكتفاء بنفسه، وان هناك شعراً لثقافات أخرى يجب أن تعرفه الثقافة العربية. شعراً ولغة، وان يدخل في نسيج ثقافتها وفنونها. وبالتالي فامتياز الشعر لم يعد مقتصرأ على العرب كما توهم القدماء. كما ان المقدمة تطرح قضايا ثقافية أخرى سيلاحظها القارئ في حينها.

- ٢ -

ولد سليمان البستاني في قرية «بكستين» اللبنانية، وتعلم في المدرسة الوطنية وهي مدرسة علمانية أنشأها بطرس البستاني عقب الفتنة الطائفية في بلاد الشام عام ١٨٦٠ وقد كان ناصيف اليازجي ويوسف الأسير، وهما علمان نهضويان، من جملة مدرسي البستاني، ثم مالث البستاني بعد أن كبر ان تنقل في البلاد العربية وأوروبا وأمريكا، وقد اطلع خلال تجواله على اصلاحات مدحت باشا في العراق، ومدحت باشا كما هو معروف أحد آباء الحرية والدستور في الدولة العثمانية، وله تأثير كبير في البلاد العربية. كما ان اصلاحاته معروفة في العراق وسوريا، ثم مالث البستاني ان عمل في التجارة ثم في المناصب السياسية والدبلوماسية حتى وصل الى «منصب وزير التجارة والزراعة» في حكومة الاتحاد والترقي عام ١٩١٣، لكنه مالث ان استقال احتجاجاً على دخول الدولة العثمانية

الحرب الى جانب المانيا، اذ كان يرى أن من الأفضل للدولة العثمانية ان تقف على الحياد في هذه الحرب، ويبدو أن رأيه كان الأفضل، وعلى كل حال فقد كان البستاني من أهم الدعاة للجامعة العثمانية والوطن العثماني الواحد، لكن بعد القيام بالاصلاحات الضرورية.

عن هذه الاصلاحات المطلوبة قدم سليمان البستاني كتابه البرنامجي الوثائقي كبير الأهمية (عبرة وذكرى: الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده ١٩٠٨) وقد كتبه البستاني كتحية للثائرين على السلطان عبد الحميد و«كمشروع برنامجي للاصلاح» فهل كان برنامج سليمان البستاني لاصلاح الثقافة العربية عموماً، و، الشعر العربي خصوصاً، عبر تطعيمه بالثقافة الأوروبية والشعر اليوناني وملحمته الخالدة بعداً آخر لمحاولة اصلاح الدولة العثمانية المستبدة عبر تطعيمها بالأفكار الأوروبية، افكار: الحرية والعدالة والمساواة؟ ذاك أمر نتركه للباحثين في شخصية سليمان البستاني وتراثه ككل، لكننا نكتفي هنا بتقديم مقدمة ترجمة سليمان البستاني الصادرة في القاهرة عام ١٩٠٤، ولا بد من أن التنويه هنا بأن الوسط الأدبي العربي قد احتفى بهذه الترجمة وقت صدورها، واقيم احتفال خاص بمناسبة صدور هذه الترجمة، ثم غاب ذكر البستاني وعمله الى ان اعادت احدى دور النشر اللبنانية تصوير واصدار هذه الترجمة، وفي طبعتنا هذه نكتفي بنشر مقدمة الترجمة نظراً لأهميتها في نظرية النقد العربي الحديث عموماً، ونظرية الشعر خصرصاً.

محمد كامل الخطيب

١٩٩٤

إهداء الكتاب



خطار ساوم نادر البستاني

(١٨٨٦ - ١٨٣٠)

إليك يا والدي أهدي كتابي هذا فأنت أولى به من كل حيٍّ
وميت . وما هو الاذرة من فضلك وجزء من عنايتك ببنيك وتقائك
بنفع ذويك وبني جلدتك . فان عجزت عن اداء واجب الوفاء بحياتك
فلا اقل من أن أشهد الملا على عرفاني جميلك وانت في عالم الارواح



زِيَاةُ الْكِتَابِ

هذه إلیاذه هومبروس ازفها إلی قراء العریة شعراً عریاً . ولقد استنفدت وسمی فی نظمها وإلحامها راجیاً أن تكون مُحْكَمَة التعرِیب خلیة من شوائب اللُكنة والبُجْنة

وقد صدرتها بمقدمة أتیت فیها علی سیرة صاحب الإلیاذه واشرتُ إلی منظوماته ومزله عند القدماء وراي المتأخرین فیه واقوال العرب فی شعره . - وبحثت فی الإلیاذه وموضوعها وطرق تنقلها قبل الكتابة ثم فی جمعها وكتابتها وسلامتها من التعریف مع ما فیها من قلیل الدخیل والساقط والمکرر والمُغلق . وأتیت علی تحلیلها وتشریحها وبسط ما فیها من الفائدة للأدب والتاریخ وسائر العلوم والفنون والصنائع . وأوضحت ما كان من الأسباب الداعية فی صدر الاسلام إلی إغفال العرب نقلها إلی لغتهم . - وتطرقت إلی التعرِیب فقصصت حکایة العرب فی وضع هذا الكتاب . وذكرت مناهج العرب فی نقل الكتب الأعجمية والطرق التي یجدر بالنقاة التعمیل علیها . وسأفنی ذلك إلی النظر فی التعرِیب الشعري ثم إلی النظم علی الإطلاق وأوزان الشعر وقوافیه وَوَقَعَ کُلٌّ منها فی معانیه . وجوازات الشعر من مأنوسٍ ومکروهٍ إلی غیر ذلك ما یُمدُّ من خصائص هذه الصناعة . - وانتقلت إلی المقارنة بین الإلیاذه والشعر العربی . فوطأتُ لذلك بالشعر القديم وأصله وسبب

طُوسِهِ وَمُنَاشِدَاتِ سَوْقِ عُكَاظٍ وَشَأْنِ لُغَةِ قُرَيْشٍ فِيهَا وَفَضْلِ الْقُرْآنِ
 فِي جَمْعِ اشْتَاتِ اللُّغَةِ وَتَوْحِيدِهَا وَإِحْكَامِ بِلَاغَتِهَا فِي النِّظْمِ وَالْإِنْشَاءِ .
 وَقَابَلَتْ بَيْنَ لُغَةِ قُرَيْشٍ الْمُضَرِّيَّةِ وَلُغَةِ الْإِلْيَاذَةِ الْيُونَنِيَّةِ . وَفَصَّلَتْ أَطْوَارَ
 الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ مِمَّا يَبِينُ طَبَقَاتِ الشُّعْرَاءِ مِنْ عَهْدِ الْجَاهِلِيِّينَ حَتَّى يَوْمِنَا .
 وَأَثْبَتَتْ مَزَايَا كُلِّ طَبَقَةٍ مِنْهَا مَعَ تَعْيِينِ مَدَّتِهَا وَأَسْمَاءِ فَعُولِهَا وَإِيرَادِ
 مَا اتَّسَعَ لَهُ الْمَقَامُ مِنْ نَقِيسِ شُعْرِهِمْ . ثُمَّ أَشْرَتْ إِلَى مَغَاظِرِ الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ
 وَمَنَاهِجِ الْمُؤَلِّدِينَ فِي أَبْوَابِ الشُّعْرِ وَفَنُونِهِ وَأَسَالِيهِ وَعُلُومِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ
 وَتَارِيخِهَا . وَانْتَهَيْتُ إِلَى أَسْبَابِ الضَّمْفِ وَالْإِنْخِطَاطِ فِي شُعْرِ الْمُحَدِّثِينَ
 وَجَنُوحِ النُّوَابِغِ مِنْ أَبْنَاءِ هَذَا الْمِصْرِ إِلَى سَدِّ الْحُلِّ وَتَعْدِيلِ الْخَطِّ .
 وَأَفْرَدْتُ بَابًا لِلْمَلَا حِمٍّ أَوْ مَنْظُومَاتِ الشُّعْرِ الْقَصَصِيِّ مَا يَمِثِّلُ الْإِلْيَاذَةَ
 فَأَشْرَتْ إِلَى ضُرُوبِ الشُّعْرِ عِنْدَ الْإِفْرَنْجِ وَقَابَلَتْ بَيْنَ مَلَا حِمِّ الْأَعَا جِمِ
 وَالْمَلَا حِمِّ الْعَرَبِيِّ مِنَ الشُّعْرِ الْجَاهِلِيِّ وَجَمْهَرَةِ أَشْعَارِ الْعَرَبِ . وَاسْتَطَرَدْتُ
 مِنْ ذَلِكَ إِلَى الْقَاءِ نَظَرَةٍ عَلَى الْجَاهِلِيَّتَيْنِ جَاهِلِيَّةِ الْعَرَبِ وَجَاهِلِيَّةِ الْيُونَانِ
 ثُمَّ إِلَى مَلَا حِمِّ الْمُؤَلِّدِينَ . وَرَجَمْتُ بَعْدَ هَذَا إِلَى الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ وَمَا يُلِصِقُ
 بِالْمَعَانِي الشُّعْرِيَّةِ مِنَ التَّشْبِيهِ وَالْكُنْيَاةِ وَالِاسْتِعَارَةِ وَالْبِدِيعِيَّاتِ وَمَا يَنْتَابِهَا
 مِنَ النُّقْلِ وَالسَّرْقَةِ وَتَوَارِدِ الْخَطَاطِرِ وَمَا قَدْ يَطْرَأُ عَلَيْهَا مِنَ التَّنْغِيثِ بِفَعْلٍ
 الْحَضَارَةِ . وَأَلَمْتُ إِلَى مَسَالِكِ الْأَعَا جِمِ فِي ذَلِكَ مَبِينًا مَزِيَّةَ الْعَرَبِيِّ
 عَلَى لُغَاتِهِمْ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ . - وَذَلِكِ الْمَقْدَمَةُ بِخَاتَمَةٍ فِي الشُّعْرِ
 وَاللُّغَةِ عَارَضَتْ فِيهَا بَيْنَ الْعَرَبِيِّ وَالْيُونَانِيَّةِ وَبَحِثْتُ فِي اتِّسَاعِ الْعَرَبِيَّةِ وَثَرَوَتِهَا

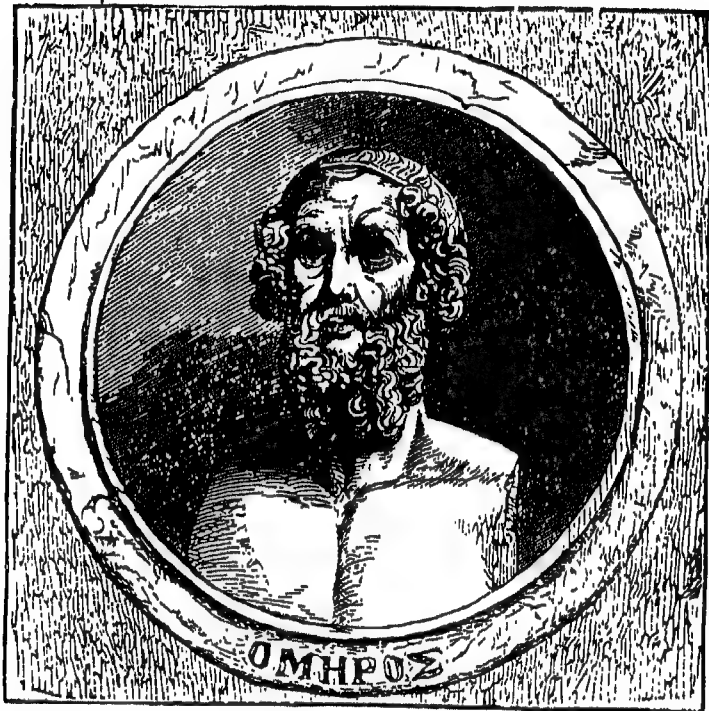


القديمة وكثرة مترادفاتهما وتمدد المعاني فيها للفظ الواحد مع ايضاح فائدة ذلك وضرره وايراد اسباب الضعف في تأدية ما استحدث من المعاني المصرية . واشترت الى نهج العرب بالتوسع في اللغة والاصطلاح . وختمت بخلاصة موجزة في ما تراءى لي من الداء والدواء والنهضة الحديثة ومستقبل اللغة والشعر

وقد علقت على الكتاب شرحاً توخيت فيه الفائدة والفائدة . ورصته بزهاء ألف بيت مما قاله العرب في مثل ماني الايافة او حوادثها . وضمنته كل ما تجدر معرفته من إطلاق الامة العربية « في جاهليتها وبدوتها وحضارتها والمشهور من اساطيرها وعباداتها والمأثور من آدابها وعاداتها ومناهج شعرائها وادباؤها ومواقف ملوكها وامرائها وساستها وزعمائها » الى غير ما هنالك مما اوضحته في باب حكاية العرب (ص : ١٢)

وقد مثلت المتن الشعري مطبوعاً بالشكل الكامل واودعت الشرح كثيراً من رسوم الآلهة وغيرهم مما يحسن الاطلاع عليه واضفت فهرساً لتلك الرسوم وآخر للقوافي ومجماً للالفاظ اللغوية ومجملين آخرين لجميع مواد الكتاب من اعلام وتاريخ وعلم وصناعة وخلق وعادة وهلم جرا

تلك هي على الجملة محتويات الكتاب « فان أحسنت وفيه منتهى جهدي فذلك من حسنات الاجتهاد والا فحسبي ان افتحه باباً يابجه من وفقه الله الى سبيل السداد »



هومیروس

هوميروس

اسمه ولقبه

اختلف المؤرخون في اسم صاحب الـإلياذة ولكنهم متفقون على أن «هوميروس» لقبه لُقِبَ به لأمـر جَلَلٍ تَحَالَّ حَيَاتِهِ فَعُرِفَ بِهِ وَأَهْمَلُ اسْمُهُ عَلَى نَحْوِ مَا اتَّفَقَ لَكثِيرِينَ . نَ شَعْرَانَا الذِينَ غَلَبَتِ الْقَابِيَهُمْ وَكَنَاهُمْ عَلَى أَسْمَائِهِمْ كَعَارْفَةُ ابْنِ الْعَبْدِ وَالشَّمَاخُ وَالنَابِغَةُ وَالْفَرَزْدَقُ وَالْأَخْطَلُ وَالْمُنْتَنِي وَإِي الْعَلَاءُ . وَتَلَكَّتَابُ اقْوَالُ مُخْتَلَفَةٌ فِي ذَلِكَ الْقَبِ نَظِيرَ مَا لَكَّتَابُنَا مِنَ الْمَذَاهِبِ الْمُقْضَارِبَةِ فِي أَصْلِ تِلْكَ الْأَقَابِ وَالْكُنَى . وَلِهَذَا حَامُوا حَوْلَ اللَّفْظَةِ الْيُونَانِيَّةِ وَجَعَلُوا يَسْتَنْبِطُونَ مِنْ مَعَانِيهَا مَا شَاؤُوا فَوَضَعُوا لِكُلِّ مَعْنَى يُسْتَخْرَجُ مِنْهَا حَدِيثًا مِمَّا يُمْكِنُ وَقَوْعُهُ لَشَاعَرْنَا . فَمَنْ قَائِلٌ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ كَلِمَةُ هوميروس (ομηρος) بِمَعْنَى الرَهِينَةِ غَلَبَ عَلَيْهِ هَذَا الْقَبُ لَوْقَوْعِهِ اسِيرًا فِي حَرْبٍ فَكَانَ مِنْ جَمَلَةِ الرَهَائِنِ . عَلَى أَنَّ الدَاهِيِينَ هَذَا الْمَذْهَبَ لِيَسُوا عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ تِلْكَ الْحَرْبِ . فَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهَا بَيْنَ أَزْمِيرٍ وَسَافِسٍ وَهُوَ مَذْهَبُ فِرُوكْلُوسٍ وَعِنْدَهُ أَنَّ الشَّاعِرَ اعْتُقِلَ فِي سَافِسٍ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ بَلْ أُخِذَ إِلَى كُولُوفُونٍ . وَقَالَ آخَرُونَ بَلْ وَقَعَ اسِيرًا فِي قَبْضَةِ الْفَرَسِ — وَمَنْ قَائِلٌ أَنَّ اللَّفْظَةَ مَخْتُومَةً مِنْ كَلِمَتِي (ομωσπεσις) وَمَعْنَاهَا «الْمُتَكَلِّمُ فِي الْمَجْلَسِ» أَيْ الْخَطِيبُ أَوْ الْمُشِيرُ وَهُوَ قَوْلُ سَوِيدَاسٍ وَكُلِّ مَا يُسْتَخْرَجُ مِنْ هَذَا النَّحْتِ يَصِحُّ أَنْ يَتَّفَقَ لِصَاحِبِنَا — وَمَنْ قَائِلٌ أَنَّهَا مُشْتَقَّةٌ مِنْ لَفْظَةِ (ομωπεσις) بِمَعْنَى التَّابِعِ أَوْ الْإِلَاحِقِ أَخَذْنَا مِنْ قَوْلِ فِلُوطَرُخُوسٍ أَنَّهُ لَحِقَ بِالْيَدِيدِينَ مِنْ مَدِينَةِ أَزْمِيرٍ — وَهَنَّاكَ اقْوَالُ أُخْرَى أَجْدَرُهَا بِالذِّكْرِ قَوْلُ هِيرُودُوتِسٍ وَأَيْفُورُوسٍ أَنَّ اللَّفْظَةَ مَرْكَبَةٌ مِنْ ثَلَاثِ كَلِمَاتٍ (ο μ η ρ ο σ) بِمَعْنَى الْكَافِيَةِ الْبَصَرِ وَهُوَ تَخْرِيجٌ حَسَنٌ يَصِحُّ التَّعْوِيلُ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ فِي الْإِنْتَرِ شَيْءٌ مِمَّا يَزِيدُ الْاقْوَالَ السَّابِقَةَ وَلَكِنَّهُ ثَابِتٌ أَنَّ بَصْرَهُ كُفٌّ وَهُوَ لَمْ يَكِدْ يَتَجَاوَزُ سَنَ الشَّبَابِ وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ

في آيات من منظومته « الاوذيسية » . وفي مُعْجَم الكسندر « ان لفظة هوميروس مفردة كان يراد بها « الاعمى » في مدينة كومة وبها لُقِب الشاعر »
 واما اسمه فأشهر ما قيل فيه انه كان ميونيدس اي ابن ميون لان ميون ملك ليدبا تزوج أمهُ كريتيس والطفل على يدها فدعاهُ باسمه وهو يعتقد ان ابا ذلك الطفل من الجن . وقيل بل كان والد هوميروس داماسوغوراس والدته أثرا ومسقط رأسه مصر . وقيل بل كان اسم هوميروس ميليجينيس وهي رواية هيرودوتس وعليها المعول كما سيحي.

نَسَبُهُ

لا يُعلم شيءٌ ثبت عن نسب هوميروس وحسبه . وان لدينا مما استبقاه الملقدمون اقوالاً متباينة لا يمكن الاخذ بشيء منها . وصفوة ما عول عليه الكتبة منها سيران كتبهما هيرودوتس وفلوطرخوس ثم وجد المتأخرون بعد التمهيص انهما لا تخلوان من تناقض يوذي الى الظن انهما لُفقتا بعد حين كقول هيرودوتس ان هوميروس نبغ في القرن السابع اي قبل حملة الفرس الكبرى على بلاد اليونان وقوله في تاريخه ان هوميروس تقدمهُ باربعائة سنة مع انه كان يدون بنفسه سيرتلك الغزوة تدوين الشاهد الحي . وليس في ما بين ايدينا من منظوم هوميروس ما يشير الى أسرته وعِترته مع انه كان احرص الناس على تدوين الانساب كما يتضح لمن يتصفح الايلاذة . ولا اخاله الا آتياً على تلك النسبة في شيء مما فُقد من شعره اذ ليس في محفوظ اشعاره ذكرٌ لايه . واما أمهُ فيزعم بعض الشراح انها هي المعنية بقوله في الشيد الثاني عشر (ص : ٦٨٩)

كراًة عالت الاطفال عادلةٍ قد امسكت عود ميزانٍ تعادلهُ
 لا تجسر الصوف مثقالاً تضن به . . .

وعلى هذا فلا يمكن استخلاص شيء من كُتبه عن نسبه . وجميع ما لدينا

من رواية السلف عنه لا يتجاوز حد الحديث ولا سيما ان شهرته النامية ومنزلته السامية حببتا الى كتبة كل قبيلة من اليونان ان تدعيه فتنازعنه مدائنهم واتي كل منهن ببرهان . واشهر تلك المدائن ثمان وهي ازبور وسلاميس (وتدعى اليوم كولوري) ويوس (نيو) ورودس وخبوس (ساقس) وكولوفون وارغوس واثينا . ولعله اقام زمناً في كل منهن واخلف فيها اثرًا من شعرو فكان داعيًا الى تلك الدعوى . وان رجلاً هذا شأنه لا بدع ان يدعيه كل فريق من قومه بعد ان ادعاه الاجانب . فقد ذكر استاثيوس رواية اسندها الى اسكندر بافيوس زعم فيها ان هوميروس ولد في مصر قال : « كان ابوه يدعى داماساغوراس واسمه اثرا فلما ولد عنيت بتربيته نبيّة من ولد اوروس الكاهن وكان يتخلّب الشهد من ثديها الى فم الطفل فكان اذا اقبل الليل بتغنى بصوت كهوت تسعة من الطير مختلفة الاجناس واذا لاح الفجر يصيح . وهو بلاعب تسعاً من الورق . واوعز الى ابيه ان يبني هيكلًا للقيان منشدات السماء فبناء وقص الخبر على ابنه لما بلغ اشدّه فكانت تهيج ذكرى الحمام وترنم به في شعرو »
ومعها يكن من الخطب في تلك الاقاويل فانما تتبع الطريق الاعظم من الكتبة في التحويل علي النسبة التي كتبها هيرودوتس واليك مجملها :

مولده ونشوءه

هو ابن كريثيس ابنة ميلانوفوس ولدته امه على ضفة نهر ميليس في ضاحية ازمير ودعنه مهابيجينيس اي ابن النهر ميليس . وكان في ازمير اذ ذاك معلّم كُتّاب يدعى فيميوس فاستأجرها لغزل الصوف الذي كان يتقاضاه اجرة من تلامذته . وكانت كريثيس صنّاع اليدين ذات رجاحة وسكينة فأعجب بها فيميوس وخطبها لنفسه . وما زال يمنيها بالوعود حتى اجابته الى طلبه . وكان جل ما استأله به قوله لها انه توسم في الغلام من الفطنة والذكاء ما جعله واثقاً انه سيكون قابضة عصره اذا عهد اليه بتربيته فاذا رضيت به بعلاً لها فهو بتبني

ابنها ويعكف على تهذيبه ولثقافته . وبرّ فييوس بوعده فعني به فاذا به قد فاق
جميع اقرانه ثم ما انقضت بضعة اعوام الا وهو يكاد يظهر على استاذة

مدرسته

وتوفي فييوس ولا وارث له الا هوميروس ثم ما لبثت ان توفيت كربينس
فلغت المدرسة لهوميروس فأقام مقام استاذة فأعجب به بنوازمير وطارث شهرته
فقصده الداني والقاصي واصبح تجلسه ديوان الادب وكعبة الحكمة . وكانت ازميز
لذلك العهد معطاً لرحال التجار تُستورد اليها الحبوب من تلك البقاع الخصبه
فتتار منها المدن المجاورة . فأصبح الغريب القادم اليها اذا فرغ من عمله او
سخت له فرصة يهرع الى مجلس الاستاذ الفقى ليلتقط درر حكمته . وعمن كان
يختلف اليه ربان سفينة من ذوي العلم والدهاء اسمه منتس يحمل الحبوب الى
ازميز من لوقاديا تُشغف بمحدث مهابجينيس وجعل يحسن له الاسفار ويزين له
مشاهدة الامصار وهو في عنفوان الصبا قبل ان بدركه العجز ليزداد حكمةً واطلاعاً
ووعده ان يحمله على سفينته فيتخذ خدناً عزيزاً وإلفاً كريماً وما زال به حتى
حمله على مغادرة المدرسة والتدريس والحق به رحالة على متن البحار

أسفاره

وكان مهابجينيس شديد المراقبة كثير البحث لا يقع بصره على شيء الا تحراه
ولا طرق مسجعه خبره الا استجلاءه فطالت الرحلة وهو في انائها يختزن الفوائد ويجمع
الاخبار حتى انتهى به التطواف الى ايبيريا (اسبانيا) واقلعت منها السفينة الى ازميز
فرجعت على ايثاكة (ثياكي) في الارخبيل اليوناني وهناك رمدت عينا
مهابجينيس فاضطر منتس على كرو منه ان يستبقه فيها لدى صديق له حميم من
اهل تلك الجزيرة يدعى منظور . فأنزله منظور في داره وكان مضيافاً طيب
العنصر رحب الصدر كريم الخلق ليس في بلاده من بضاهيه شهرة بتلك الخلال

ولم تكن العلة لتتبع الفتي من البحث والتحري فظل وهو على فراش المرض يلتقط شوارد الفوائد ومن جملتها اخبار اوديس (اوديسس) واسفاره (فكانت له اساساً بني عليه منظومته الاوديسية وجعل فيها اسم منظور مرادفاً للحكمة والبر فخلد بها ذكره ابد الدهر)

وبقي مبلِسجِينيس نزبل منظور الى ان عاد الربان منتس الى ايشاكة فانزله الى سفينه واستأنفا الاسفار الى ان بلغا كولوفون فاشتد عليه الرمد حتى فقد بصره جملة وظل كفيفاً الى ان مات

شروعه في قرص الشعر

ولما كُفِّ بصره قصد ازمبر واقام فيها زمناً ينظم الشعر فضافت ذات يده وبرّحت به الحاجة فعول على الشخوص الى كومة وسار يقطع هرْمُس (وهو نهر كديز او سرابات) الى ان بلغ به السير الى نيوتنخوس وهي بلدة من مستعمرات الكوميين . قيل انه وقف فيها الى حانوت تاجر جلد فأشدد اياتاً شكا فيها بؤس الغريب الشريد المتضور فاقةً وجوعاً وكان ذلك اول عهده بالانشاد على مسمع الناس . فأصابت تلك الايات موضع رفق وعطف من فؤاد ذلك التاجر فرحب به وآواه اليه لجلس في الحانوت وانشد على مسمع جماعة من حضر مقاطيع من شعره في وصف حملة اميناروس على ثيبة وبضع ترانيم دينية . فأجلّه القوم واكرموا مثواه فأقام بينهم وصناعته الانشاد .

قال هيرودوتس : « ولا يزال اهل تلك البلدة حتى يومنا ينغرون بالاشارة الى المجلس الذي كلن ينتابه فينشد فيه ولذلك الموضع عندهم حرمةً ومنزلةً سامية وفيه شجرة صفصاف يزعمون انها زُرعت يوم قدم مبلِسجِينيس فأقام بين ظهرانهم »

تمة اسفاره

اقام الشاعر بضعة اعوام في نيوتنخوس ثم قلّ رزقه فيها فبرحها الى كومة

وقصد الموضع الذي كان يجتمع فيه تجلس الشيوخ وانشد ما تيسر فابصر الحضور
 طرفاً قطابت نفسه وعظمت امانته فسألم ان يقوموا بنفقته على ان يقول فيهم
 من الشعر ما يُطير شهرة مدبنتهم في الافاق ويخلد لها جيل الذكر فلم يكن في
 من حضر الا من استصوب السؤال واوعزوا اليه ان يقول قوله هـ في المجلس
 وهو ملتئم وهم من ورائه يعضدون . فعمل باشارتهم ولما اجتمع الشيوخ ادخل الى
 قاعة الاجتماع فانصب خطيباً واعاد الكلام الذي القاه على عامة الناس وخرج
 ينتظر الجواب . فغلبوا الى شوراى وكان معظمهم ممن يرغب في مرافقته فاذا
 بواحدٍ منهم قد قام فاعترض وقال لئن جئنا الى القيام بنفقات عيين الشعراء
 لثلقين على عوائقنا زُراً منهم لا يقبل لنا بهم . فأدعى بهم ذلك الى الانقلاب
 عن عزيمتهم

ومن ثم لقب ميلسيجينيس بهوميروس ومعناها اعمى بلفة الكوبين وتوسى
 اسمه . فنقم هوميروس على كومة واهلها ونظم قصيدة رثى بها حانه واستنزل
 اللعنة على من يفتنى بهدحها ومدحهم من الشعراء وغادرها الى فوق على مقربة
 من ازوير وجعل يطرق منتدياتها فينشد فيها الاشعار

وكان في تلك البلدة معلم كُتَّاب ذمهم الخلق يسمى ثستوريدس . فلما
 رأى ما كان من رواج بضاعة الشعر دعاه الى منزله يقيم فيه ضيفاً كريماً على
 ان يلقنه كل ما نظم وما سينظم من الشعر فاسع هوميروس لا يقبول
 فراراً من الفقر . فأكب ثستوريدس على النسخ حتى استتم كل منظومات
 هوميروس فأقفل ابواب مدرسته وسار الى جزيرة ساقس واقام فيه . فنشد شعر
 نزيله وبدأه . فبلغ هوميروس امره فعزم على تعقبه ولم يبال بما تنرضه من
 المشاق فوصل الجزيرة بعد معاناة الاهوال ونزل في بلدة من ثم دعا تدعى
 يوليسوس فاتخذ بعض وجهائها معلماً لاولاده فأقام عنده وعكف على نظم الشعر
 ثم اذاع منظومات خالصة « كحرب الزرازير » و « حرب الضفادع » . لفيرن «
 و « الكركوفة » فتناشدها الناس وتناقلها الركبان . وكان ثستوريدس يعلم بحول

هوميروس في مكان فرّ منه الى مكان آخر

ولما رست شجرة هوميروس في ثغور الجزيرة سأل صاحب منزله ان يذهب به الى عامتها فشنّص اليها وفتح مدرسة يعلم فيها النظم وطرائقه فعظم امره وعلت منزلته واكبر الناس قدره فطاب عيشه واتسعت حاله بينهم . فازوجوه بنتاً فولدت له ابنتين . وجادت قريحته فنظم وابدع وكان وفياً ذكّاراً للجميل فأودع شعره كل خلّة محمودة خلّدها ذكر المحسنين اليه ولا سيما منظور الذي عني به اثناء رمده في ايشاكة . قال هيرودوتس « جعل هوميروس منظور في منظومته الاوديسية رفيقاً لاوديس وابرز به يظهر من الصدق والوفاء عظيم حتى ان ملك ايشاكة استخلفه على بيته وعياله عند ما شنّص في من شخص الى طروادة »

فلهج الناس في كل قطر بذكر هوميروس حتى ملأت شهرته بلاد يونيا وبلغت هيلاذة فأوعز اليه ان يقصد اغريقيا فطرب لذلك الایماز فأقلع الى ساموس وقضى فيها فصل الشتاء بتكسب بالانشاد في منازل الاغنياء

مرضه ووفاته

ولما انقضى الشتاء عوّل على السفر الى اثينا فركب سفينة مع جماعة من اهل ساموس فبلغوا جزيرة بوس وارسوا في مضيق على مقربة من النغر ففاجأ هوميروس الداء فنزل الى البر وانطرح على الجرف . ولم تقو السفينة على مواصلة السير لشدة الانواء فأقاموا اياماً في مكانهم واهل الجزيرة بتهافتون افواجاً لمحادثة هوميروس وقد بلغ بهم الاعجاب منتهاه لما كان يثر عليهم من غور الانوال ودرر الامثال . ولكنه مالبث ان توفي لاشتداد الداء فاجتمع رفاقه واهل الجزيرة ودفنوه قرب الشاطئ

ولما مرّت السنون وذوت نضارة الشعر وانحطت منزلته اجتمع اهل الجزيرة الى قبر هوميروس فنقشوا عليه بيتين من الشعر معناها : ان من هذا النبات

الاخضر غطاء للرأس المقدس رأس الشاعر هوميروس شبيه الآلهة الذي كان يتغنى بمدح الملوك والابطال

فذلكة ما تقدم

تلك خلاصة ترجمة هوميروس بنص هيرودوتس . وهي وان كانت لجلايتها وصراحتها وتقدم عهدا احرى بالثقة مما سواها فانها لم تخلُ من مظان اعتراض رماها بها المتقدمون فضلا عن المتأخرين . ولكن جل ما يعترض به مقصور على العرض لا يكاد يتناول الجوهر بشيء . قال هيرودوتس ان تسشوريدس عكف على نسخ منظوم هوميروس مع انه لم يثبت قط ان اليونان كتبوا لعهد هوميروس لان الحروف الفينيقية لم تشع عندهم الا بعد حين . على ان هذا القول لا يثبت باساس الرواية اذ المراد اثبات ان تسشوريدس كان سارقا فسيان اذا ان يكون ناسخا او مستظهرا . وزعم بعضهم ان تلك السيرة كتبت بعد زمن هيرودوتس وعُزيت اليه . فعلى فرض ثبوت هذا الزعم فلا ريب انها كتبت بيد خبير فنسبتها الى هيرودوتس لاتنقض حقائقها . واما اغفال هيرودوتس امورا مما أثر عن هوميروس كرحلته الى مصر وما اشبه فليس مما يفسد الحوادث التي اثبتتها اذ فلما تجد مترجما او مؤرخا يلم باحوال مترجمه واعماله بكلياتها وجزئياتها . بل ربما حصل التفاوت في نصوص كتبة الوحي والمحدثين . فان في كل من الاناجيل شيئا مما أغفل في غيره وما كان ذلك لينقض شيئا من الحقائق المسطرة فيه ويقال مثل ذلك في السيرة النبوية والاحاديث

وحاصل القول انه كان للقديما مزاعم كثيرة في هوميروس مما اسند الى السلف وتنوّل بالتواتر او استنبط من فقرات من أناشيده . ولقد أوغل بعضهم في البحث او الاستنباط حتى وضع سلسلة نسبة رواها سويداس وغيره لتصل من أفلون الى كريتيس والدة هوميروس . قالوا : كانت كريتيس ابنة ميون بن فرسيس وفوقهم هذا ابنة افلون . وكان فرسيس اخا هسيودس الشاعر وكلاهما من ولد

ذيرس بن مينافس بن ايفراذس بن اوفيس بن فيلو ترؤس بن هومونيدس بن
 ارفيوس بن واغروس من القينة قليوبة . وكان واغروس ابناً لفيروس من الحوراء
 ميثونة . وفيروس ابناً للينوس الشاعر . ولينوس هذا من ولد افلون وثووسة ابنة فوسيد —
 تلك نسبة لا يثبت منها مع ما هو متواتر من اقوال المتقدمين الا ان اسم
 والدة هوميروس كان كرتيس ولا علم لهم بأبيه . ولعل هوميروس نفسه لم يكن
 يعرف اياه وهو شأن كثيرين من نوابغ العصر الخالية ومن جملتهم فرجيليوس
 نابغة شعراء اللاتين . اما سائر حلقات السلسلة فاذا استجلي كنهها اتضح منه انه
 يرمى به الى اعظام قدر الشاعر والصاقه بأعلى نسب يُفتخر به ووصفه بأجل
 وصف يزين عظام الرجال . فإني تلك السلسلة الا الشاعر والحكيم والملوك والعظيم
 فضلاً عن الآلهة كأفلون صاحب القيثارة وفوسيد رب البحار والمطربات القيان
 والحور الحسن . واذا أضفنا الى ذلك معاني سائر الاسماء كهومونيدس من رقة
 النعم وحسن الايقاع وفيلوتريس من حب السرور وايفراذس من الذكاء وفوكيذا
 من الحكمة علما ان واضع تلك السلسلة رعى بها مرمى الاقدمين من التعبير
 عن الحقيقة بالرمز واللفز وتجميع الصفات . فكأنه قال تلك هي اوصاف هوميروس
 الشاعر الحكيم المطرب العظيم الرحالة الفهامة والمؤرخ العلامة الى آخر ما هنالك
 من صفات الاجلال والتبجيل

واما سائر الروايات المخالفة لترجمة هيرودوتس فأكثره موضوع لاسباب قد
 يمكن استجلاء بعضها بالتحري والمقابلة . ولنتخذ مثلاً على ذلك زعم بعضهم انه
 وُلد في مصر . فاذا علمنا ان مصر كانت لذلك العهد . ورد العلم ومنهل الحكمة
 ومحط ركاب الطلبة من كل فجٍ سمح وعرِفنا ان رجلاً كهوميروس لا بد من ان
 يحثه الشوق اليها فيقيم فيها زمناً طويلاً ويخالط عامتها وسوقتها فيجترِب الخلق
 والمأذبة ويتصل بالكهان والاحبار فيدّخر ويستفيد . وثبتت لدينا صحة ذلك من
 كثرة ما أخذ عن المصريين مما نهبنا عليه في مواضعه . ورأيت ان تهاوت القدماء
 على اتحال نسبة هوميروس اليهم . اذا تبيناً كل هذا ذهبت عنا غربة هذا الزعم .

ثم اذا تطرقنا الى النظر في قولم انه ربي في حجر بنت عظيم الكهنة على ما تقدم فلا يصعب علينا ان نرى في تلك الرواية تحريفًا للنص التوراة في نشأة موسى الكليم . وكمن رواية على هذه الشاكلة وضعت لنيّ أو عظيم فنقلت فُسبت الى غيره في كل بلاد الله وتغيرت الاسماء وتحولت الاجريبات الى ما يلائم المكان والزمان والاصل واحد

فلا غرابة بعد هذا في تشعب الاقوال عن شاعر يلجح الناس بذكره منذ نحو ثلاثين قرناً وأن تنباين المزام في اسمه ولقبه ونشأته واسرته وسيرته في صباه وشيوخه . فاذا وُلد اختلفوا في ابيه . واذا دبّ اختلفوا في ربيه . واذا شب تنازعته الامصار . واذا شرع في السياحة قالوا رحل فقيراً على نفقة غيره او غنياً على نفقة نفسه . واذا اُنشد الشعر ذهب فريق الى انه اُنشده مترنماً تعسباً كأمريء القيس وعبد يغوث في الجاهلية وابن المعز وابي فراس في الاسلام وقال الاكثرون بل تفتى به مستجدياً مكتسباً كرهير ولييد والحطيئة ومتني المشرق ابي الطيب ومتني المغرب ابن هاني . وهكذا ظنوا يقولون في مناحي حياته الى ان تناولوه ميتاً فأماته بعضهم كدماً ميتة نحوينا سيبويه . قالوا كان شاخصاً الى ثيبة فخرج على يوس واذا بفتية يصطادون سمكاً فسألهم عن مقدار صيدهم فقالوا : « افلننا بعدد ما امسكنا واصطدنا بعدد ما لم نصطد » فأغلق عليه فهم المراد وعظم عليه الامر فمات قهراً

والخلاصة ان الترجمة المزوّدة الى هيرودوتس هي لدى التحقيق اصدق ما كُتب عن سيرة حياته . وليس في ما كتبه ارسطوطاليس واسطرابون ما يندب عنها كثيراً . واما المدن اليونانية التي ادعته فالكثير منهم نصيب من صحة الدعوى . قال غينيوفي مقدمة مجمع هوميروس لليل وهاليزداروس^(١) : احق البلاد بهوميروس ازمبر باعتبار مولده وصباه وكومة باعتبار شروعه في قرض الشعر وساقس باعتبار نبوغه في النظم ويوس بالنظر الى بقاء رفاته فيها

(1) Guignaut. Dict. d'Homère et des Homérides par N. Theil et Hipp. Halletz-d'Arros. Paris 1844.

تاريخ ظهوره

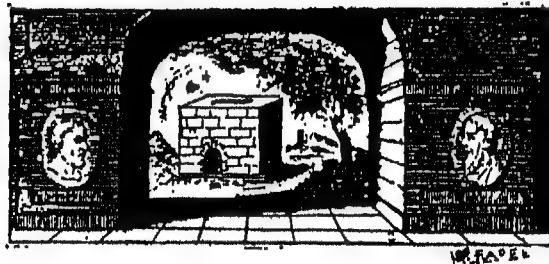
للمؤرخين أقوالٌ مختلفة في تعيين الزمن الذي ظهر فيه شيخ الشعراء. وهي تتراوح بين بدء القرن الثاني عشر والقرن السابع قبل الميلاد . ورواية هيرودوتس القائل ان هوميروس تقدمهُ بأربعمائة سنة ما زالت اجدرهنُ جميعاً بالثقة لانطباقها على منقول الثقاة من قدماء المؤرخين والاثار المتصل اليهم بالتواتر . فلي هذا يكون نبوغ هوميروس في منتهى القرن العاشر او بدء التاسع قبل الميلاد او نحو سنة ٩٠٠ لان مولد هيرودوتس كان في اوليات القرن الخامس ق ٠ م . يؤيد ذلك أ . ان مؤرخي الرومان مجمعون على ان هوميروس نبغ قبل بناء رومية بقرن ونصف فاذا اضفنا ذلك الى ٧٥٣ وهي السنة التي بنيت فيها رومية كان نبوغ هوميروس نحو سنة ٩٠٣ ق ٠ م — ٢ . ان من مرويات شيشرون الروماني ان هوميروس كان معاصراً ليكرغس الشارع اللقديموني وقد أبد اسطرابون تلك الرواية وقال ان ليكرغس قصد ساقس طمعاً بمجادنة هوميروس والاخذ عنه وعهد ليكرغس بين القرنين التاسع والعاشر . ولا يجرح تلك الرواية قول فلوطرخوس الذاهب الى ان ليكرغس انما اخذ شعر هوميروس عن حفيد الشاعر فقد يمكن ان يكون ذلك في حياة الشاعر او بعدها بقليل — ٣ . يؤخذ من الانساب المنقولة على قطع المرمز التي وجدت في اوائل القرن السابع عشر في جزيرة فاروس في الارخبيل الرومي والمحفظة في مكتبة اكسفرد ان هوميروس كان حياً سنة ٩٠٢ ق ٠ م . ولا غرو ان تكون تلك النقوش موضع ثقة لانها كتبت باعثناء حكومة اثينا ودقنت فيها اشهر حوادث اليونان من سنة ١٥٨٢ الى ٢٦٣ ق ٠ م .

فاذا ثبت لدينا ان نبوغ هوميروس كان في أخريات القرن العاشر رجح في الظن ان بينه وبين دمار اليون التي سمي الالباذة باسمها نحواً من اربعمئة سنة وانه كان معاصراً لاحاب ملك اسرائيل وسوا ثاني ملوك الدولة الخامسة والعشرين

في مصر . وكل من مصر وفلسطين في ذلك الحين كان في معامع الاضطراب والانقلاب كما كانت بلاد اليونان في ابان سكونها بعد ان ماجت بالجالية المتدفقة اليها تدفق السيل وهو ولا ريب زمن احتكاك الافكار وانفجار القرائح بنفيس الاشعار

منزلته عند القدماء

قال اسطرابون (في الكتاب الاول والفصل الثاني من جغرافيته) اذا قيل الشاعر عني به هوميروس . وقد لقبه في اول صفحة من الكتاب المذكور بالفيلسوف ووضعه في مقدمة الجغرافيين . وقال في موضع آخر ان رائد هوميروس انما كان الحقيقة واما الخيال فانما اتخذ حلية وشى بها شعره فبهر بها النواظر فعلقت بها الخواطر وهذا هو السر في شغف ناشئة اليونان كافة بمطالعة شعره (١) وقال في وصف ازميز ان من خطتها ما يدعى بالهومير يوم وفيه هيكل ونُصب لهوميروس . والازميز بين اعجاب به لا يفوقه اعجاب ولهذا صكوا نقوداً صُفريّة يتداولونها وعليها اسمه ورسمه (٢)



الهومير يوم او هيكل هوميروس

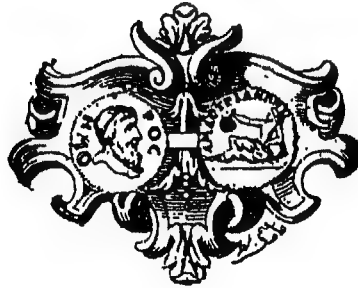
(١) اسطرابون كتاب ١ فصل ٢

(٢) اسطرابون كتاب ١٤ فصل ١

وان في مؤلفات هيرودوتس وفلوطرخوس وبلينيوس وشيشرون وسائر مؤرخي اليونان والرومان ممن نبغ قبل اسطرابون وبعده ما يؤيد كلام اسطرابون او يربو عليه . وقد روى سيمونيدس وتيوكريدس ان اهالي ساقس شادوا له معبداً وعبدوه وتداولوا نقوده كما فعل اهل ازميز . وزعموا ان الطائفة المعروفة بالهوميرية انما كانت من نسله قالوا ذلك تأييداً لدعواهم فيه كما قال غيرهم بل هي طائفة من الشعراء تحدثت هوميروس في النظم والانشاد



سيمونيدس



نقود هوميروس

وكان ارسطوطاليس في مقدمة المعجبين بهوميروس وقد الصق نسبه بالآلهة فقال : سبط طائفة من قرصان ازميز اثناء الجلاء اليوناني على فتاة من جزيرة يوس وهي حبلى من احد الآلهة فسبوها واحتملوا الى بلدتهم فولدت الشاعر وكان الاسكندر المكدوني كلياً بمطالعة منظومات هوميروس واستكتب منها نسخة تقحها له استاذة ارسطوطاليس كان يحتملها معه حيثما توجه ثم اتخذ لها غلافاً خوذةً مرصعة من اسلاب دارا ملك الفرس فكانت جلسه في رحله وانسه في ترحاله يتعدى نهج مواقفها ويتزعم يبدائها ويمثل بها في كل ما عن له من الاقوال والافعال ولطالما كانت تعروه هزة الطرب اذا أشد بعض ابياتها ولا سيما بيته القائل بوصف اغاممنون :

ملك بأحوال السياسة عارفٌ عزومٌ بصماء المعامع جبارٌ
ومن مأثور اقواله وهو واقف الى قبر أخيل بطل الالبادة : « طوباك فقد أوتيت منتعى السعادة بقيام شاعر كهوميروس يخلد ذكرك »
وانك لانكاد انتصفح كتاباً من كتب الادب والتاريخ مما كان يوثق به عند قدماء الغرب الا رأيت مشحوناً بالشواهد المنقولة عن شاعرنا مشفوعةً بالإطراء والإكبار . وكانوا يقتبسون من اقواله على نحو ما يقتبس اليهود من التوراة والنصارى من الانجيل والمسلمون من القرآن والحديث . كل ذلك مما مهد سبيل إحلاله عندهم ذلك المحل الرفيع حتى تنازعته البلاد وشغفت به العباد وعني الملوك والعلماء بجمع شتات قريضه وعكف الرفيع والوضع على ادخاره كنزاً لا ينفد

وكان فقهاء اليونان ومشرعوها يتجشمون الاسفار لجمع ما تفرق من تلك الفرر في اطراف البلاد فينظمون عقدها ويلقونها على العامة تهذيباً لاخلاقهم وثقيفاً لعقولهم والملوك يبذلون لهم المال عوناً لم على بلوغ تلك الغاية . قالوا واول من فعل ذلك ليكرغس لهد هوميروس . او بعده بقليل وحذا صولون حذوه ففعل في اثينا فعل ليكرغس في اسبارطة حتى لقد كان يضطر الشعراء ان يشدوا قطعاً

متوالية من هوميروس حفظاً لها في ذهن الامة واستبقاءً لانتساقها على السياق الذي نظمها به الشاعر . وإن لفيسيستراتوس ملك اثينا بدءاً مشكورة في تبويب تلك المنظومات على النمط الذي اتصلت به الينا فاتخذ جماعة من كبار العلماء ووسّع عليهم في الرزق ليتفرغوا لتلك المهمة . ومن جملة مرويات العصر الغابرة انه تألفت طائفة من ادباء اليونان صرفت همها الى النظر في الشعر الهومييري فتفتحته ونبتت منه الدخيل والفته الى الخلف على ما نراه عليه اليوم . وكانت تلك الطائفة مؤلفة من سبعين عالماً مثلاً تألف المجمع السبعيني الذي نقل التوراة من العبرية الى اليونانية لمهد بطليموس فيلادلفيوس . واما العامة فانها تلقت تلك الفرائد تلقياً للآي المنزلة فكانت فكاهتها في تجالسها ومرجمها في مباحثها ومرماها في ثقيف احداثها وقبلتها في غدوها وآصالها . وما انتشر فن الكتابة حتى انتشرت في النوادي والمنازل فوق انتشارها في اذهان الخلق فكان الساقط السافل عندهم من خلا رأسه او منزله من شيء من منظومات هوميروس . وهم يتنافسون بحفظها ويتناشدونها كما تتناشد خاصة الفرس والجم الغفير من عامتهم اقوال الفردوسي صاحب الشهنامة ومعدني صاحب الكلستان لمهدنا هذا او كما يتناشد ادباؤنا الحكم والامثال المقتطعة من اقوال نوابغ الشعراء . وما يروى في هذا الصدد ان الكيبياذس القائد اليوناني لم يتالك وهو فني ان انبال على استاذة بالشتم ثم بلغت به الحدة ان ضربه لانه لم تكن عنده نسخة من شعر هوميروس وهو ذنب في ذلك العصر عظيم . ومن هذا القبيل ايضاً ما يقال عن زويلوس الكاتب اذ تصدى لانتقاد هوميروس في القرن الرابع ق . م . فقامت الامة وقعدت وقبضت على المتنقد وصلبته ثم رجته رجماً . ومما يكن من صحة هاتين الروايتين ففيهما من المعنى ما لا يخفى على اللبيب

ولا يظن المطالع ان هوميروس انما نال تلك الخطوة عند قومه وبني ملته . بل كانت هذه منزلته عند الرومان ومن يليهم من ام المغرب . فاللانيون كانوا يترغون بأقواله ترغماً بشعر نابغتهم فرجيليوس وما فرجيليوس الا نابغة من

مريدي هوميروس شغف بتلاوة شعره وكان شاعراً بليغاً فنظم الانيادة على نسق الاليادة واجاد في تحدي استاده . واما ام اوروبا فانها اقبلت على ذلك الشعر منذ نشأتها ولم يتخلل اقبالها فتور الا عقود اعوام . معدودات في بدء النصرانية كما سنبين في باب نقل الاليادة الى العربية . وفي ما سوى ذلك كانت منظومات هوميروس ولا تزال عندهم في المنزلة الاولى بين منظومات البشر اجمعين . وكان بعض العامة من الافرنج في القرون الوسطى يتخذون منها الاحراز والتعاويد . ويلجأون الى استخراج المغيبات مما يستنبطون من معاني الايات التي تبدو لم اذا فتحوا كتابه اياً كانت . وابلغ من كل ذلك ان لفيقاً من الاطباء المشهود بعلمهم كانوا يعالجون بعض المرضى بالشعر الهومييري فاذا استوصفوا علاجاً للحصى الرباعية أمروا بوضع نسخة من النشيد الرابع من الاليادة تحت رأس العليل تلك كانت منزلة هوميروس عند اليونان والرومان ومن وليهم من ام اوروبا

رأي المتأخرين فيه

لم يزل الشعر الهومييري في المنزلة الاولى بين منظومات الشعراء . وليس بين كتب الادب والتاريخ والشعر كتاب تداولته الايدي وتناقلته اللسان واستشهد به الادباء والكتبة والمؤرخون ونقل مراراً متواليه الى معظم لغات الحضارة نثراً وشعراً كديوان هوميروس حتى لقد جعل تدريسه فرضاً في كثير من مدارس القوم تلقنه الفتية اصلاً وترجمة . وما يذكر في هذا الصدد اعتراض بعضهم على اتفاق الساعات الطوال في القائه على طلبة جامعة برلين . فلما بلغ ذلك الاعتراض ولهم الاول قبصر المانيا قال : « دعوا الاساندة يكثرخوا من تلقين شعر هوميروس فان الامة التي يرسخ في ذهنها وصف صبا الامم على ما يسطه هوميروس لا يسارع اليها العجز والمهرم » . ومن اقوال ربنان فيلسوف الفرنسي الحديث : « اذا مر على عهدنا الف عام انقرضت جميع التأليف التي بين ايدينا ولم يبق منها الا كتاب واحد وهو ديوان هوميروس » . واذا كان المتمدنون قد اطلقوا عليه

لقب « الشاعر » فقد لقبه المتأخرون « بأمير الشعراء » وما انتقاد بعض
الكتّاب فقرات متفرقة من شعره الا مدعاة لزيادة انتشاره واتساع شهرته
فاسام شمس العلى حطة غمام يستراذيا لها

واما بنو الشرق فهم وان جهل معظمهم اسم هوميروس فضلاً عن وجود
منظومات له الا ان ذوي الاطلاع من متأخريهم قدروه حق قدره كما ان
بعض علمائهم في الزمان الفار اعظموا شأنه واجلّوه .. وان صفة ادبائنا في هذا
العصر شاعرون بالحاجة الماسة الى نقله الى العربية . ويذكرني هذا حديثاً
مع منيف باشا ناظر المعارف العثمانية قال في اثائه « لو ان الشاعر العربي القائل :
كأنني أميوس لدين محمد ... عمل حقيقة للشرق ما عمل هوميروس للغرب لما تعدنا
الغرب هذا الشوط البعيد » . وقد غاب عنه وعني عرفان ذلك الشاعر . وبما
قاله لي السيد جمال الدين الافغاني في محضر من الادباء : « انه ليسرنا جداً
ان تفعل اليوم ما كان يجب على العرب ان يفعلوا قبل الف عام ونيف . وباجدنا
لو ان الادباء الذين جمعهم المأمون بادروا بادى بدء الى نقل الالياذة ولو
الجأهم ذلك الى اهمال نقل الفلسفة اليونانية برمتها » وسأذكر في باب « الالياذة »
سبب اغفال نقلها الى العربية

ذلك قول عامة المتقدمين والمتأخرين وخاصتهم في هوميروس وشعره . اما
الشعر فلا سبيل الى انكاره لانه موجودٌ يُنلى . واما هوميروس نفسه فقد
قامت طائفة من الباحثين في اواخر القرن الثامن عشر بزعمه وتلف الالماني
وتألبت على انكار وجوده بتاتاً . وما لبث مذهبهم ان انتشر انتشار الشراد ثم
ما لبث ان خبا خبوة على ما سنسطه في الكلام على الالياذة

قول العرب فيه

ليس في ما بين ابدنا من التأليف العربية ما يشير الى ان ديوان هوميروس
نقل الى لغة العرب . فهو بلا ريب لم يُعرّب وان كان معروفاً عند خاصة

العلماء في بغداد لعهد العباسيين اذ كان يتناشده الادباء من نقلة الكتب المقرئين من الخلفاء بأصله اليوناني ونقله السرياني . والظاهر ان الالياذة كانت منتشرة بين الخاصة في بلاد الفرس والكلدان في زمن الدولة العباسية لان ثاوفيلس الرهاوي الذي نظمها بالسريانية كان منجم المهدي ثالث خلفائهم كما اثبتنا في حواشي الالياذة (ن ٢ : ص ٢٦٢) . قال ابن ابي أصيبعة في كتابه « عيون الانباء في طبقات الاطباء » نقلاً عن يوسف بن ابراهيم في ترجمة حنين بن اسحق اثناء تنكُّر حنين وهو عاكفٌ على درس الطب ^(١) « فبُنت خروشي (جارية الرشيد الرومية) ذاك العلام (وهو اسحق المعروف بابن الطعفي) وادَّبته بأدب الروم وقراءة كتبهم فتعلم اللسان اليوناني علماً كانت له فيه رئاسة فكنا نجتمع في مجالس اهل الادب كثيراً فوجب لذلك حقّه وذمامه . واعل اسحق بن الخصي علةً فانيته عائداً . فاني لني منزله اذ بصرت بانسان له شعرة قد جللته وقد ستر وجهه عني ببعضها وهو يتردد وينشد شعراً بالرومية لأوميرس رئيس شعراء الروم فشبهت نعمته بنفحة حنين وكان العهد بحنين قبل ذلك الوقت بأكثر من سنتين فقلت لاسحق بن الخصي هذا حنين فأنكر ذلك انكاراً يشبه الاقرار فهتفت بحنين فاستجاب لي »

فيؤخذ مما تقدم ان اليونانية كانت معروفة لذلك العهد في بغداد تُقرأ وتُدَرِّس حتى في بيوت الخلفاء وان منظومات هوميروس كانت معروفة فيها بين المشتغلين بلفات الاجانب ومعظمهم اذ ذاك من النصارى

واما سائر ما ذكر عن هوميروس في كتب العرب فليس الا شذرات مقطوعة من كتب اليونان المعربة برعاية العباسيين والمؤلفات التي وضعها كبار العرب والمؤلفين من الكلدان كابن ماسويه وابن الخصي وحنين بن اسحق مثال ذلك قول ابن ابي أصيبعة في عيون الانباء : « وكان الشعراء في ذلك

الزمان على ما ذكره حنين بن اسحق اوميرس الخ «^(١) وقوله في ترجمة ارسطوطاليس «ومن كتبه كتاب في مسائل من عو يص شعر اوميرس في عشرة اجزاء»^(٢) وقوله في ترجمة جالينوس عند ذكر الكتب التي اعترض حنين بن اسحق على نسبتها اليه «ومنها كتاب الطب على رأي اوميرس»^(٣) ومن هذا القبيل قول البيروني «اميروس المتقدم عند اليونانيين كمرىء القيس عند العرب»^(٤) ومثله قول ابن خلدون في مقدمته «ان الشعر لا يختص باللسان العربي بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية او عجمية وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك وذكر منهم ارسطو في كتاب المنطق اوميروس الشاعر واثني عليه «ومثله قول ابن ابي أصيبعة»^(٥) قال افلاطون وقد كان مارينون (اغاممنون) ملك اليونانيين الذي يذكره اوميروس الشاعر باسمه وجبروته وما تهيأ لليونانيين في سلطانه رثمي بشدائد في زمانه وخوارج في سلطانه . و يدرج في هذا الباب قول الشمرستاني «^(٦) اوميرس الشاعر من القدماء الكبار الذي يجربه افلاطون و ارسطوطاليس في اعلى المراتب ويستدل بشعره لما كان يجمع فيه من الثقان المعرفة ومتانة الحكمة وجودة الرأي وجزالة اللفظ « واما الشواهد التي اوردها الشمرستاني من كلام هوميروس في كتاب الملل والنحل والبيهاء العالي في الكشكول فلا شك ان فيها اخباطاً وانتضاباً على نحو ما جرى

(١) عيون الانباء جزء ١ ص ٣٦

(٢) » » » ١ » ٦٩

(٣) » » » ١ » ١٠١

(٤) الآثار الباقية عن القرون الخالية لابي الريحان محمد البيروني الخوارزمي .

طبع باريز ص : ٨٦

(٥) ابن خلدون . باب اشعار العرب واهل الامصار

(٦) عيون الانباء جزء ١ : ١٨٥

(٧) كتاب الملل والنحل جزء ٢ : ١٥

لكتّاب العرب في أكثر ما استشهدوا به من كلام الاعاجم
وقد أكثر أبو الفرج الملقب المعروف بابن العبري من ذكر هوميروس في
تاريخه حتى دون حكايته مع ما جنّ سألّه ان يهجيّه طمعاً في الشهرة من وراء
ذلك العجوة فأبى هوميروس فتهدده بالشكوى الى رؤساء اليونانيين فضرب له
هوميروس مثل الكلب الذي نكل الاسد عن مبارزته فقال الكلب « سأضفي
الى السباع فأشعرهم بضعفك » فأجاب الاسد « لئن تعيرني السباع بالضعف
اجب اليّ من ان الوثّ شاربي بدمك »^(١)

وخلاصة القول ان هوميروس كان له شأنٌ مذكور عند ثقلة الكتب من
بطانة الخلفاء ولكن الماس ادياء العرب بأقواله كان الماس ناقصاً بقي منحصراً في
افراد معدودين من كبار الكلدان . واما منظوماته فالثابت انها لم تُعرّب

منظوماته

نقصر الكلام في هذا الباب على الالماع الى ما أنسب لصاحب الالبادة من
الشعر مما ثبت له ومما لم يثبت . واما البحث في شعره من حيث هو واساليبه
وطرائق نظمه وتشابيه واستعاراته وفائدة ذلك للعلم والتاريخ والآداب فنستبقيه
الى الكلام على الالبادة بعيد هذا

ان هوميروس منظومات كثيرة لاغرو ان يكون المفقود منها شيئاً كثيراً .
فان العلماء ما زالوا حتى الآن يعثرون حيناً بعد حين على قطع مبثورة في
عاديّات القدماء من تلك القطع المختزنة في دفائن الارض . وان العهد لقريب
بالعثور على مقاطع مكتوبة على ورق البردي في عاديّات مصر مما لم يدرج
في ديوانه . على ان درة تلك القلادة انما هي الالبادة بلا خلاف . بل هي
كانت ولا تزال درة عقد ما نظم الشعراء في كل عصر وبلاد مما تقدم زمن
هوميروس وما تأخر عنه

(١) تاريخ مختصر الدول لابن العبري طبع بيروت ص : ٦١

الاوليسية

ويتلوهما الاوديسية وهي ملحمة تقصر عن الالياذة بضعة آلاف من الايات يغلب على الظن ان الشاعر نظمها في شيخوخه وموضوعها رحلة اوديس اثناء عوده الى بلاده بعد انتهاء حرب طروادة والقصة بأجمعها لا تتناول الا اربعين يوماً ولكن فيها من الحقائق وتنوع المباحث ما يكاد يعادل الالياذة . وهي كشيقتها في اربعة وعشرين نشيداً ولكنها باعتبار وقائعها تقسم الى اربعة اقسام يشتمل القسم الاول منها على ما حصل لاوديس في منتهى المدة الطويلة التي نزل بها على الالهة كاليبسو في جزيرة اوجيجيا وعشاق امرأته ساعون اذ ذاك في تهديد ثروته وتقويض دعائم ملكه وابنه تليماخوس وهو فتى يافع مهم في احباط مساعيهم حتى اذا اعيتته الحيلة شخص بايعاز آثينا الالهة الحكمة الى فيلوس واسبارطة مستطعماً اخبار ابيه . وفي القسم الثاني وصف مغادرة اوديس لجزيرة اوجيجيا وبلوغه بلاد الفايين حيث نزل وقص عليهم خبره ثم غادرهم الى اثاكة مقر حكمه . وفي القسم الثالث تفصيل الخطة التي اخنطها هو وابنه تليماخوس في منزل خادمه الامين الراعي افيرس للضرب على ابدي اولئك البغاة . وفي القسم الرابع وصف انتقامه منهم واستقراره في ملكه

معارضة الاوديسية بالالياذة

ان بين الاوديسية والالياذة شهماً كثيراً في النهج والسياق مما يدل على ان الناظم واحد فكلاهما قائمة على اساس بسيط مرجعه الى موضوع واحد . ففي الالياذة « كيد اخيل » وفي الاوديسية « رحلة اوديس » وعلى هذين الامرين مدار جميع حوادث الروايتين بما تخلفهما من القصص والتاريخ وما وراء الطبيعة ودونها . وكل واحدة من الروايتين منحصرة الوقائع في ايام قليلة في منصرم اعوام طوال . فالالياذة لا تتناول سوى ستة وخمسين يوماً من حصار عشر سنين والاوليسية لا تتجاوز في مدتها الاربعين يوماً من رحلة اوديس . وكما ان مطالع

الايادة بل استطراداً بتاريخ ذلك الحصار وما تقدمه وما يليه وبتمثل حالة البلاد بالنظر الى التاريخ والجغرافية والدين والآداب والاخلاق والعادات فكذلك يحيط مطالع الاوذيسه علماً بما لقي اوديس في تلك الرحلة منذ نزل بكاليبسو فشغلت به وامسكته في جزيرتها سبعة اعوام ويقف على حالة البلاد التي اقبلته الافئدة اليها وينزل الى اعماق الجحيم ويصعد الى اعالي السماوات ويطوف حول الارضين تطواف الشاهد البصير . وكلتاها متأسكة الاجزاء متراسمة المعاني لانقرا نشيداً منها الا انست به نفس سائر الاناشيد . ومع هذا فقد يعترض على وحدة الناظم بما بين المحتمتين من التباين في قوة التركيب وحدة التصور وجزالة اللفظ فان الاياداة في كل ذلك فوق شقيقتها . وانما هو اعتراض مردود بثبوت ان الاياداة منقذمة على الاوذيسية نظماً الشاعر في ابان عمره ومخيلته على نفاذتها ومادته بمعظم غزارتها ولكن في الاوذيسية من اصابة المرنى وسداد الرأي ورسوخ الحكم وسعة العلم ما لا يقصر عما في الاياداة

سائر منظومه

واما سائر المنظومات المعزوة الى هوميروس فسواء ثبتت له او لم تثبت فلا تزبده رفعةً وشأناً بل خير له ان لا تكون له . والراجع عند اهل التحقيق انها من غير نظمه وان نسب اليه هيرودوتس بعضها « كحرب الضفادع والنبيران » و « حرب الزرازير » وجماعة « الكركوفة » وهي قصائد لا تتجاوز المئات من الايات وليس فيها شيء مما يدل على انها من نتاج تلك القريحة اليالة والذهن المتوقد . ونسبت الى الاياداة والاوذيسية كنسبة بعض قصائد المتنبي المنظومة في صباه والمثبتة في اول ديوانه الى سائر قصائده الرائعة . وقد ذهب ارسطوطاليس الى ان هوميروس نبغ في الشعر الهزلي نبوغه في الشعر القصصي . واستدلوا على ذلك بالمنظومة « مرجيتس » وهي قصيدة يصف فيها الناظم رحلة مرجيتس الغني المتفطرس ولم يبق منها الا اجزاء متقطعة

ومما ينسب اليه ايضاً ثلاثة وثلاثون مزموراً نرّم فيها بمدح الآلهة وقص
 فيها بعض اخبارهم وترسل بالابتهاال الى افلون وعطارد (هرس) والزهرة
 وذيميثير والمريخ (آريس) واثنين وهيرا وهرقل قلب الاسد واسقليبيوس
 الاله الطب وهيفست الاله النار وفوسيد وزفس والشمس والقمر والارض
 وهلمّ جرّاً

وقد نسبوا اليه ايضاً بعض مقاطيع واحاجي في ايات قليلة والاظهران
 تلك المقاطيع والزبور واشباهها مما ألصق بدويان هوميروس لجهل روايتها
 اسماء اصحابها



اللياذة

تمهيد

اللياذة او الالياس نسبة يونانية الى اليون عاصمة بلاد الطرواد وهي المحمة التي نحن بصددھا وضمھا هوميروس على اسلوب بسيط وبنھا على موضوع واحد هو « غيظ اخيل او احتدائه » ونهج بها نهجاً متناسقاً قص في اثناثة حوادث متسلسلة لانتشعب وقائمھا بتعدد الاشخاص مھما كثروا وكثرت . ففي بهذا المعنى سلسلة واحدة من اولھا الى آخرھا وهو مذهب معظم الرواة والقصاصين من القدماء ولا سيما الشرقيين لميلھم الى البسيط من القصص بخلاف رواة الاورويين في العصر الحديث فانھم يفرعون الحوادث ويكثرون من تدخل الاشخاص بوقائع متشعبة مما يؤول في نظرم الى زيادة تفككة القارىء ولعل المتأخرين مصيرون برأيهم هذا في الزمن الحاضر وخصوصاً لانھم بعد انتشار فن الطباعة اصبحوا في غنى عن استظهار افاصيصھم على نحو ما كان القدماء يحفظون رواياتھم حرفاً حرفاً عن ظھور قلوبھم . ومعلوم ان البسيط المتناسق اسهل حفظاً من المركب المتشعب

ولا بد لنا قبل بسط موضوع اللياذة من الالماع الى حرب طروادة تلك الحرب التي خلد هوميروس ذكرھا بافتطاع شذرة منها موضوعاً لاناشيده كانت مملكة طروادة اثناء تلك الحرب ممتدة من جنوبي اسيا الصغرى الى الهليسينطس وهو مضيق الدردنيل وملكھا فريام وقاعدتها اليون وتدعى ايضاً طرويا (او طروادة) وقد عفت اثارھا منذ قرون ولكنه قد يؤخذ مما توصل اليه بالبحث انھا كانت واقعة في سفح الجبل القائمة عليه الآن قرية بونارباشي

اما بلاد الاغريق فكانت ممالك صغيرة تتحالف احياناً وتشتاق اخرى وبينها وبين بلاد الطرواد صلة تجارة ونسب . وحدث ان منيلاوس ملك اسبارطة غاب عن عاصمته في مهمة وان فاريس بن فريام اُوفد برسالة الى اسبارطة فنزل ضيفاً على منيلاوس وهو غائب وما زال بهيلانة امرأة فاريس حتى استهوها فأحبته ووافقته علي الفرار معه الى بلاده . فقامت الاغريق وقعدت لذلك النبأ . ولما أعتبهم الحيلة في استخلاص هيلانة تاهبوا للحرب واستنصرخوا جميع قبائلهم ففزع اليهم القاصي والداني وعقدوا لاغاثموني اخي منيلاوس وملك ميكنيا . فكانت الرئاسة اليه منذ نشوب الحرب الى ان خبت جذوتها بدمار اليون . فساروا جيشاً كثيفاً يعيشون في بلاد الطرواد يخربون المدائن ويقتلون الرجال ويسبون النساء وينهبون الاموال الى ان بلغوا اليون العاصمة فحصروها واقاموا على حصارها عشر سنين . فساءت حال الفريقين ونفدت الارزاق وبادت المقاتلة وكاد الاغريق يثنتون الى اهلهم ويقنعون بسلامة من بقي منهم لولم يوافهم داهيتهم اوديس بخدعة مكنتهم من فتح اليون

موضوعها

تناول هوميروس اياماً قلائل من السنة العاشرة لحصار اليون وبني عليها منظومته وشرع فيها بقوله :

ربة الشعر عن اخيل بن فيلا أنشدبنا وأروي احنداماً ويلا
اشارة منه الى انه سيدور حول ذلك الاحندام منذ انقذ الى ان خمد . وهو
موضوع يكاد يحسبه شعراؤنا تقيماً لبساطته ويعجبون لقريحة علقته به فأنتجت
نحواً من ستة عشر الف شطر او شعر مع ان معلقة امرئ القيس ومطلعها
بني، يجموع اوسع وموضوع اجمع تقصر بجماليتها عن مئة بيت . وانك مع هذا
اذا طالعت اللياذة كلها لانكاد ترى فيها حشواً ولفواً بل لانيمالك ان تستزيد
منها في مواضع كثيرة

وَجُعِلَ الْقِصَّةُ أَنَّهُ كَانَ فِي جَمَلَةِ السَّبَايَا فَتَاةٌ جَمِيلَةٌ وَقَعَتْ فِي سَهْمِ أَخِيلَ
عَنْزَةِ الْاَغْرِيْقِ فَانْتَزَعَهَا مِنْهُ اِثْنَانُونَ زَعِيمُ الزَّمَانِ وَاسْتَخْلَصَهَا لِنَفْسِهِ فَعَظُمَ الْأَمْرُ
عَلَى أَخِيلَ وَكَادَ يَبْطِشُ بِاِغْثَامِنُونَ لَوْلَا أَنَّ اِثْنَيْنِ الْاِهَةَ الْحَكَمَةَ هَبَطَتْ مِنَ السَّمَاءِ
وَصَدَّتْهُ قَسْرًا . فَانْكَفَأَ عَنْهُ وَاعْتَزَلَ الْقِتَالُ هُوَ وَعَشَائِرُهُ . فَنَحِمِي وَطَيْسَ الْحَرْبِ
بَيْنَ الْاَغْرِيْقِ وَالطَّرَوَادِ وَأَخِيلَ فِي عَزْلَتِهِ يَحْرَقُ غَيْطًا . فَاشْتَدَّتْ عَزِيمَةُ الطَّرَوَادِ
لَاخْتِجَابِ أَخِيلَ فَانْكَفَأُوا بِالْاَغْرِيْقِ فِي مَوَاقِعَ كَانَتْ الْغَلْبَةُ فِي مَعْظَمِهَا لَهُمْ . فَلَمَّا
ثَقُلَتِ الْوُطَاةُ عَلَى الْاَغْرِيْقِ . اَوْفَدُوا الْوُفُودَ اسْتَرْشَاءً لِأَخِيلَ فَمَا زَادَ إِلَّا عِتْوًا
وَكِبْرًا . فَوَقَعَتْ هَيْبَةُ هَكْطُورِ زَعِيمِ الطَّرَوَادِ وَابْنِ مَلِكِهِمْ فَرِيَامَ فِي قُلُوبِ الْاَغْرِيْقِ
وَمَا زَالَتْ لِنُتْوَالِي لَهُ الْغَلْبَةُ بَعْدَ الْغَلْبَةِ حَتَّى كَادَ يَحْرِقُ سَفَائِنَهُمْ وَيُرْدِمُ خَائِبِينَ .
وَكَانَ لِأَخِيلَ صَدِيقٌ حَمِيمٌ هُوَ لَطْرَمَلُ . فَقِيَّ جَمْعُ بَيْنِ كَرَمِ الْخِلَالِ وَبَسَالَةِ الْاِبْطَالِ
صَحْبِ أَخِيلَ فِي مَعَزَلِهِ وَهُوَ مَعَ هَذَا يَتَلَطَّى اِسْمِي لَنَكْبَةِ قَوْمِهِ وَيَسْتَفْزِ أَخِيلَ لِلَاخِذِ
يَيْدِهِمْ وَأَخِيلَ كَالْحَجَرِ الْأَمِيمِ لَا يَرِيقُ وَلَا يَلِينُ . وَلَمَّا اشْتَدَّتْ الْاِزْمَةُ عَلَى الْاَغْرِيْقِ
وَكَادَ يَقْضِي عَلَيْهِمْ جَعْلَ لَطْرَمَلُ يَنْتَحِبُ كَالطِّفْلِ فَأَذِنَ لَهُ أَخِيلُ أَنْ يَتَقَلَّدَ سِلَاحَهُ
وَيَحْمِلَ عَلَى الطَّرَوَادِ بِجُنْدِ الْمُرَامِدَةِ قَوْمِ أَخِيلَ . فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ حَمَلَةً مَزَقَتْ شَمْلَهُمْ
وَرَدَّتْهُمْ عَلَى اِعْقَابِهِمْ وَإِذَا بِهِ خَرَّ قَتِيلًا أَمَامَ هَكْطُورِ فَدَارَتْ الدَّائِرَةُ بِمَوْتِهِ عَلَى
قَوْمِهِ فَوَلَّوْا مَدْبِرِينَ وَهَكْطُورُ يَضْرِبُ فِي اِرْدَائِهِمْ . وَلَمَّا عَلِمَ أَخِيلُ بِمَوْتِ لَطْرَمَلِ
قَتِيلًا تَسْعَرُ حُزْنًا عَلَى حَلِيفِ وَدِهِ وَالتَّبَهُبِ حَقْدًا عَلَى الطَّرَوَادِ وَتَحْوِيلِ غَضَبِهِ مِنْ
عَنِ الْاَغْرِيْقِ إِلَيْهِمْ وَنَهْضِ الْاِخْذِ بِالنَّارِ فَصَالِحِ اِثْنَانُونَ وَاغَارَ عَلَى الطَّرَوَادِ فَبَطِشَ
بِهِمْ يَبْطِشُ الْأَسْوَدَ بِالْحِمْلَانِ فَلَاذُوا بِالْفِرَارِ وَتَحَصَّنُوا فِي مَعَاظِلِهِمْ مَا خَلَا هَكْطُورُ
فَأَنَّهُ بَرَزَ لَهُ فَقَتَلَهُ أَخِيلَ وَمِثْلَ بِهِ . وَلَكِنَّهُ مَا لَبَثَ أَنْ سَكَنَ جَأْشُهُ وَخَبَا غَيْظُهُ
فَانْقَلَبَ ذَلِكَ الْغَيْظُ رَفَقًا وَعُطْفًا إِذْ رَقَّ لِشَبِيهِ فَرِيَامَ فَأَلْقَى إِلَيْهِ بِجَنَّةِ ابْنِهِ وَسَيِّدِهِ
أَمَّا فَانْتَهَتْ الْقِصَّةُ بِسُكُونٍ وَسَلَامٍ

نظمها وتناقلها

إذا لزم من تماسك اجزاء اللياذة ان تكون منظومة واحدة فلا يلزم ان تكون نظمت وأنشدت جزءاً واحداً . ولا يؤثر على مجموعها ان تكون أنشدت في فطر واحد او اقطار مختلفة فهذا نقلها العربي وما هو بالشئ المذكور ازاء الاصل اليوناني وقد نظم في اربع من قارات الارض . ولا فرق ان يكون الشاعر نظمها تطريباً بمانيها او تطلباً بأغانيها . تلك جميعها مباحث لا فعل لها في جوهر اللياذة فليس لنا هنا ان نطيل النظر فيها . وانما يجب النظر في طريقة اتصالها على سمعتها من السلف الى الخلف

ذهب برتلي سنت ابلير^(١) الى ان اليونان كانوا يكتبون لعهد هوميروس وهو قول لم يؤيده أثر حتى الساعة . ومع هذا فعلي فرض صحة هذا المذهب فان الكتابة عندهم كانت في زمن طفولية لانكاد نسمع الا لتدوين ما عظم من حوادث التاريخ والا خلقت ولو أثراً ضعيفاً كما خلقت في مصر وبابل . فلاريب اذا انها انما حفظت اولاً في اذهان الرواة فتناقلوها جيلاً عن جيل وقد يستغرب تناقل اللياذة في اول امرها استظهاراً على ما فيها من كثرة الايات واتساع المباحث وتنوع الاحاديث . على انه يتضح لدى التروي ان ذلك الاتساع كان من سمات حفظها وعلوقها في ذاكرة المشدين . وهو ثابت ان الانشاد مهنة كانت ولا تزال شائعة بين اجيال شتى من الناس . وكان للرواة والمشددين منزلة يحسدون عليها ولهذا طال اليها كل ذي علم واسع وذاكرة نيرة . وكثيراً ما كانت باب رزق لكل ضرير كفت نظره فتحوّل نور بصره الى بصيرته فادخرت في محفوظها ما تنقص عن رسمه اقلام الخطاطين ذكر سقراط وافلاطون وغيرها ان المشدين كانوا يتهافون الى مجتمعات الناس في اثينا وسائر مدن اليونان فينشدون ما حفظوه من اللياذة وغيرها

(1) Barthélemy Saint-Hilaire, Iliade d'Homère traduite en vers français.

وكان قيام هؤلاء المنشدين بين العامة والخاصة من لوازم كل احتفال وطني وعيد ديني . فتقام لهم في أثينا وسافس ونيوس وأرخمينا ومدائن أخرى أسواق كسوق عكاظ ومربد البصرة يتناظرون فيها وتعدُّ لهم الجوائز السنية فيحجزها المبرز منهم ويحرص عليها حرص الفائز باكليل الفار بعد الانتصار . ولطالما كان يمنع الواحد منهم الى التغني ببطل معين او رواية مخصوصة فيفني العمر بالقائها حيناً بعد حين على ما هو اليوم شأن القصّاصين في مصر وبر الشام والاقطار العجمية . ويؤخذ على ذلك دليل من نفس هوميروس اذ انطق أوديس في الاوديسية (ن ٩ — ١٢) بما يربو على الفين ومثني بيت نفسه واحداً . على انه لا يلزم مما تقدّم ان راوياً واحداً ينشد اللياذة كلها او يحفظها لهذا الغرض . وقد اسهب متفرد^(١) وغروت^(٢) وغيرها في ذكر الادلة الساطعة على امكان بقاء اللياذة معفولة في الازمان قبل شيوع الكتابة مما لا متسع لنا لنقله . وحسبنا ايراد شيء من الادلة الحديثة منها وما يتصل بأزماننا مما يرنح اليه قراؤنا ولا سيما العرب منهم

العميان وأنشاد الشعر

بحث ثوريل^(٣) في الاغاني اليونانية في الاعصر الاخيرة فقال في مقدمته « انها لانزال على ما كانت عليه في سالف الزمن والغريب انها بقيت مهنة العميان وهي مهنة تجلبهم الى الناس بل تجعل لهم مقاماً ذا نفع بالنظر الى حالة الامة واخلاقها وتصوراتها وشأنهم التنقل من بلد الى آخر فيطوفون اطراف بلاد اليونان وجزرها وهم استظهار جميع ما وسعه ذهنهم من الاشعار والانشيد القديمة والحديثة . فكلمهم يعرف منها شيئاً كثيراً ويبلغ ما يحفظه بعضهم الى حد الغرابة والاعجاز . فاذا ذكروا هذه الاغاني فانما ادخروا كنزاً ثميناً

(١) Mitford, History of Greece p. 185.

(٢) Grote, History of Greece Vol. II p. 145.

(٣) Fauriel, chants populaires de la Grèce moderne. 1824.

يطوفون به فيلقونه بضاعة ذات قيمة وحيثما حلوا اجتمعت الناس اليهم فيأخذون في الانشاد بما وافق المقام ويتمشون بما ينفعهم به مستعمون . وم في الغالب يؤثرون الانشاد بين عامة الناس لان العامة اكثر اقبالا عليهم واقل تعنتا في انتقاء المواضيع — ولا يزالون كما كانوا لعهد هوميروس يتفنون على نم القيثارة او الكنتارة وم فئتان فئة تنشد تحفوظها من شعر الشعراء وهي الفئة الكبرى وفئة قليلة تنشد من تحفوظها ومنظومها وهي ارفع منزلة واوسع جاها . وهكذا فان هؤلاء المطربين هم الآن كما كانوا في القدم رواة الاخبار والتواريخ وشعراء الامة »

حفاظ الشعر عند سائر الامم وخصوصاً العرب

قال غريم^(١) « ان الالمان كانوا يسلكون هذا المسلك وان الاناشيد الجرمانية كانت تنشد كانشيد اليونان على نم القيثارة »
ومن قول فوريل ايضاً^(٢) « ان الروليات والقصص كانت تنشد في فرنسا على هذا النمط في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وكان الراوي اذا اراد الانشاد دعا الجماعة الى استماع اغنية تاريخ جميلة (une belle chanson d'histoire) ثم يتغنى على نم شبابة عربية ذات ثلاثة اوتار واذا اخذ فيه العياء ظل بنغم زمناً بلا انشاد . تلك كانت الوسيلة المثلى لالتقاء الروايات والافاصيص »
ونقل الكسندر شدزكو^(٣) « ان حفاظ العجم يتلون لك من شعر شعرائهم ما لا تنكاد تصدق ان ذاكرة تميمه لكثرتة فقد يظل المنشد يتغنى باشعار الشهامة (وهي الياذة النرس) نهارة كاملاً » وما ادراك كم يتتا يقال في نهارة

(1) Grimm, Deutsche Heldensage, p. 373

(2) Romans de chevalerie, Revue des deux mondes, XIII p. 559

(3) Alexander Chodzko, specimens of the popular poetry of Persia, London 1842. Introd. p. 13

اما العرب فلم يكن في أمة من امم الارض شأنٌ للانشاد ارفع منه عندم وهذه اخبار عكاظ والمربد تملأ الاسفار بصرف النظر عن اخبار الشعراء المنبئين في كل اصقاع البلاد العربية لاهنة لهم الا انشاد الشعر . وهذه اخبار الخلفاء وقد كان ما يميزون به الشعراء من ابواب النفقة الطائلة مما لا يبقى معه ريب ان انشاد الشعر كان الضالة المشودة والمخفرة التي يتسابق اليها الربيع والوضع واذا طالعت اخبار الشعراء المترجمين في كتاب الاغانى وغيره رأيت بعضهم كهوميروس اميين لا يقرأون ولا يكتبون بل ربما احتاج ابلغهم الى قارىء صغير كما فعل طرفة ابن العبد والمتلمس اثناء شخوصهما الى عمرو بن هند ملك الحيرة اذ اضطررا الى استرضاء غلامٍ أحدث ليقرا لهما كتاباً وكلاماً من فحول الشعراء (شرح اللياذة ص : ٤٤٩) وهو لاء اصحاب المعلقات والمجهرات والملمحات كان فريقٌ كبيرٌ منهم أمياً

واما مبلغ الذاكرة عندم فما لا يفوقه شيء في اخبار اليونان والرومان والافرنج . وفي اخبارهم ما لو حُذِفَ منه شيء كثير لربا باقى على مرويّات اليونان قديمهم وحديثهم . فاذا علمت ان ابا العلاء المرزى سمع محاوره اسرائيليين بالعبرية وهو في شأن غير شأنهما ثم طلب بعد مدة مدبدة للشهادة فأعاد تلك المحاوره وهو لا يفتقه من العبرية حرفاً - اذا علمت ذلك فما ظنك نعي ذاكرته من الشعر لو توخى الحفظ - واذا قيل لك ان اللياذة مؤلفة من زهاء ستة عشر الف بيت فيصعب الاخذ بقول القائلين انه امكن استظهارها فما بالاك لو سمعت ما ذكروا عن غرائب حافظه حماد الراوية اذ امتحنه الوليد بن يزيد ووكل به من يسمع انشاده فأثد تباعاً الفين وتسعمائة قصيدة من شعر الجاهلية . اولو قيل لك ان الاسمعي كان يحفظ ستة عشر الف ارجوزة كاملة ما خلا القصائد والمقاطيع واخبار العرب بدوم وحضرم . وهذا قولٌ مهمٌ أنس فيه من المبالغة لا يخلو من صحة بعضها كافٍ لاثبات ما تنوخواه هذا والى من يعتقدون انخطاط قوى الذاكرة وارتقاء قوى الخيلة في

ازماننا هذه بناء على الناموس القاصي بترقي القوى البشرية وانحطاطها بكثرة المزاولة وقتلها . ومع هذا فالحافظة مهما ولدت خاملة لا تلبث ان تقوى بالمثابة على الاستظهار فثقلها في تدرجها من الضعف الى القوة مثل يد التجار والحداد وقلم الكاتب . وفي عصرنا هذا من حفاظ التوراة والانجيل والقرآن مئات والوف عرفت بعضهم بالذات . ولقد طالما اضطرت في حين من الزمن الى مراجعة خبر او آية في التوراة والى جانبي المرحوم المعلم داود الحاج فكنت اذا ذكرت له طرفاً مما أريد اشارة فوراً الى السفر والفصل وكثيراً ما كان يعين العدد فأنتصح الكتاب فاذا هو كما قال . وحفظ القرآن منتشرون في كل صقع من بلاد الاسلام ومنهم الجمل الغنير من كفي في البصر كرواة سائر الامم . ويقال مثل ذلك في حفظ الانجيل من المسيحيين ولا سيما وعاظ الانجيليين

اما رواة الشعر فهم في البلاد الشرقية اكثر منهم في اقطار الغرب حيث قضت الكتابة على الاستظهار القديم . وقد شهدت بنفسي مصداق قول شذركو في منشي الفرس . فاذا جلست الى الواحد منهم وهو بنشد شعر الفردوسي او جلال الدين الرومي او قصص كلستان سعدي شعراً ونثراً لظننته يتلو كتاباً يتصفحه حرفاً وحرفاً واذا جلت في بادية العرب وسمعت منشديهم ينشدون على نعم ربابهم الوقا من الاشعار قلت تلك كنارة هوميروس وهولاء لا اولئك هم المنشدون الذين ذكرهم سقراط وافلاطون ومثفرد وغروت وفوريل وغرم وشذركو

ولقد تيسر لي اثناء تجولي بينهم ان التقطت منهم قصائد شتى جمعتها في ديوان سامل منتخباته بالطبع وكثيراً ما كنت اسمع القصيدة من غير راو فاذا هي في وليس بالامر اليسير بازاء ما تقدم نحفوظ زجالي مصر وقوالي لبنان وشعراء اهل الارياض في اسبانيا والبرتغال . فقد استبقت الذاكرة بضع قصائد بل مطالع من معني اللبنانيين مما علق بها في الصغر منذ بضعة عقود من السنين فاستنشدتها بعضهم في الصيف الماضي فاذا هي عندهم على حالها لم تزد ولم تنقص وقد ذكر كتاب الافرنج كثيرين ممن عنوا بحفظ كتاب او منظومة فما

لبثوا ان ادركوا بنيتهم كما كولي (Macaulay) الذي أنشد نصف منظومة ملتن الانكليزية في الفردوس الغابر . واذا ساغ لي ان اذكر لنفسي ولرفاقي في الصغر مثلاً من ذلك قلت اننا كنا نتسابق الى حفظ ملحمة ملتن المذكورة حتى تيسر لي مرةً سرد نشيد كامل منها ونصف الثاني مع قسم غير يسير من منظومة سيدة البحيرة لواتر سكوت . وكان استاذنا المرحوم المعلم بطرس البستاني يشوقنا الى حفظ الفية ابن مالك وما زال بي حتى استظهرتها واستنشدني منها مائتي بيت تباعاً في حفلة امتحان

وليس ما اذكره في هذا الباب على سبيل الاستطراد شيئاً مذكوراً بازاء تحفوظ الرواة الذين لامهم لم الا اخزان الشعر والقصص في حوافظهم فالمنظومات فيها كالتناع المتضود في حانوت حافل بأصناف المنسوجات ينشرون منها ماشاوا ابان شوا على نية ان يطووه الى موضعه . وكلما نشروه مرةً زاد زهاء ورواء واذا تلقاه احدهم عنهم فائماً يتلقى رسمه والاصل باقٍ في ملكهم لاتبلفه يد مشترٍ او سارق . فأمثال هؤلاء هم الذين استبقوا للخلف منظومات هوميروس الى ان كتبت

جمعها وكتابتها

اذا علمت كيف تهافت الحكماء والعظماء على تلقي اللياذة وتلقيها للناس يوم لم يكونوا يكتبون وعرفت كيف اكب الحفاظ على ادخارها تبادر الى ذهنك انه لم تكد الكتابة تنتشر في بلاد القوم حتى اقبلوا على جمعها وتدوينها . وان لنا في الاثر امثلة اخرى مما تُلي وانتشر قبل ان يجمع في كتاب ليحفظ ويُقل او يُبد فاهمل . وليس هذا خاصاً بالشعر بل قد تُناقِل الحكم والروايات الثرية قرونًا طويلاً . وهكذا حفظت تواريح الجرمان والبكنديناف ومنظوماتهم قرونًا قبل ان يدون منها شيء في كتاب ^(١)

(1) Grote, History of Greece Vol. II p. 149

Mariners accounts Vol. II p. 377

وهو معلوم أيضاً ان القرآن على غزارة مادته وتشابه آياته انتشر ورسخ في حوافظ
 الصحابة كاتبهم وامتهم بل ربما كان ارتخ في ذهن الاتي
 وليس لدينا شيء مما يمكن معه تعيين الزمن الذي بوشر فيه بكتابة الابادة . ولا
 شك ان فيسيستراتس كان من صفوة المشغولين بهذا العمل الخطير كما تقدم
 (ص : ٢٣) حتى لقد عثروا في بعض مخطوطات رومية على اسماء اربعة من الشعراء
 استعان بهم على ضبط منظومات هوميروس وهم أونو مكريشس وزوفيرس وأريفيوس
 وكنيكيلوس . ولكن الظاهر ان نسخة فيسيستراتس لم تكن النسخة الاولى وانه شرع
 في كتابة تلك المنظومات منذ اواسط القرن السابع ق . م . اي قبل نحو قرن كامل .
 ولا رب ان من ولي صولون الى زمن فيسيستراتس جمعوا منها نسخاً مما ذكره علماء
 مدرسة الاسكندرية أو اغفلوه . بل لعل الكتابة في زمن صولون نفسه كانت
 لتسع الى مثل هذه الغاية . وان جميع معاصري فيسيستراتس اثناو الثناء الجليل
 على ما فعل . ولكن الغريب ان علماء الاسكندرية لم يذكروا نسخته في جملة ما حسبهوه
 من النسخ التي كانت بين ايديهم . فاما انها لم تصل اليهم وهو محال مع شهرتها . واما
 انهم كانوا يعلمون انها انما كانت نسخة تقدمتها نسخ كثيرة فأغفلت في جملة
 ما أغفل وهو الاظهر . وكانت في الاسكندرية اذ ذاك نسخ شتى نقلت عن
 مجموعات أرغس وخيوس . (ساقس) واكريت وقبرس وغيرها من مدائن اليونان
 مما يدل على سعة الانتشار . فعمد علماء الاسكندرية الى تلك النسخ ومن جملتها
 النسخة التي كتبها ارسطوطاليس للاسكندر وقابلوها بعضاً على بعض ثم وضعوا
 النسخة التي تداولتها الابدي الى هذا الزمن . وكانوا رطاً من فحول العلماء بل كانوا
 اعلم ابنا زمانهم كزبدودوتس الانسي وأرسطوفانس البيزنطي واعلمهم طراً
 أرسطرخس السامثراقي وهو الذي قسم كلاماً من الابادة والاوديسية على
 ما قيل الى اربعة وعشرين نشيداً^(١) على عدد حروف الهجاء عندهم

القول في سلامتها من التحريف والتصحيح

لم يُعْنِ البشر في زمن من الازمان بنسخ كتاب وتحيصه وحفظه ونشره
عنايتهم بالايادة واختها الاوذية ولا يستثنى من هذا الاطلاق الا الكتب التي
رُفِعَتْ عليها أُسُسُ الاديان كالنوراة والانجيل والقرآن . ومع هذا فليست ممن
يقول بسلامة الايادة بجميع اجزائها من كل تحريف وتصحيح او زيادة ونقصان
واي كتاب اجمع الناس على انه لم تعبث به قطُّ بدُّ كاتب ولم تنبهُ جاحثة
زمان . أفليس في بعض نسخ النوراة عباراتٌ تختلف عنها في نسخ اخرى .
وانَّ منها أسفاراً كاملة يعدُّها فريقٌ قانونيةً وبكر ذلك فريقٌ آخر .
أوليس من يقول بضياغ بضعة اناجيل واختلاط استغفار اخرى من العهد الجديد .
ومن ينكر عناية الخلفيتين ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب في جمع اجزاء
القرآن في صحفٍ مكتوبة ومبلغ جهدها وجهد الخليفة عثمان بعدها في ضبط
قراءته والنظر في كل آية من آية حتى اذا رأى عمر ان آخر سورة التوبة
مفقود ظل يبحث عنها حتى وجدها مع ابي خزيمة الانصاري وفعل فعله عثمان
اذ فقدت آية من الاحزاب فالتمسها ووجدها مع خزيمة بن ثابت الانصاري .
وهل سد ذلك افواه المتراضين من بعض فرق الغلاة والمعتزلة . أو لم يتواتر
ايضاً ان بعض كتبة الوحي لنبى الاسلام كعبد الله بن ابي سرح في اول اسلامه
كانوا يعمدون الى تبديل كلام بآخر

ولكن النبي كان حياً فأثبتوا انه كان يضرب على ايدي اولئك المحرّفين ويردُّ
الكلم الى مواضعه . اما الايادة وقد تناشدها الرواة نحواً من قرنين ولا ضابط
لها سوى اذهان المتشددين فلم تكن تتم قوة بشرية قادرة على حفظها من اولها
الى آخرها على ما نطق بها هوميروس مهما بُدِّل في سبيل ذلك من العناية
والهمة . بل ربما لوبعث هوميروس نفسه وانشدها مرة اخرى لما تما لك عن تغيير
حرفٍ وتبديل شعر . على انه لا ريب ان التحريف والتصحيح قليلان جدّاً في جميع

ما اتصل بنا منها لما رأيت من عناية القوم بها اللهم الا أن تكون هناك اجزاء مفقودة برمتها مما لا يدخل تحت هذا الحكم . ومع هذا فارتباط اجزائها بلا انقطاع يدل على انه ان كان ثمة مفقود فهو قليل . واننا الآن موزدون استجلاء لهذا البحث امثلة بما ذكره الشراح وما لم يذكروه من الدخيل والساقط والمكرر والمغلق

الدخيل

ذكر هوميروس في النشيد الثامن انه عند غروب الشمس تحاجز الجيشان فانكها كل الى معسكره والطرواديون على بيته من النور في غدم لما أوتوه من ابناء الغيب فاقاموا ليهم ينتظرون بزوغ الفجر لينقضوا على اعدائهم . ثم وصفهم ووصف نيرانهم وقال : (ص : ٥٤٧)

فبين السفين الراسيات وزئس لوامع نيران بذاك المعرس
توج لدى اليون في الف مقبس بوجعها خمسون في كل مقبس
ودونهم بيت العجال جياهم وقوف لدى ذاك القيصم المكس

وهنا في بعض النسخ اربعة ابيات مفادها انهم ضحوا بالضحايا فلم تنفع لدى الآلهة مونغ قبول لما استقر في نفوسهم من كراهة اليون عاممة الطرواد وملكتها وملكته . فذهب بعض الشراح وذهبنا مذهبه الى ان هذه الايات دخيلة فاغفلوها واغفلناها لان فوز الطرواد في ما يلي يدل على انها في غير موضعها بل هي مناقضة للمعنى على خط مسنقيم لان زفس كبير الآلهة كان في زمن مولادة للطرواد وفي النشيد الثالث عشر يوعز فوليداماس الى هكتور . زعيم الطرواديين ان يجمع اليه زعماء الجيش ويشاورهم في الامر فيقول الشاعر :

تلقاه هكتور قولاً مصيباً وقال لفوليداماس تحبياً

وهنا في بعض النسخ بيت يقول ان هكتور وثب الى الارض من مركبته وهو لا شك دخيل من غير نظم الشاعر لان سياق الحديث يدل على ان الطرواد غادروا مركباتهم وزحفوا مشياً على الاقدام

هذا وان في الليادة بذعة آيات لا أرى لما عملاً أصلاً ولو خبرت
لحذفتها ولكنه لا سبيل الى ذلك لانها مثبتة في كل النسخ . مثال ذلك
قول إريس اذ انتدھا زفس برسالة الى هيرا واثنين بعد ان بآتمتها قوله كجاري
المادة قالت لاثينا: (ن ٨ : ٥٤١)

وأنت إباشر الكلاب وقاحةً أتلقين بالرع الثقيل إبا الوري
فانها تجاوزت حد مهبتها وفامت بكلام بذي لم ينة به زفس ولم يثنى
للشاعر ان اى بامثاله فضلاً عن انه كلام لا يجوز ان يوجه الى اثينا ربّة الحكمة
وحيثما ذكرها هوميروس فانه يذكرها بالمعظيم والتبجيل
ومثل ذلك قوله بلسان فطرقل في الشيد السادس عشر (ص : ٨٥٢) متكباً
على فديون وهو هو قتيلاً من مركبته الى الارض :

وهكطور صاح به قائلًا : فيا للباقة كيف يجري
فلو من سفينته واثباً الى اليم غاص للجة بصر
لصاد حليلاً ولو صدع النوى بكفى الجاهير شر الطوى
وفطرقل هذا على بسالته وعزته مثال الحلم والحصافة والدعة فلا يصح ان
ينطق بمثل هذا التهم على قتيل انقضي امره . ولا سيما انه قبل آيات اتمر صاحبه
مريون لمخاطبته عدواً بكلام فظ فقال له : (ص : ٨٤٥)

علام اخي ذا الكلام المهين وأنت بلوتك سامي النعى
أنزع أن حديد الكلام يصد الطراود يوم الصدام
فماذا بدافعهم عن قتيل حواليه تفتك لأم بلام
ولن يرجعوا عنه حتى يضاف صريعاً لذلك الممام ممام
فللحرب فعل وللسلم قول وهذا اوان الوغى لا اللغا

الساقط

ويقابل هذه الزيادة نقصان قليل في ايراد بعض الروايات مثال ذلك قصة

بليروفون فانها مبتورةٌ بترًا فسواءً التقطها هوميروس من التوراة فمثل به يوسف الصديق او تناولها من مصدر آخر فلا يأتي المطالع على آخرها الا وهو متطلع الى اسباب انحراف الآلة عن ذلك الرجل البار وقد اففنا بهذا البحث في موضعه (حاشية ص : ٤٥٣)

المكرر

وهناك ابياتٌ مكررة قد يمكن وضعها في ثلاث مراتب :

١ ما كان واجب التكرار كالبلاغ الذي يلقى الى الرسول فيؤديه كما ألقى اليه وهو كثير

٢ ما كان جائزة وهو اما مقصود من الشاعر لبلاغته واما دخيل بقلم النساخ في احد موضعيه لكثرة تغني الناس به وانباؤه على المعنى في الموضعين .
مثال ذلك وصف اصطدام الجيشين في النشيد الرابع اذ يقول : (ص : ٣٧٥)
تَدَفَّقَتِ الاجنادُ أَعْيًى تَدَفَّقِي الى الحرب تجري فيلقاً إثر فيلق
كشائر امواج البحار تهبُّها من اللجج انواء بفير ترفق
بدفع بعضاً بعضاً فوق لُججها الى حيث فوق الجرف بالعنف نلتقي
فبعض ابيات هذه القصيدة مكررة في مثل هذا الموقف في النشيد الثامن (ص : ٥٢٠)

ومثل ذلك قوله في وصف هكتور وهو مقبل على الاعداء : (ن ١٥ : ص ٧٨٢)
افلن هاتيك المراتم مانح وهكتور الابلاء والحرب جانح
كهر عتي فاض مطعمه على مرابطه بيتتها وهو جامع
ويضرب في قلب المفاوز طامحاً الى حيث وجه الارض بالنيل طامح
يروض فيه إثر ما اعتاد نفسه ويطرب ان تبدو لديه الضاحح
ويشمخ مخنلاً بشائق حسنه يطير واعراف النواحي سوابح
وتجري به من نفسها خطوائه الى حيث غصت بالحجور المسارح

فهذه الايات بعينها واردة بوصف فارس في النشيد السادس (ص : ٤٨١)
 ٣ ما كان مكروهاً والاجر به ان يُعدَّ من باب الدخيل كقول هيرا
 وهي تستمد رافة زوجها زفس بالاغريق : (ن ٨ : ٥٤٣)

ولكننا نرثي لحال الاغريق يُييدهم المقدور تحت اليلامق
 اطعنا فلا تأتي الكفاح وانما نغثم بالرأي خوف البوائق
 فهذا كلام سبق اثينا فخطبت به زفس في نثس النشيد (ص : ٥١٨)
 فما بقي فعل لاعادته

واغرب من هذا تكرار خطاب اغامنون في النشيد التاسع وهو الذي
 يقول في مطلع

أحبائي والاقبال والصيد خلتي رماني زفس في حبائل آتيا
 فهو خطاب القاه بنفسه في النشيد الثاني (ص : ٢٥٢) وقصد به هنا غير
 ما قصد هناك ولعل ما قاله في هذا الموضع مما فقد اصله فمؤوض السآخ عنه بايات
 سابقة حسبوها تليق بالمقام

المعلق

ولقد أغلق علي فهم المراد من مخالفة اثينا لابنيها زفس مخالفة بلغت حد العصيان
 وهي ربة الحكمة والساداد تعرف انها لا قبل لها به ويشق عليها الخذلان فلا تأتي
 امرأ يورثها الندم فكيف قامت بعد هذا تهديد وتوعد بكلام ملؤه العنوة ثم
 ما لبثت ان استلأمت وتدججت بالسلاح لتخوط في سلك مقاتلة نهاها زفس عن
 الاخذ بيدهم فصعدت بالامر وقالت « اطعنا فلا تأتي النزال » ثم خالفت قولها
 وانتقضت عليه انتقاضاً كاد يودي بها (ص ٥٣٧ وما بعدها) - وهذا لو كانت
 هذه الرواية في بضعة ايات اذاً ليتسر لي ان التمس للشاعر عذراً فاجزم بكونها دخيلة
 ولكنها مندججة في الرواية اندماجاً ولا سبيل الى افرازها منها الا اذا اخلت نظام سياق
 الحديث فلا بد اذاً من ان تكون من نظم الشاعر ادرجها هنا لامي غمضت علي حكمة

وخصوصاً ان الشاعر يتوخي الحقيقة في كل اقواله مريحة كانت او رمزية ويرى في كل معانيه الى بث حكمة ونشر فضيلة وليس في هذه الرواية شيء من ذلك . على انه اذا صح انتقادنا فليس بعجيب ان يشذ الشاعر هذا الشذوذ في مظنة واحدة من منظومة تملأ هذا المجلد الفغم

وعلاوة على ما تقدم ربما لا تخلو اللياذة من الفاظ بل من ابيات لعبت بها ايدي السأخ ولكنه ليس في شيء منها ما يشوه وجه تلك الخريدة العذراء فلا يزيدنا نقاد العهد الا بهاء ورواء فهي كزهره هوميروس وقومه لتوالى عليها الاعقاب وتنفضي الاحقاب وهي هي تلك الفتية العذراء ربّة الجمال الخلاب

الرأي الولفي

او القول في كونها منظومة واحدة او منظومات شتى

توالت الاحقاب على اللياذة والناس يتناشدونها ويتناقلونها وهم مُحبّون يبالغتها وانتساقها مُكبّرون ذكاء تلك القريحة السائلة التي تجرّ منها ذلك المنهل العذب . فلما كان القرن الثامن عشر قامت عصاة من العلماء وانكرت على هوميروس انشاء اللياذة وما يتبعها من سائر شعره وقالت بل هي قصائد متفرقة لشعراء كثيرين رواها الرواة وعني بجمعها المشغفون بمطالعة الشعر وكان من نتيجة قولهم هذا ان هوميروس رجل وهمي خلقته تغيّلات الشعراء

ذلك ما يدعى في عرف الافرنج بالرأي الولفي نسبة الى ولف العالم الالماني وان لم يكن هو السابق الى بث ذلك المذهب . وانما نُسب اليه لانه كان اشدّ دعائه وتيسر له نشره في زمن ثوران افكار وانتفاض على كل كبير . وقد سبقه اليه افراد ذوو شأن في عالم الادب فلم يكن لكلامهم شيء من الوقع

بدأ الخوارج على هوميروس والياذة وسائر منظوماته بنشر دعوتهم في اواخر القرن السادس عشر وفي مقدمتهم كازوبون ^(١) الفرنسي فانكر وجود هوميروس

(1) Casaubon, 1559-1614 .

وكون اللياذة من نظم شاعر واحد فلم يكذباً بعباً بقوله احد الى ان مات فدفن
مذهبه معه ثم بُعث ذلك المذهب على يد هيدلين فسـ اوبنيك^(١) فكان اشد
من سلفه . وكأنه نبه افكار العلماء الى بحث جديد فحذا بعضهم حذوه واشهرهم
مواطنه بـيرو^(٢) وود^(٣) وبنـتلي^(٤) الانكليزيان وتبعهم فيكو الايطالي^(٥) فأرـي
بكتابتـه على جميع من تقدمه . ولكن صاحب القـدح المعلى في هذا المـفـار انما
كان ولف الاماني^(٦) فتشدد الحملة وما كاد ينشر مقدمته على الشعر الهوميـري في
اخريات القرن الثامن عشر^(٧) حتى فشا مذهبه في المانيا وانتشر منها الى اقطار
اوروبا فهدم اركان عظمة هوميروس من أسسها وعمّ القول بين جميع المشتغلين
بآداب اليونان ان هوميروس انما هو هيـة بن بـيـة الاغريق راوية لم تلده انـي
وانما ولدته قصائد الشعراء المدرسة اسماؤهم في غواض الغيب . وان ما ينسب
اليه من المنظوم ليس الا مجموع قصائد عني بـجـها في زمن فيسـسـتراؤس في
القرن السادس قبل السـيـح . واشتد أزر ولف والذاهبين مذهبه بروح ذلك العصر
المتطلع الى التشبث بكل رأي جديد . والرأي الى تفويض كل مذهب تقادم
عليه العهد من اصول الدين الى اصول التاريخ حتى قواعد الانشاء . فنسج على
منواله بعض العلماء كـهـن الاماني في مقدمته على اللياذة^(٨) وشايـه زبـهـر الدانـمـركي^(٩)
وهردـر^(١٠) وغـذـفـري هـرمـن^(١١) وولـم مـلـر وكـثـيرون غيرهم ومعظمهم من الالمان مع ان

(1) Hédolin, Abbé d'ambignac, 1604-1672.

Conjectures académiques sur l'Illiade, Paris 1715.

(2) Perrault, 1615-1686.

(8) Wood, 1082-1695.

(4) Bentley, 1661-1742.

(5) Vico, 1668-1744-Milan 1887.

(6) Wolf, 1757-1824.

(7) Prolegomena, 1795.

(8) Heyne, Leips. 1802.

(9) Niebuhr, 1776-1831.

(10) Herder, 1744-1803.

(11) Hermann, 1806.

الناغين في ذلك البوق كانوا في بدء الامر من الفرنسيين وكأنهم ارادوا ان ينكروا على رجل فرد الاستثناء بتلك السلطة الفكرية فوزعوا على عامة الشعراء كما أنكروا على الملوك والحكام الاستثناء بالسلطة الحاكمة فنهضوا الى توزيعها على الامة

ولم ينقض العقدان الاولان من القرن التاسع عشر حتى خمدت ثورة الافكار وانثنى العلماء الى اعادة البحث وامعان النظر ثم ما لبث ذلك المذهب ان تلاشى او كاد على يد جماعة من فطاحل العلماء وفي مقدمتهم أوتفريد مـلـر^(١) فانه لم يقصر بحثه على الفلسفة والخيال بل تعهد بنفسه جميع المواقع المذكورة في شعر هوميروس وغيره من كتيبة الاقدمين وكتب تاريخاً مطولاً لآداب قدماء اليونان توفي سنة ١٨٤٠ وهو يشغل فيه . وقد اثبت بما جمع من الادلة وجود هوميروس وان اللياذة من نظمه . ولم يكن ولكن بأقل من ملر تفعلاً في هذا البحث فانه كتب الاسفار الطوال بتاريخ اليونان ووصف آدابهم وافاض في الشعر الهومييري^(٢) فتداعت على يده ويد ملر دعائم المذهب الولي . ولكن الذي قوّضها تقويضاً انما كان غريغور نيتش وله في تاريخ اليونان المجلدات الضخمة والحجج المسندة الى البيّنات^(٣)

وهكذا فان الالمان الذين شتوا هذه الغارة اثاروا من جماعتهم من تصدّى لدفعها بسواعد اشد وادلة اقوى . ومع هذا فلم يزل بينهم من يقول بالرأي الولي مع ان معظم علمائهم ومعتقي الانكاييز والفرنسيين ومُشايبي فيكو الايطالي قد نبذوه منذ طويل . وان المقام ليضيق عن ذكر اسمائهم جميعاً فضلاً عن ايراد ادلتهم فنجتزئ بالاشارة الى بعضهم من اشهر بولوج هذا الباب كالاستاذ

(١) Ottfried Muller, 1797-1840.

(٢) Welker, der epische Cyklus, 1885-1849.

(٣) Gregor Nitzsch, 1790-1861.

بلاكي^(١) في كتابه « هوميروس واللياذة » والاسقف ثروول^(٢) وغروت^(٣) في « تاريخ اليونان » . وغلادستون^(٤) في كتابه « هوميروس وعصره » . وغينيو في مقدمة المعجم الهومييري^(٥) ولويربفوست في حواشي ترجمة اللياذة^(٦) وبرتين في « المسألة الهومييرية »^(٧)

وليس لنا في هذا المقام الضيق ان نفصل الادلة التي اوردوها . ومع هذا فلا بد من القاء نظرة مجملة على اللياذة لاستجلاء ما اذا كان يصح القول بكونها من نظم غير واحد من الشعراء

علما بما تقدم في فذلكمة سيرة هوميروس ورأي المتقدمين والمتأخرين فيه انه لم يبق عمل للرب في نظر المحققين ان شاعرا يلقب بهوميروس نبغ في القرون الغابرة ونظم اللياذة والاوديسية وقد اجمعت النصوص التاريخية والاثار العادبة على انه كان بمنزلة بقصر عن ادراك شأوها سائر الشعراء فما بقي من ثم سبيل الى انكار وجوده . وانما بقي علينا ان نعلم ما اذا كانت اللياذة كلها من نتاج تلك الفريقة الوفاة

وحدتها

لقد علم المطالع اللبيب من سياق كلامنا ولا سيما من بحثنا في سلامة اللياذة من التحريف والتصحيف والزيادة والنقصان اننا اذا انكرنا على ولف مذهبه لانتظر في الانكار الى حد الاخذ بمذهب الدكتور شليمان^(٨) الالمانى الذي اثبات حقيقة الكلي والجزئي فيها واسناد كل ذلك الى

- (1) Professor Blackie, Homer and the Iliad.
- (2) Bishop Thirwall, History of Greece.
- (3) George Grote, History of Greece.
- (4) Gladstone, Treatise on Homer and the Homeric age, 1898.
- (5) Guignault, Notice sur Homère.
- (6) Leprévost, Notes sur l'Iliade.
- (7) G. Bertin, la question Homérique 1897.
- (8) Heinrich Schliemann, Ithaque, le Péloponnèse et Troie, Paris 1869;
Trojanische Alterthümer 1874;
Atlas Trojanischer Alterthümer 1875.

المكتشفات الاثرية . فاعتقادنا اذاً مقصور على ان هومبروس هو ناظم اللياذة
وانه هو ناسج بردها وناظم عقدها من اولها الى آخرها بصرف النظر عن الحقائق
التاريخية البحتة وما قد يتخللها من ساقط ودخيل

قال غروت في « تاريخ اليونان » : ^(١) « ان تعداد القبائل في الشيد الثاني
لا يمكن الا ان يكون جزءاً من كل اي انه لابد ان تكون فيه اشارة الى
حوادث مقبلة والا فاذاً أخذ منفصلاً فلا لذة فيه للسامع والاذن لاشك قتل
توالي تلك الاسماء والاعلام ما لم تكن النفس مرتاحة الى انه يرى بها الى
الاشارة الى وقائع تعقبها على الاثر . وان في آثار القوم ما يثبت ان ذلك
الجدول الجغرافي كان حتى في ايام صولون شائعاً شيوعاً عاماً حتى قيل ان صولون
نفسه عمد الى تحشية شعر فيه ليتسنى له ربح الخطر الذي عقد رهانه بينه
وبين الميغارين كما ان الميغارين اضافوا اليه شطراً يقوي حجته . ومن ثم
يتضح ان اليونان كانوا قد ألفوا قبل فيسيستراثوس بزمن طويل سماع اللياذة
منظومةً واحدةً متناسقة الاجزاء متتابعة المباني »

وهو قول لاشك سديد في بابه ولكنه لا يدفع حجة القائلين انه اذا صح
ان تكون اللياذة على سلامتها في ذلك الزمن قد لا يصح ان تكون انصلت
اليها على تلك السلامة . فدفعاً لهذا الاعتراض حسبنا ان توجه نظر المطالع الى ما اسلفنا
عن عنابة الاندمين بمفظةا نقية من الشوائب ولا سيما في باب « جمعها وكتابتها »
واننا موردون في ما يلي تحليلاً موجزاً لتلك المنظومة بل تشريحاً لتلك الجسم
المتناسكة فقراته المترابطة عضلاته يتضح منه انه لا بد من ان تكون منظومة واحدة
لشاعر واحد . وهو بحث لم يتصل بنا نظيره في ما طالعناه من كتب القوم

تحليلها وتشريحها

الاشخاص

خذ اللياذة وتصفح اية صفحة شئت منها واقراً حتى يقع بصرك على بطل من

(1) Grote, History of Greece, Vol II p. 157.

ابطالها سواء كان من مغاوير الكفاة او من عرض الجند ثم انتقل الى معجم الاعلام وانظر في الصفحات التي ورد فيها ذكر ذلك الرجل واقراً ما وُصف به فيهن جميعاً فتبين انه هو هو حتى تكاد تنطق باسمه قبل ان تبلغه مهما تباينت المواقع وتباعدت الاناشيد

فهذا اخيل يبدو لك لاول وهلة قرماً عبداً وشهماً حقوداً وولياً ودوداً وصارماً عتياً ترسم حسناته وسبائنه في مخيلتك من تلاوة اول جزء من اول نشيد وتعلم انه الفى الغضوب بُنيت اللياذة علي وصف غضبه فلا نقرأ نشيداً منها سواء ظهر فيها ذلك البطل او لم يظهر الا وتشعر انه لا يزال عندهما بسعير الحقد والغليظ الى ان يتيسر للشاعر تهيمته الاسباب المؤدية الى اخماد تلك الجذوة في آخر الكتاب فاذا به كما نستلزم دواعي السيادة والكرامة ساكن الجاش على رفعة نفسه وقد جمع في صدره من كرم الخلال ما يكاد يضيئ عنه ارحب الصدور وليس في الكتاب كلمة عبارة واحدة يشذ بها الناظم عن هذا المرمى وهيئات ان يتفق هذا التناسب لغير ناظم واحد

ثم انظر الى مكطور فهو حينما رأيته حامي الدمار دقاع العارزوماً حزوماً مقدماً عن غير طيش ورعاً عن صدق عقيدة ذا ذكاء ونيرة بتمسك من دينه بالحق بمجهوداته وينبذ مادون ذلك من خرافات القوم . يعلم انه عماد قومه فيسير سير الزعيم المأموم ويحسن الذود والكر والابلاء ولا يفتأ على المثال الذي صور به الشاعر حتى يذهب شهيد الدفاع ويموت ميتةً يحسد عليها .

واذا انتقلت من هذين الزعيمين الى سائر ابطال اللياذة وتأملت كل رجالها ونسائها رأيت ان الشاعر رسم لكل رسم لا يخفى فيه بشيء عن الوضع الذي وضعه له سيان ذلك في اول الكتاب وآخره

فاغاضمون الامير الخطير والقائد الكبير

وانياس البطل الوريع والخليف الباسل

واباس دب بأس فعال غير قوال

وذوبميد الفقى المقحام يهون له نزق الشباب ركوب الاموال
 ونسطور الشيخ الحكيم حنكته صروف الايام
 واوذيس الداهية الدهاء والبلية الصباء
 وفطرقل الفقى الكريم واغلل الحميم
 وفريام الملك الصبور والمرم الوقور
 وفاريس العاشق المتأنفى
 وانذروماخ الزوجة الامينة
 وايقاب الام الحنون
 وهيلانة الفتاة الغالب هواها على قواها الشاعرة بسوء المصير
 واذا نظرت بعد ذلك الى غير من تقدم ممن كثر ذكره او قلّ تهيأت
 لك النتيجة نفسها
 فاغينور في النشيد الرابع هو نفسه ذلك المحراب في النشيد الحادي والعشرين
 وانطيلوخ في النشيد الرابع هو نفسه ذلك الشاب المزوم المتسرّع في النشيد
 الثالث والعشرين
 وقل مثل ذلك في ماخاوون وطبة وهيلينوس وعرافته وفينكس وصداقته
 ومريون وامانته وهلم جرا . وقد تأتى على تلاوة اسم ذكر بطريق العرض فلا
 نرى له شأناً خاصاً ثم اذا أعيد ذكره بعد مئات او آلاف من الايات
 رأيت على صفته لم يتغير بشيء عما ذكر به للمرة الاولى وقد لا يرد ذكره سوى
 مرتين او ثلاث . مثال ذلك اذميت وافريميدون وافروطسيلات وانفياش واقطور
 واقلونيّس واكاس والقميد وامفياخس وثرسيلوخ وثواس وامثالهم كثيرون

الاعلام الجغرافية

ثم اذا تناولت البلدان والجبال والوهاد والبحار والانهار رأيت انه اتبع
 تلك الخطة فما ناقض نفسه بكلمة مما وصف به بلدة او علماً جغرافياً ودونك

بعض الامثلة :

فأرسيّة لاصق ذكرها بنهر سليس وزعيم جندها اسيس بن هرطاقس في
النشيد الثاني وفي الالف الاولى من ايات اللياذة وهي هي ونهرها وزعيمها بعد
اربعة آلاف بيت في النشيد الثاني عشر

وبهراسا هي البلدة الكثيرة الانعام وهي موصوفة بذلك في النشيد الحادي
عشر في منتصف الكتاب ويتكرر ذكرها بنفس الوصف في النشيد الثالث
والعشرين اي بعد نحو من خمسة آلاف بيت عربي او ثمانية آلاف شعر يوناني
وتيندس البلدة المقدسة الموالية لآفلون وهي كذلك في غير موضع
وان المجال ليضيق عن امثلة ما تقدم فانها تفوق الحصر وقد توخينا في
الامثلة الثلاثة السائفة الذكر بلاداً قليلة الشهرة فاذا كانت وحدة المرمى فيها
هذه فما بالك بالمدن الشهيرة كالليون

وقل مثل ذلك في البحار والانهار كالاقويانس وزنثس والاسكندر وكل
ما في اللياذة من بيس وماه

واذا اردت اجمالاً سهلاً لهذا التفصيل نغذ القسم الجغرافي في النشيد
الثاني واقطع منه اية مملكة شئت من ممالكهم واسماء زعمائها ثم تصفح المعجم
فاذا رأيت تلك الاسماء قد تكرّر ذكر شيء منها فانما يتكرر بما لا يشدّ عما مرّ
امامك هذا اذا لم ينطبق عليه كل الانطباق ولو فصلت بين الموقعين الاناشيد الطوال

ارتباط اجزائها

ثم اذا تأملت تماسك اجزاء اللياذة وارتباطها ببعضها ببعض رأيت ان ناظم
النشيد الاول انما هو ناظم النشيد الاخير فكأنما هي مرقاة يصعد بك صاحبها درجة
بعد اخرى حتى تستقرّ في آخرها وأنت متبين كل ما وراءك فاذا بدأت بخصام
اخيل واغاممنوت تطاعت الى ما وراء ذلك الخصام فيسطه لك الشاعر بسطاً
يزيد ابضاحاً كلما خطوت خطوة . فهناك تجدال وخشية قتال وحقق واعتزال



اللياذة - ارتباط اجزائها

ووساطة رجال وينتهي الامر بما ترتاح اليه نفسك شأن القصص الذي يروي لك خبراً واحداً بنفس واحد

واذا امعنت في تواد اخيل وفطرقل بدا لك من خلال الفصول الكبار صديقان حميان يتوادان فيتراقان فيغضب احدهما لغضب الآخر فيتواليان في السراء والضراء واذا مات احدهما فلا تنقضي احزان الآخر حتى انقضاء حياته وكل ذلك بمحدث طويل نطاله احاديث اطول تكاد تشط بقائل واحد عن تلك الخطة المرسومة فما الظن لو تعدد القائلون

وقس على ذلك جميع حوادث اللياذة

واذا رجعت بعد هذا الى اعظم مظنة لاعتراض المعترضين وهي الصاق النشدين الاخيرين باللياذة رأيت انهم انما اتوا باوهن الحجج كما اثبتنا مسهبين في مقدمة النشيد الثالث والعشرين (ص: ١٠٥٣) فلا نسوق البحث هنا الا في ما لم يسبق لنا ذكره في ذلك الموضع

خذ الالعاب في ذلك النشيد وانظر الى ارباب كل ضرب من غروبها ترى انها لم تلتصق باللياذة الا لكونها جزءاً طبيعياً منها . وان المبارزين فيها لم يكن يضح سواهم لوقوف كل منهم موقفه

ففرسان السباق افيل وهو الذي قيل في خيله في النشيد الثاني (ص: ٣٠٣):

أجود الخيل عندهم تلك احجا رلدى آبن آبن فيرس افميل

قد تساوت قدياً وسناً ولوناً وجرت كالطيور فوق الطلول

وذويمذوله مطهما آنياس وقال عنهما الشاعر في النشيد الخامس (ص: ٣٩٩):

وامض وانتذ مطهمي آنياس خير ما في الدنيا من الافراس

والحق نسبتهما هناك بيجاد زفس ابى الآلهة . ثم لما ابرز الشاعر ذويمذ في

حلبة السباق اعاد تلك الذكرى

ومنيلاوس وهو زوج هيلانة واخو اغامنون والمتسبب بحرب طروادة

وانطيلوخس بن نسطور الفتي الباسل صديق اخيل

ومربون الحوذى الماهر . وهم جميعاً أجدر الفرسان بخوض ذلك الميدان
وانّ ما قيل في السباق يمكن اطلاقه على النضال والطعان والحضر
والصرّاع وغيرها

فلسفتها وآدابها

واذا امعنت النظر في فلسفة الشاعر وخلائقه وآدابه رأيت انه رمى فيها كلها
الى امور خاصة برجل واحد فهو وان جارى ابناء زمانه في كثير من عاداتهم
ومعتقداتهم فقد خالفهم في امور اخرى لسلامة في ضميره ونظيره بعيد في ترفيتهم .
وهو حيثما جازاهم فلا يخوف في مجاراته وحيثما خالفهم فقد راعى ما انطبع عليه
من آداب النفس التي جعلته ارقى اهل زمانه : — فعصره عصر فسق وفجور
وقد شجّعها حتى في نفس الآلهة (ص : ١١٠٧) وزمنه زمن بطش بالاسرى
وقد طعن بقتلتهم (ص : ١٠٦٦) وحسبك في هذا الباب ان تنصفح المواضع
التي افاض بها بمدح المرأة وأقى على اطراء صفات الامهات والزوجات والبنات
والاخوات حتى السيئات في قرن كانت المرأة فيه من جملة المتاع وساعة تُتشرى وتباع
وهناك ادلة كثيرة افاض بها الشراح بالنظر الى التاريخ واللغة مما يضيق
دونها المقام

سبب الريب

ولا بد لنا في ختام هذا الفصل من كلمة بشأن منشأ الارتياب في آراء
كثيرين من الكتبة والمؤرخين
ان مظان الريب كثيرة في الكتب القديمة التي بين ايدينا ووجوه الاعتراض
دائمة في بعضها حتى بتعذر في بعض الاحاين ارجاعها الى اصل معلوم او
مؤلف معين . وعندنا من امثال ذلك كتاب الف ليلة وليلة وقصة عنزة العسبي
واشباههما ولهذا تطرفت زمرة من المشتغلين في التاريخ والآداب الى انكار كل

قديم وبث الرب حتى في وجود مسميات واشخاص تكرر ذكرها في التاريخ وثبت وجودها ثبوت الشمس في رابعة النهار . فهل نعجب بعد هذا اذا تصدت فئة منها الى انكار هوميروس وقد انطوت عليه آلاف الاعوام وهذا فوريل ^(١) الباحث في آثار القدماء ينكر على الفردوسي هوميروس الفرس نظم الشهنامة والفردوسي ابن الامس بالنسبة الى هوميروس وشهنامته قيلة الفرس في غدوهم وآصالم واذا سألت اصغر صغير فيهم فصل لك تفصيلاً كيف نظمت ولن نظمت وما كان من امر ناظمها بجهاته وبعد مماته

اللياذة ومعارف عصرها

اذا قال الشغراء ما احرى هوميروس ان يكون امير الشعراء قال العلماء وما احرانا ان نتخذ ديوانه خزنة نضد فيها معارف عصره من علمٍ وادبٍ وصناعةٍ وتاريخٍ فقد صرف الادباء نظرم عن جميع من تقدم من شعراء امته ولقبوه ابا الشعر واتخذ العلماء والمؤرخون اقواله حجة يرجعون اليها في استقصاء علوم القدماء

وليس في الامكان بسط الكلام على جميع ما افاضوا به في هذا الباب وانما نلّم به المالمًا موجزًا مع ايراد امثلة بسيرة نظنها وافية بالمرام . وتترك البحث في الشعر وادبه الى ما يلي من النصول

اللياذة والتاريخ

لا شك ان هوميروس استقى من موارد طمس الزمان ذكرها فنقل ولا نعلم عمن نقل ودون حوادث كثيرة مما اثبتتها الاثر وما لم يثبتها ولكن ثبوت البعض يرجح في الظن ثبوت الكثير مما بقي . وقد اشرنا في الشرح الى نبذ من الحوادث التاريخية التي لم يذكرها المؤرخون . فهو بهذا الاعتبار اول

(1) Fauriel, l'origine des epopées chevaleresques, 1836.

المؤرخين في قومه . وان هيرودوتس الملقب بابي التاريخ يستمد من معارفه ويستشهد بقوله كلما أغلق عليه امره واضطر الى اثبات حجة . واذا رجعت الى مؤلفات جميع المؤرخين من اليونان والرومان والافرنج رأيتها مرصعة ترصيعاً بالشواهد الموميرية مما ثبت لك علو مكانته في التاريخ

اللياذة والجغرافية

اذا قيل ان هوميروس هو اول مؤرخ قيل ايضاً ان قدمه في الجغرافيا ارسخ ومنزله ارفع فهو واضع هذا العلم وعلمه الاسنى اذ تعهد بنفسه معظم المواقع التي ذكرها ووصفها وصفاً لم يسبقه اليه المتقدمون ويكاد المتأخرون بقصرون عن الاتيان بمثله . وحسبك الرجوع الى القسم الجغرافي لتعلم انه لم يكن لجغرافي ان يلم المامه بهذا الفن حتي اليوم . وان اسطرابون ابا الجغرافيا بعده يعترف له بالفضل والسبق^(١) وجميع مباحثه مؤيدة بشواهد من الشعر الموميري حتى لقد يمكن اعتبار جغرافيته شرحاً لمتن ثلاثة ارباعه في اللياذة واكثر باقيه في الاوديسية . وقد حدا في حب الاستطلاع يوماً الى عدد الشواهد التي اخذها اسطرابون من منظومتي هوميروس فاذا بها مئتان وتسعة واربعون بيتاً من اللياذة ومئة واثنى عشر بيتاً من الاوديسية ما خلا الايات المكررة في عدة مواضع وما ادراك ما يمكن ان يكتب من الشرح على هذا المتن الطويل

اللياذة وسائر العلوم

أفردت في معجم اللياذة باباً لكل من العلوم التي طرق هوميروس ابوابها والحقته بهذا الكتاب وعيئت فيه الصفحات التي ورد فيها ذكر العلم المراد ارشاداً للمطالع

وسترى منه ان اللياذة اشبه بدائرة معارف جمعت بين سطورها جميع

علوم العصر

الطب

فاذا اخذت الطب مثلاً رايت موميروس أتم بجميع علومه من جراحة وتشريح وفسيولوجيا وبحث في النبات والعقاقير والصيدلة والعلاج ووصف الامراض والاوبئة

الفاك

واذا طلبت الفاك وعلم الهيئة ذكر لك كلاً بلغه منها علم زمانه فوصف السماء والابراج وتطرق الى التنجيم فبحث في تأثير طولع النجوم . وذكر الظواهر الجوية وفعلها في الاحياء

الحرب

واذا تطلعت الى الحرب والفنون العسكرية افاض لك بتفصيلها افاضة تدعش لها فصل لك مواقف الجيوش وحركاتها بهجومها ودفاعها وزحفها وتمبثتها . وابان لك اسباب الظفر ووجوه الاندحار . ووصف اركان الحرب والتمرين العسكري والحرس والكمين والمبارزات . وبحث في الاسرى والاسلاب والبدل العسكري والتدريس والجواسيس وديوان القضاء في المعسكر والعيون والارصاد والطلائع . وبين احوال الحصار واقامة الحصون وحفر الخنادق . ولم يغفل عن ذكر الخيم والمضارب وارزاق الجند واطاعه . ولم يغادر شاردة الا قيدها حتى الراية والنيران والرقص الحربي والالعب العسكرية

ثم فصل لك انواع القتال واصناف الاسلحة والدروع فوصف الشككة والحوذ والمغافر والتروس والرماح والسيوف حتى القووس والمخازف والجمارة

السياسة والحكومة

واذا تطرقت الى السياسة بحث لك في الحكومة والملوك وسلطتهم وما يعرض

لهم وعليهم . وموقفهم تجاه الرعية وبالعكس . وحذر من الفوضى . وذكر خدع السياسيين وجبلهم . وأشار الى الشرائع والمجالس والخراج والاقطاعات . واحاط باحوال الوفود والسفراء والتحالف والتعاهد والخطابة في الرعية

الدين

واذا رغبت في الوقوف على دين القوم اسهب لك بذكر معبوداتهم ونسبتهم الى العباد ونسبة الخلق اليهم . ووصفهم فرداً فرداً بين ذكر . واثني واوضح صفة كل منهم بنفسه وبالنسبة الى زملائه وهياً لك مزاياهم كباراً وصغاراً . وقسمهم الى طبقات ودرجات مع بيان منزلة كل طبقة على حدة . واثني على ذكر العبادات والصلوات والفضايا والادعية . ووصف الروح ومصيرها وبحث في عالم الارواح وسائر ما يتطلع اليه الراغب في الوقوف على احوال العبادة في ذلك الزمان

الفنون وسائر الاعمال

وقل مثل ذلك في الفنون الجميلة من نقش وغناء وموسيقى وتصوير وكل منقول ومعقول من معارف الانسان واعماله كالحرث والزراعة والتجارة والمعاملات حتى العرافة والعيافة والكهانة وتفسير الاحلام

اللياذة والصنائع

وكان هوميروس عني عناية خاصة بصناعات زمانه فاسهب بوصف الكثير منها اسهاباً تخال اذا قرأته انه كان ينتمي الى كل فريق من الصنائع فيينا تراه وشأراً سفن اذا به صانع مركبات وينا هو تجار حاذق اذا به بناء ماهر ومهندس . ثم تخاله صيقلأ وحدادأ وحفارأ ونقاشأ وخرطاطأ وصباغأ وصائغأ . وليس هو باعمال النساء اقل الماما منها باشغال الرجال وحسبك من هذا تطريزه وغزله ونسجه وحيا كنه



سبب حياتها وخلودها

لم يكن هوميروس اول من نظم الملاحم او منظومات الشعر القصصي ولا مبتدعاً لطرق انشادها واساليب ترصيعها بشواهد العلم والتاريخ . فتلك سليقة الفتها امته واكثر الامم في غوامض ايام البداوة والجاهلية . وقد حسبوا لمن تقدم من شعراء اليونان سبعة من منظومة كملحمتيه منهما الياذتان الكبرى والصغرى واوديسية واحدة وقد بادت جميع تلك المنظومات ولم يبق على مكافحة الزمان سوى تبنك المنظومتين فقد بقيتا كلولتين برأفتين في قلادة الادب وكسفا باشعتهما سائر ما بقي من نظائرها وخلدنا لليونان مجدداً لا يحويه لقادم المصور وكرور الدهور

ولم يشع شيوعهما بين البشر شيء من المنظوم والمنثور الا كتب الدين ولا تزالان كما كانتا منذ ثلاثة آلاف عام في المقام الاول بين نتاج القرائح وليس ما تقدم من ابداعهما خلاصة العلم والسياسة وتوابعهما من اسباب ذلك البقاء في شيء فان طلاب العلم ولا سيما في المصور الغابرة فئة ضعيفة تطلب العلم من ابواب اخرى لتلقنها من كتب وضعت لها . والعلم كل يوم في شأن يتقلب ويتغير وينحط ويرتقي فما صالح منه في الامس لا يصلح في الغد وما كان منه في اليوم صواباً ساطعاً اصبح بعده خطأ فادحاً . فلا بد من ان تكون ثمة اسباب ثابتة مغرسها في النفس ومنبتها في القلب لا تتغير بتغير زمان ولا تتأثر بترق وحضارة

فان هوميروس انما نقر على اوتار الافئدة فأثارها . ونفخ في بوق الارواح فاطارها . ومزج الحقيقة بالخيال مزجاً يخيل لك انها تألفا فبحالها . وسبر اعماق النفس في سذاجتها . وتحرقى الفطرة في بساطتها . وهاج العواطف والشعائر وتكلم بجلاء لا تشوبه مسحة التكلف فأسهب موضع الاسهاب واوجز موضع الابهاز ومثل تمثيلاً ناطقاً وفصل تفصيلاً صادقاً عن عقيدة واخلاص

واذا اضفنا الى ذلك بلاغة الشعر وتناسق النظم ودقة السبك ورقة المعنى والسهولة والانسجام ذهبت عنك غرابة ذلك الخلود
قال غيزو ^(١) « وان ما يرى في شعر هوميروس من مزج الخير بالشر والضعف بالقوة . واتحاد الافكار والمشاعر بمظاهر مختلفة . وتنويع الافكار والاقوال . وبسط احوال الطبيعة والافئدة على انماط متباينة كل ذلك يث الاميال الشعرية بما لا يماثله مثل لان فيه اس كل اساس وحقيقة الانسان والعالم » - وعندي ان من اقوى عوامل البقاء في اللياذة والاذبسية مع استجماع ما تقدم من الاسباب ان بذورها وفدت من كنف صالحة على ارض صالحة اذ نظمنا بلغه سهلة في عصرها فلم يكن يفتق فهم شيء من معانيهما على اقل الناس علماً فشغف بهما القوم وتناولوها وتناقلوها وحرصوا على ادخالها لانهما مستودع الجمال والمرة حريص على استبقاء كل جميل

انتشارها ونقلها من اليونانية الى سائر اللغات

اللاتينية

كان انتشار اللياذة بين اليونان كانتشار نور الشمس عند بزوغها فساكن يبرق منها بارق من ثم الشاعر حتى يتهاافت عليه كل رفيع ووضع . ثم ما لبث ان تطرق هذا التهاافت الى الرومان فنقلوها الى لغتهم وترنموا بانشادها وشد شعراؤهم على النقاط دررها . وتحذت معانيها حتى اقاموا على تلك المعاني دعائم منظوماتهم الكبرى وفي مقدمتهم قرجيلوس كبير شعراء اللاتين

الهندية والفارسية

وقد روى اليانوس المؤرخ ^(٢) ان الهنود نقلوها الى لغتهم وان ملوك الفرس كانوا يتغنون بها بالفارسية . ولعل الفردوسي استمد منها كثيراً من معاني الشهامة واتخذ اللياذة مثلاً لمنظومته الغراء

(١) Guizot, Cours d'Histoire moderne, 7me Vol. I p. 285.

(٢) Aelian, l. 12 Cap. 48.

السريانية

ولم تكن سائر الامم اقل شغفاً بها فعلق بها السريان كغيرهم ونقلها ثاوفيلس
الرهاوي الى لغته شعراً (انظر ص : ٢٦٥)

لغات الافرنج

ولا تسل عما كان من علق الافرنج بها فقد نقلت مراراً شعراً ونثراً الى
كل لغة من لغاتهم حتى صارت اشهر كتاب عندهم جميعاً وطبعت كل ترجمة
منها مراراً عديدة

واشهرها ترجمة جيزارتي^(١) ومنتي^(٢) الى الايطالية . ومُنْبِل^(٣) الى
الفرنسوية . وفوس^(٤) الى الالمانية وپوپ وچاپمن وكوير^(٥) الى الانكليزية .
واصدق هؤلاء النقلة منتي وهو وپوپ ابانهم شعراً

اغفال العرب نقلها الى لغتهم

كان العرب من احرص الملل على علوم الادب واحفظهم للشعر واشغفهم
بالنظم ومع هذا فلقد يأخذك العجب لبقاء اللياذة محبوبة عندهم وهي منتشرة
هذا الانتشار بين قبائل الارض ومنظومة بلغة سامية كلفتهم يتناشدها
الادباء المقيمون بين ظهرانهم في مقر الخلافة العباسية

وان لذلك اسباباً اذا تبيناها زال العجب لاغفالها في ماسلف مع وضوح
الحاجة الماسة الى تعريبها في هذا العصر . وان مرجع تلك الاسباب الى ثلاثة :
الدين واغلاق فهم اليونانية على العرب وعجز النقلة عن نظم الشعر العربي

(١) Cesarotti.

(٢) Monti.

(٣) Monbel.

(٤) Voss.

(٥) Pope, Chapman, William Owerper.

الأيالة والنصرانية

اشرنا فيما مرّ الى اقبال أم اوروبا على الشعر الموميري وقتلنا (ص : ٢٤)
لم يثقل اقبالن فتور الا عقود اعوام معدودات في بدء النصرانية . فاذا
خذل المسيحيون هوميروس وهو معروف عندهم وبذوا شعره وهو متلو في مجالسهم
فما احرى المسلمين في اوائل الاسلام ان يطرحوه ولا اثر له في اذهانهم ويعرضوا
عن اقواله وهم لا يعرفون منها شيئا

كان هوميروس في ذروة مجده في الممالك الرومانية عند انتشار الدين
المسيحي فكان لا بد من نقويض اركان الوثنية وهي ممثلة اصدق تمثيل في
الشعر الموميري فبات اغفال ذلك الشعر ضربة لازب لحداثة عهد المسيحيين
بدينهم ولزوم اخذهم به موردا صافيا لا تشوبه اساطير السلف من عبدة الاوثان .
ولكن بعض الدعاة غالوا في اتخاذ الطرق المؤدية الى تلك الغاية فاتهموا
هوميروس بابتداع البدع وتحريف آية التوراة ليصوغ منها ما وافق مذاهب
قومه من القصص المستنبطة منها كمصيان الشيطان وطردم من الجنة وتلبس
فرسبس بصورة موسى في أول امره . ومماثلة بليروفون ليوسف الصديق . وامثال
ذلك مما اشرنا اليه في الشرح . ولهذا كانوا ينادون بتحريمها خشية من ان تفسد
عقيدة الناشئة المنتصرة . وكان من لوازم قولهم ان هوميروس لم يكن الناقل
لخرافات الاولين بل الواضع لها المنادي بها

تلك كانت الحال بين عامة المسيحيين . واما علماءهم كالقديس ابرونيمس (١)
فما زالوا مكبّين على تلاوة اشعار هوميروس معجّبين ببلاغتها وسمو معانيها
وما رسخت قدم النصرانية في البلاد حتى افرجوا عن هوميروس والأيالة
وسائر منظوماته فانطلقت تلك الخرائد من عقلاها وبرزت بجلل قشبية فعادت
الى اختلاب الالباب في مجالس الآداب

(١) Saint Augustin, Confess. l. I. cap. 140.

اللياذة والاسلام

وانّ ما قيل عن النصرانية في نشوءها يصدق على الاسلام في قرونه الاولى
اذ لا ريب ان ائمة الامة لو فرضنا وقوفهم ذلك الحين على تخويات اللياذة
لما ارتاحوا الى بثها بين العامة لئلا تكون من مفسدات الايمان
وزد على ذلك ان العرب لم يكادوا يخرجون من مهابة البداءة حتى ملكوا
الامصار وانتشروا في سائر الاقطار واسسوا الممالك الكبار . وما استقر الملك
للامويين في الشام حتى بدت لهم الحاجة الى استخراج كتب العلم . وما نوطدت
دعائم الدولة العباسية في العراق حتى نظم الخلفاء مجالس النقلة لتعريب علوم
المتقدمين من الفرس والهنود واليونان . فلاح لم انهم اخرج الى العلوم منها الى
الشعر والادب وكانت حاجتهم الكبرى الى علم الطب ثم الى علم الكلام للمناضلة
عن الدين فعمدوا الى تعريب طب ابقراط وجالينوس وفلسفة ارسطوطاليس
ونظائرهما واغفلوا اللياذة وجميع ما يجري نجرها من كتب الشعر والادب
ثم انه ليس في لغات الارض لغة يربو شعرها على الشعر العربي ويزيد
شعراؤها عدداً على شعراء العرب وهم جميعاً مخلصو الاعتقاد في شعرم
ورعين في تعبده فلا يخالون في الامكان وجود شعري اعجمي يجاري قصائدهم
بلاغةً وانسجاماً ودقةً واحكاماً

فهذا ايضا كان من دواعي تقاعدهم عن الاقبال على شعر الاعاجم اكتفاء بما
لديهم من درر ذلك البحر الزاخر

على انني اعتقد انه لو طال زمن عظمة الدولة العباسية او لو تأخر زمن
تبوء المأمون اربكة اخلافة جيلين لكانت بعض مقاطيع اللياذة تلى الآن في
اندية الادب . ولا يطمئن بهذا القول قيام دولة الاندلس بعد حين واشتغالها
في الادب فان الامويين الاندلسيين تفتنوا بأداب العرب ورقوا درجات في
مراقبة الشعر ولكنهم لم يضاهاوا العباسيين في بغداد بشيء من اقبالهم على النقاط فلسفة

الاعاجم وتعريب كتبهم
وبعد هاتين الدولتين لم تقم للعرب دولة حريصة نظيرها على اختزان العلوم
من مخاضها وادخار الاداب من مناشئها . فان كلاً من دولة الفاطميين بمصر
ودول المغرب كانت منصرفة الى مشاغل اخرى فضلاً عن قلة النقلة في ازمائها
من المتضلعين في لغات الاعاجم فوق لغتهم

نقلة العرب

وهناك ايضاً حاجزان طبيعيان وقفنا عقبةً مماء في وجه تعريب اللياذة
شعراً في القرون الاولى ولعلمهما لا يقلان شأنًا عن حواجز الدين او يزيدان وهما
اولاً ان معربي الخلفاء كابن الخصي وابن حنين وآل بختيشوع لم يكونوا
عرباً وان تفقهوا بالعربية على اناسذتها فلم يكن يسهل عليهم نظم الشعر العربي
وهم انما كانوا ينظر العرب علماء اكثر منهم ادياء وان كانوا حريصين على اداب
لغاتهم حتى حلوا جيد السريانية بقلادة اللياذة منظومة شعراً كانوا يترغنون به
في مجالسهم . ولا يشذ عن هذه القاعدة الا قليلون معظمهم من الفرس الذين
تفرغوا لاداب العرب فبرزوا فيها كابن المقفع وهؤلاء ايضاً لم يكونوا في
عداد الشعراء

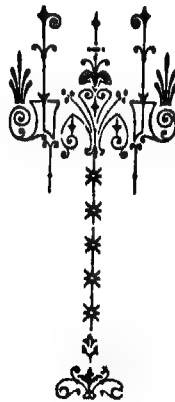
وثانياً ان شعراء العرب انفسهم لم يكونوا يحسنون فهم اليونانية فلم يكن فيهم
من يصلح لتلك المهمة

وان قيل ان عجز النقلة عن الاجادة في نظم الشعر العربي لم يكن مانعاً من
تعريب اللياذة ثراً كما عُرِبَتْ الشهامة الفردوسي قلنا ان الارتباط بين الفرس
والعرب كان اكثر منه بين العرب واليونان وشتان بين ناظم اللياذة وناظم
الشهامة . فذلك من عبدة الاصنام وهذا من ادياء الاسلام . ومع ذلك فلم يبق بين
العرب من تجرد لتعريب الشهامة الا بقيام ملك يحسن فهم العربية والفارسية
طرب بتلاوة الاصل فأراد ان يطرب امته بتلاوة التعريب فوسّع بالرزق على

رجل نوسم فيه الكفاءة وهيئات ان يتيسر ذلك في غير تلك الحال (١)
ثم انه لا يخفى ان الشعر اذا ترجم نثرًا ذهب رونقه وبُهِت رواؤه . والظاهر
ان هذا الحكم انطبق على تعريب الشهنامة فأهملها الناس والا فما ذهبت ضياعاً
وبقيت اثرًا بعد عين نقرأ عنها في كتب التاريخ وليس في الادباء من روى لنا
منها حديثاً مذكوراً

وخلاصة القول انه مهما يكن من الحوائل التي كانت تصد الادباء عن نقل
اللياذة وتحول دون ابرازها للعامة فما بقي لتلك الحوائل اثرٌ في زمننا بل صار من لوازم
العصر لباسها حلّة عريضة تجاري بها لغتنا لغات ابناء الحضارة وخصوصاً
ان ما فيها من اساطير دين الوثنية قد باد اثره فصار من المحنوم ان يبقى خبره
عبرة للمعتبر

(١) نقل شهنامة الفردوسي الى العربية النجيب بن علي البغدادي الاصبهاني نثرًا
للكل المعظم عيسى بن العادل ابي بكر الابوي واتم ترجمتها سنة ٦٧٩ (كشف الظنون)



التعريب

حكاية العرب في تعريب الياذة

سألني الملم الفير من اصدقائي الادباء كيف عربت الياذة وما حداني الى تعريبها فكتبت الفصل الآتي ولعله لا يخلو من فائدة لمن قضى عليه ان يسير في مثل هذه العقبة

كلفت منذ الصغر بمطالعة الشعر القصصي ولا سيما ما تعلق منه بالخاليات وعبادات الاندمين . ولما كانت لغتنا تكاد تكون خلواً من ذلك الشعر وفروض الدروس تستنزف الوقت ولا تبقي معها بقية لقراءة ما شذ من مثل ذلك عن معيناتها فحول دون اسقاء المياه من مواردها كنت النقط ما سقط عرماً من افواه الاساتذة او ورد شاهداً في كتب التدريس . فاجتمعت لديّ نبذة ضئيلة من قصائد لغتها ولم أتم العقد الثاني من اعوام الحياة . ولا يطالبني المطالع اللبيب باثارة من تلك القصائد فحسبي هزه نفسي بي دون هزه اذ لا اتمالك من الضحك كلما خطر على البال شيء مما علق في الذاكرة . فهناك يوم مغبوط اخلطت فيه آلهة الكلدان بآلهة اليونان والرومان وأنزلت معبودات مصر موضع معبودات الهند والصين واشتبّه الذكور بالاناث والتبست الاعلام الافرنجية بالاسماء اليونانية على نحو ما دون الكتبة في كثير من اخبارهم عن ام القرون الخالية . وهذا ولا بدع بشأن كل كاتب تطاول الى فن دخله من غير ابوابه فلما حكمت نفسي واصبحت متصرفاً مطلقاً في استعمال اوقات العطلة ادركت انني لم اعرف شيئاً مع سابق الظن بسعة الاطلاع فانتهيت الى حيث كان يجب ان ابدي . فعمدت الى تلك المنظومات ولم اكن بعد قرأت شيئاً منها قراءة صحيحة ما خلا « الفردوس الغابر » لما نزلت وقرأت جميع ما وصلت اليه كل كتاب بلغته اذا كنت من قرائها والا فترجمته الى لغة اعرفها

وكنيت كلما قرأت منظومة من المنظومات القديمة والحديثة زاد إعجابي بالاباظة لانها وان كانت اقدم عهداً فهي لا تزال احداث رونقاً ولبهرهناً رواه واكثرهم جلاء واوسمهم مجالاً وابلغهم جميعاً . نسج صنوة الشعراء على منوالها فلم يلفروا شأواً واستنقوا من بحرهما فللاً وبجارهم ولم ينقصوها شيئاً

فقلت ما اخرى لفتنا العربية ان تحوز مثلاً من هذه الدرة البقيمة فهي اولى بها ممن تناولها من ملل الحضارة . فليس في شعر الافرنج ولغاتهم ما يوفر لها اسباب البروز بحجة اجل مما تهبثه معدّات لفتنا . فالشعر اليوناني بلغة قريية الى الفطرة كلفتنا والبحث في جاهلية قوم كجاهليتنا . وليس في شعراء مائة من الملل من انطبقت معانيهم على معاني الاباظة بالحكمة والوصف الشعري كالمتقدمين من شعرائنا

فناجتني النفس بتعريبها مع علمي بخطورة الموقف ووعورة المسالك وطول الشقة وقلت تلك ملهاة تقضى بها اوقات الفراغ . فاذا فجع الله وفسح في الاجل زففتها الى القراء . والا فلا اقل من ان اروض نفسي بها وهي خير ما تروض به النفوس . وعزمت منذ نظمت اول بيت منها على ان لا اغادرها حتى آتي على آخرها

تعريب الأصل

فخططت لنفسي خطة وقلت لانظمن منها امثلة من حيث اتفق لي واعرضها على الادباء فانتمس ما يكون من وقعها في النفوس واتبين مواطن الخلل فغير لي ان اتبينها قبل التوغل في العمل . فتوكلت على الله وعمدت الى ترجمة فرنسية منها كانت بين يدي والقيتها الى جانب ترجمة انكليزية واخرى ايطالية وفتحت الكتاب الفرنسي من تلمي الاول فاذا باخيل واغامنون يتخاصمان واخيل ينهال على اغامنون بالسباب والشتيمة فنظمت الايات التي مطالها :

يا مليكاً بنشوة الراح مُثَقِّلٌ ٠٠٠ (ص ٢٢٢) فعربتُها على الطريقة المألوفة في النظم وكانت اول ما نظمت من الاباظة . وذلك في اخريات سنة ١٨٨٧ بمصر القاهرة . ثم فتحت الكتاب من ثلثة الثاني فاذا بي في معترك عيف في اول النشيد الخامس عشر فنظمت القصيدة التي مطالها :

تجاوزت الطرود حد الخنادق يصلهم فيها حسام الاغارق
فكانت قصيدة طويلة توثقت بها من اتساع اللغة للمعاني والقوافي ونهجت
فيها نهجاً جديداً مما كنت اعددته في ذهني وستراه مفصلاً في باب « النظم
في التعريب »

ثم فحمت الكتاب من ثلثه الاخير فاذا بي في الصفحة الثالثة من النشيد
الثالث والعشرين فرجعت الى اوله ونظمت منه نحو مئة بيت رجلاً مصرعاً
ومقنني على أسلوب استحسنه وحببته وافية بما لي لتعريب كل النشيد على سياقه
فعملت جميع ما جمعت لدي من القصائد الثلاث بمسوداتها وجعلت اعرضها
على من زارني وزوته من الادباء والشعراء ممن اُلف الشعر المصري ومن نشأ
على انتهاز الشعر القديم فاستحسنوا وجاملوا فردت بما ملتهم نشاطاً . وانست من
بعضهم رية وخشية علي من الملل والقنوط لوفرة ما يتبع هذا العمل الشاق من
العناء الفادح وكثرة ما يستلزم من النفقات لو مثل بالطبع وليس قرأه العربية
وطلاب امثال هذا الكتاب ممن ينشط على المجازفة بمثل تلك النفقات وشق
النفس وضياح الاوقات : — على ان ذلك كان اقل ما تجزع له نفسي اذ
اقدت وليس بي جشع للربح من وراء هذا العمل بل انا راض بالخسارة لو
حصلت ليس ذلك ترفعاً عن الكسب ولكن لغرام في النفس تستسهل الصعب في سبيله .
فقلت لقد حان اذاً اوان الشروع فرجعت الى اول نشيد واخذت في النقل
تبعاً حتى اكملته ونظمت نصف النشيد الثاني . وكنت اثناء النظم اقبال الترجمات
بعضاً ببعض فارى فرقاً يصعب عليّ معه تبين الرجحان لنسخة دون اخرى .
فاوقفت النظم وقلت لا بد اذاً من الرجوع الى الاصل اليوناني اذ لا يصلح
النقل من غير اصله

وكانت معرفتي باليونانية قاصرة اذ ذاك لا تكاد تتجاوز القراءة البسيطة
وبعض اصول ومفردات لاثني غليلاً . فاخذت ابحث عن استاذ يروي غلتي
فأرشدت الى عالم من الاءاء اليسوعيين وأبلغت انه متضلع باليونانية

تضامه بالفرنسية . وكنت اعلم ان الآباء اليسوعيين لا يسهمون في التفرغ لالقاء دروس خاصة خارج مدارسهم فكان لا بد اذاً من رضا الاستاذ واذن الرئيس فوفقني الله الى الحصول على الامرين فشكرت لهما هذه المنة وجعل استاذي بلقني اصول اللغة ويفسر لي فصولاً من الالياذة وانا مكب على الدرس متفرغ للاستفادة . وبعد ان قضيت معه اشهرًا وعلمت منه انه يسعى ان يستم الدرس وحدي وان اتناول تعريب الالياذة من اصلها مع الاستماعة بكتب اللغة وتفسيرها فارفته شاكرًا ولبثت مدة اجهد النفس بالمطالعة ثم استأنفت التعريب

وكان بنفسه شيء مما عزبته من النشيد الاول والثاني فرجعت الى امعان النظر فيه ومقابلته على اصله فرائت خلاص الجاني الى التقيج والتصحيح فكنت لا احجم عن تغيير البيت والبيتين وربما اعدت نظم مقاطيع برمتها . ولم يقع لي شيء من هذه الاعادة في سائر الاناشيد الا ان يكون في استبدال فقرة او شطر بغيرها او تغيير قافية بأخرى مما يقع لكل ناظم . وفي ما سوى ذلك كنت اجهد النفس باحكام البيت على قدر الاستطاعة قبل كتابته

ولم اكد استقر في مصر حتى حدا بي حادي الاسفار التي الفتها منذ الصبا فبرحت القاهرة سنة ١٨٨٨ وفي النفس شغف بها وحنين اليها . فانتحي بي التطواف الى العراق بعد ان طرقت الهند واطراف العجم فألفت فيها زهاء سنتين اضطرت الى طي الالياذة في معظمها ولم يتسن لي العود اليها الا بضعة اسابيع . على اني لم اجتمع بأدب منها الا عرضت عليه شيئاً من منظومها وادبها العراق مولعون بسماع الشعر

ثم شخصت الى الاستانة واتخذتها مقاماً طيباً لبثت فيه سبع سنوات كنت كثير التنقل في اثنائها بين الشرق والغرب فيوم بسوريا وسنة باوروبا وامركا والمراجع الى الاستانة . وكانت الالياذة رفيقي حيثما توجهت اخلس الاوقات خلصة فلا تفرغ اليد من عمل الا عدت اليها . ولطالما رت الاسابيع والاشهر وهي طي الحجاب ثم هبت بها من رقدتها وعادت العمل وكثيراً ما حصل

ذلك في رؤوس الجبال وعلى متون البواخر وقطارات سكك الحديد فهي بهذا المعنى وليدة اربع اقطار العالم . وكنت حيث حلت اتوخى الاستفادة من اهل ذلك المحل ولا سيما في الاستانة حيث هيا لي حسن التوفيق ان اتعلت ببعض ادباء اليونان عشاق هوميروس والياذنه كاستافريدس ترجمان السفارة الانكليزية وكاروليدس احد اساتذة كلية خلقي اليونانية بالاستانة وبعضهم من قراء العربية فكنت اشاورهم في بعض ما التبس وأغلق وهم لا يفتنون وأقرأ لهم اجزاء من المنظوم العربي فدمروهم هزة الطرب مستبشرين بتعريب اعظم منظومة لاعظم شعرائهم وهكذا ظللت بين وقوف ومسير الى اول صيف سنة ١٨٩٥ فخرجت بعائلتي الى مصيف فنار باغچه في ضواحي الاستانة وظللت فيها اربعة اشهر فرغمت في نهايتها من عناء التعريب

كتابة الشرح

علي اني منذ شروعي في النظم كنت اطمح الى ما وراء ذلك اذ لو عرضت الالبائة على قراء العربية عارية من الشروح لما خالوها الا هيكلًا شعريًا لا تربو فائدته علي شيء مما بين ايديهم من الدواوين وما اكثرها في لغتنا فرأيت ان اعلق عليها شرحًا انتهج فيه اسلوبًا جديدًا لم ينتجه احد من المشراح بنية ان يأنس القارئ العربي بالرجوع في نظره الى اخلاق امته في جاهليتها وبعض حضارتها والمشهور من اساطيرها وشبائنها والمأثور من آدابها وعاداتها ومناهج شعرائها وادبائها ومواقف ملوكها وامرائها وساستها وزعمائها والاعجاب باتساع لغته في الوضع لكل معنى من المعاني النظرية مع عجزها في الحال عن تأدية بعض الاوضاع العصرية وجميع ما يتناول وصف حالة العرب ولغتهم وحالتهم الاجتماعية . كل ذلك بالمقارنة والمقابلة مع ما كان من نظيره في الامم الغابرة ولا سيما في ام اليونان . ويرتاح المطالع الافرنجي من قراء لغتنا الى الولوج في باب لا اظن احداً ولجه من قبل فيبحث وينقب ويسترشد فيرشد على ما جرى عليه

في سائر الشؤون ونحن عن معظم ذلك غافلون
ولهذا لم يكن لي بدء من مطالعة الاسفار الطوال والمجلدات الضخمة من كتب
العرب والاعاجم في الادب والشعر والتاريخ . واذا القيت نظرك على باب الشواهد
في المعجم في ذيل الكتاب ورأيت انني اضطررت الى الاستشهاد بمثنى شاعر عربي
بين جاهلي وتغضرم ومولّد فضلاً عما نقلته من شعر الاعاجم عذرتني على ما اضعت
من الوقت في شرح الكتاب اذ ربما قرأت ديوان الشاعر كله طمعاً بيت واحد: —
ولو جمعت الزمن الذي صرفته في النظم لما زاد عن نصف مثله مما صرفته في
تدوين الشرح

وفي اوليات سنة ١٨٩٦ دعاني داعٍ حثيث الى القاهرة والنفس تشنقها
فانهزمتها فرصةً وانتقلت بعائلتي اليها ولكن اموراً هامةً حالت دون تمثيل الكتاب
بالطبع اخصها اشتغالي بعمل شاقٍ آخر هو « دائرة المعارف » . ولكنني كنت
اخلس اوبقاتٍ يسيرة ارتب الشرح في اثائها حتى انتهيت منه عام ١٩٠٢
فباشرت الطبع

ولست بمعتذرٍ لابناء وطني عن انقضاء كل هذا الزمن قبل نجاح العمل الاخير
فقد ألفنا التآني والمطل وان الواحد منا ليسرع في طبع مثني صفحة فتمر الاغوام
ولا يمتها . على ان ابن الغرب تعتريه الدهشة لمثل هذا التراخي وهو في بلاده
لا يكاد يسمع بتأليف كتاب حتى يراه مطبوعاً نداوله الايدي . فمثل هذا
اللائم اقول ان الحالة عندنا على خلاف ما تعهد فليس في بلادنا شركات تأخذ
على نفسها طبع الكتب على نفقتها فتمد المال والرجال . بل لابد عندنا وان
توفرت النفقات ان يتولى المؤلف في مثل هذه الاحوال طبع كتابه بنفسه . وان
استعان بصديق او غيره على مراجعة مسودة فلا ينيه ذلك عن ان يكون هو
المصحح المنقح . واذا زدت على هذا ان دواعي صحة الجسم تلبيني كل سنة الى
ايقاف العمل بضعة اشهر اذ اضطر ان ابرح مصر الى لبنان او غيرها من بلاد
الله اتضح اني اسرعت في طبع الاياداة مع ابطائي في إعدادها

المحج والمقدمة

وفي منصرم ربيع السنة الماضية (١٩٠٣) كان النزاع من طبع اليازة وشرحها فحملت الكتاب معي الى لبنان حيث قضيت الصيف وانتهرت فرصة النزاع والراحة لكتابة المحج . وحالما وصلت القاهرة في آخر الصيف اخذت في انشاء هذا الفصل وسائر فصول المقدمة :— وهكذا فقد كان النزاع من هذا الكتاب حيث كان الشروع فيه اي في القاهرة مصر . وارانني كما اسلفت لك لم اذخر وسعاً في تعبير تعريبيه وتثنيته ولم آل جهداً في تطبيق شرحه وتنسيقه فان احسنت وفيه منتهى جهدي فذلك من حسنات الاجتهاد والاغسي ان افحه باباً يليه من وفقه الله الى سبيل السداد

اصول التعريب

لقد جرى الكثيرون من نقلة لغات الافرنج الى العربية على اصول ابتدعوها لانفسهم فشطوا باكثرها عن منهج الصواب . فاجروا قلمهم بل هو جرى بهم مطلق العنان يحبر ما يريد دون ما اراد الواضع . فمن متصرف بالمعنى يزيد وينقص على هواه فيفسد النقل ويضيع الاصل . ومن متسرع يضر بدقائق من وقته للتثبت من مراد المؤلف فيلتبس عليه فهم العبارة فينقلها على ما تصورت له لاول وهلة فتعكس عليه المعاني على كره منه . ومن ما سغ يلبس الترجمة ثوباً يرتضيه لنفسه فيقلب بالمعاني على ما يطابق بغيته ويوافق خطته حتى لا يبق الاصل اثرًا . ومن عاجز يجهد النفس ما استطاع وهو وان اجهداها ما شاء غير كفوء لغرض هذا الباب

ثم يقوم هؤلاء الكتاب ويسمون ما كتبوا تعريباً واولى بهم ان يسموه تضييماً او اخضراراً او معارضةً او مستقاً

ولكنهم جميعاً اولى بالعدر والعفو من فئة اخرى يأتي الواحد منها على الكتاب فينقله كله او بعضه ثم يعرضه على الناس تأليفاً من نتاج قريحته . وهؤلاء هم

السَّرْقَةُ الدِّجَالُون

على ان لدينا والحمد لله رهطاً من ذوي الذمة والعلم يتوخون الصدق ويحرمون
الضبط والاحكام ويحيدون الرسم فيأتي مثلاً صادقاً . فاذا نقلوا قالوا نقلنا واذا
تصرفوا قالوا لغرض تصرفنا وان ضمنوا قالوا لامرئ ضمننا وان عارضوا قالوا لسبب
عارضنا فهو لاء اذا صحت كفاءتهم هم الذين يجب ان يصدق خبرهم ويقتنى اثرهم

معربو العرب

واذا رجعنا الى النقلة الاوائل رأينا ان زمرة كبيرة منهم كانوا من هذا
الفريق الاخير وهم على تفاوت اجادتهم في تأدية المراد من قصد الفائدة الحقة
وتوخى الصدق والدقة

وقد سلكوا في التعريب مسالكين نقلهما البهاء العاملي في الكشكول عن الصلاح
الصفدي قال :

« وللترجمة في النقل طريقان احدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة
الحصبي وغيرها وهو ان ينظر الى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل
عليه من المعنى فيأتي الناقل بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في
الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينتقل الى الاخرى كذلك حتى يأتي على جملة
ما يريد تعريبه . وهذه الطريقة رديئة لوجهين احدهما انه لا يوجد في الكلمات
العربية كلمات تقابل جميع كلمات اليونانية ولهذا وقع في خلال التعريب
كثير من الالفاظ اليونانية على حالها . الثاني ان خواص التركيب والنسب الاسنادية
لا تطابق نظيرها من لغة اخرى دائماً . وايضاً يقع الخلل من جهة استعمال
المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات . الطريق الثاني في التعريب طريق حنين
ابن اسحق والجوهري وغيرها وهو ان يأتي الجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر
عنها من اللغة الاخرى بجملة تطابقها سواء ساوت الالفاظ ام خالفها . وهذا
الطريق اجود ولهذا لم تحتاج كتب حنين بن اسحق الى تهذيب الا في العلوم

الرياضية لانه لم يكن قيمًا بها بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعي والالهي فان الذي عربه منها لم يخرج الى اصلاح »

وان هذين الطريقين اللذين اشار اليهما الصلاح الصندي منذ زهاء ستة قرون هما المذهبان المعول عليهما في النقل حتى يومنا وليس وراءهما مذهب ثالث في التعريب الصحيح . اما الطريقة الاولى فهي كما قال رديئة اذا اريد بها استجماع محصل المعاني وهي ايضا انها تذهب بطلاوة التركيب فلا تبقي لها اثرًا ولا تصالح للكتب التي لتداولها الايدي من الخاصة والعامة ولا ترتاح اليها نفس مطالع . ولما تجد قارئًا يقوى على استتمام صفحة منها . ولكنها مع هذا مفيدة لطالب اللفظ دون المعنى ولهذا جرى عليها بعض كتاب الافرنج في بعض التأليف المراد بها تعليم اللغات وانتعجوها في نقل كثير من كتب الادب والشعر كنظومات هوميروس وفرجيليوس اذا اريد بها افادة طلاب اليونانية واللاتينية دون طلاب الالياذة والانياذة . ويشترط لصحة فائدتها امران اولهما ان يكتب الاصل بلغته ومردقًا في اللغة المنقول اليها . — والثاني ان يكون بازائها ترجمة اخرى على الطريقة الثانية التي هي طريقة حنين لاستجلاء المعنى والّا اخلطت المعاني على المطالع وغاب عنه فهم قوة العبارة لان الجمل على الطريقة الاولى تأتي نغلة التركيب مقلوبة الوضع فما يجب تقديمه في لغة يجب تأخيرها في اخرى وما يجب اثباته في الاصل يجب تقديمه في النقل ولم جراً . فلا طلاوة ولا احكام ولا اعراب ولا انسجام

اما الطريقة الثانية فهي التي عول عليها الجمهور لحصول الفائدة فيها من الوجه المطلوب وهو نقل المعاني ورسمها رسماً صحيحاً ينطبق على لغة النقل ومشرّب فرائدها . فاذا قرأ المطالع فيها كتاباً معرباً فلما هو يقرأه عريباً ولا يقرأه أعجمياً كما يحصل في الطريقة الاولى ولهذا يصح ان يقال ان طريقتنا انما هي طريقة حنين بن اسحق والجوهري

مسلك المعرب في تعريب الالفاظ

علمت مما تقدم ان المعرب تحرى الصدق في النقل مع مراعاة قوام اللغة وعسى ان يكون ممن كُتِبَ لهم التوفيق . واقول زيادةً للايضاح اني وطنت النفس علي ان لا ازيد شيئاً علي المعنى ولا انقص منه ولا اقدم ولا اؤخر الا في ما اقتضاه تركيب اللغة . فكنت اعمد الى الجملة سواء تناولت بيتاً او بيتين او اكثر او اقل واسبكتها بقالب عربي اجلو رواءه علي قدر الاستطاعة ولا انتقل الى ما بعدها حتى يخيل لي اني احكمتها

ولما كان الشعر العربي يختلف طولاً وقصراً باختلاف اوزانه كان لا بد من حصول التفاوت في النسبة بين عدد ابيات الاصل وعددها في النقل . وليس في اليونانية شطرٌ وبيتٌ كالعربية فكل شطر منها بيتٌ تامٌ كالرجز في عرف بعض العروضيين اذ يعنبرون كل شطرٍ منه بيتاً كاملاً . ثم انه كثيراً ما يحصل الترابط فيها بين بيتين واكثر بما لا يجوز اتيان نظيره في العربية . ولهذا لم يكن في دائرة الامكان ان يُنقل البيت اليوناني بيتاً او شطراً عربياً . اذ كلما كثرت اجزاء بحر الشعر العربي زاد اتساعه لاستيعاب المعاني فالطويل والبسيط مثلاً يستوعب البيت منهما ما لا يتسع له السريع والمنسرح . وهذان تامان يستوعبان ما لا يتسع له المجزوء من سائر الابحر . فهذه النسبة يمكن اعتبار كل بيت من الطويل والبسيط بمثابة زهاء بيتين من الاصل اليوناني وبقرب منهما الكامل التام وكل بيتين من الخفيف والسريع والمنسرح والرجز والمنقارب والمتدارك والوافر والرمل واحداً الكامل مقابل ثلاثة ابيات من اليونانية . فجاءت الابيات العربية بين العشرة والاحد عشر الف بيت نقلاً عن اصل عدده بين الستة عشر والسبعة عشر الف بيت

وكنيت اثناء مطالعتي ترجمات الافرنج انكر اموراً كرهت ان ينكرها غيبري علي فاجتنبتها . مثال ذلك تصرف البعض منهم تصرفاً غريباً فيبدلون معنى

بآخر ولنظة بغيرها ولم في ذلك اعدار نافهة اشترنا اليها في مواضعها . واغرب من هذا ما يقدمون عليه من الحذف والاضافة فقد رأيت في بعض المواضع ابياتا كثيرة قضا عليها بالحذف واياتا كثيرة حسنت لم انفسهم اضافتها حتى ان احدهم حاك من اربعة ابيات اربعة وثلاثين بيتا ضمنها معاني لم تخطر على بال هوميروس

المحافظة على الاصل

فكان معظم ممي ان لا اجمف مثل هذا الاحجاف فلم انصرف بشيء من المعاني وحافظت على الالفاظ ما امكن فان حذفت لفظة فهي اما من مكررات الاصل التي يحسن تكرارها في لغتها ولا يحسن في لغتنا واما من الالفاظ التي يمكن استخراجها من المعنى وقد يمكن ان تكون من الالقاب والكفى التي يستغنى عن ايرادها كل حين . وان زدت لفظة فهي اما مما يقتضيه سياق التعبير العربي واما فافية لا تزيد المعنى ولا تنقصه . وان قدمت او اخرت فكل ذلك في فسخة قصيرة يقتضيها السبك العربي وكان هذا اعظم قيد قيدت به نفسي

اجتناب الوحشي والحوشي

ثم اني اجتنبت ما امكن حوشي الكلام ووحشي طمعا بان لا تحقره الخاصة ولا يفتق فهمه على العامة . واذا اضطرت الى اثبات كلمة لنوية فتلك اما انظة وضعية لا يمكن استبدالها بغيرها واما فافية لا يمكن العدول عنها واما تعبير ليس ما يفضل في الكلام المأنوس

الالفاظ التي لا مرادف لها في العربية

وليت هذا منتهى الاشكال في تعريب الالفاظ فقد اعترضت لي الفاظ وتراكيب وصنية بعضها غير مألوف في العربية وبعضها لا يقابله مرادف اصلا فاضطرت الى انتقاء الفاظ يمكن اطلاقها على المعنى المراد ونهت عليها . والى نهج اسلوب في التراكيب الوصفي لا يختل معه نظام العربية ودونك امثلة يسيرة من ذلك :

لآلهة اليونان طعامٌ وشرابٌ يعبر عنهما بلنظتين لا مرادف لهما في العربية
فعبّرت عن الشراب بالكوثر والسبيل كما اوضحت في الشرح (ص : ٩٣٥)
وعبّرت عن الطعام بالعنبر لان هذا لفظها باليونانية (Αμπροσια) وهو عندهم
طعامٌ وطيب بان واحد كما اوضحت (ص : ٧٤٧)

وعند القوم آلهة وشبه آلهة كثيرون لا شبيه لهم عند العرب فلم توضع
لهم اسماء خاصة بهم . فحيثما اتيت على لفظة من مثل هذا رجعت الى معنى اللفظة
اليونانية وعربت بما رادف ذلك المعنى او قاربه فدعوت ربان الغناء ومنشدات
الآلهة « القيان » والقينة في العربية الجارية المغنية . ودعوت ربان اللطف
البهجات والخرائد فاللفظة الاولى اخذاً عن مفاد المعنى واللفظة الثانية
تشبيهاً بالكلمة اليونانية التي تماثلها في اللفظ (Χερειες) كما اوضحت في الشرح
(ص : ٧٥٦)

واما الموصوفات العلوية الموضوعة لمعنى معين فقد سميتها باسمائها التي تنطبق
عليها في العربية فسميت الالهة الفتنة « فتنة » ورب الهول « هولاً » والاه
الشقاق « شقاقاً » والساعات « ساعات » والصلوات « صلوات » وهلم جرا

التراكيب الوصفية

وفي الاليادة تراكيب وصفية ملازمة لكثير من اعلامها وقد يكثر تكرارها
فيها الى حيث يكره ذلك في العربية كوصف اخيل بخفة القدم ووصف
هكطور بهز الخوذة والقول في نسطور انه راعي الشعب وفي زفس انه ابو
الآلهة والبشر . ففي مثل هذه الاحوال خفت التكرار وانتفيت الفاظاً حسبها
خفيفة على السمع العربي فقات طيار الخطى وهياج التريكة وما اشبه

تعريب الاعلام

ثم انه لم يكن بالامر السهل تعريب الاعلام بما لا يعبه الذوق العربي
وخصوصاً اني اعلم ان قارئ امثال الاليادة لا بد ان يستثقل في اول الامر توالي

اعلام اعجمية لم يألف سمعه شيئاً منها . ولكنه اذا تتر من تلاوتها اولاً لا يلبث ان يألفها بعد تلاوة قصيدة او بعض قصيدة

وقد كانت لي هذه الاعلام في النشيد الاول عشرة في سبيل احكام النظم فكان لابد من وضع اصول اعتمد عليها في سائر الاناشيد وليس في كتب العرب ما يماثل هذه الاصول . وان في كتاب سيبويه باباً للتعريب ولكنه اقتصر في معظمه على تتبع بعض الالفاظ مما استعمله العرب من اعلام الاعاجم وغيرها والنظر في ما ألحق منها بالبناء العربي كـجَوْزَجَ وجَوْزَبَ ودينار وديباج ويعقوب واستحق وما لم يلق به كـكُرْكُرَ وخرم وخراسان

وجميع ما كتب الخفاجي في شفاء الغليل وابو حيّان في ارتشاف الغرب من اسان العرب والتمالي في فقه اللغة والسيوطي في المزهرة وغيرهم من طرق هذا الباب لا يكاد يمتدّى الالفاظ الفارسية وقليلاً من غيرها وتوصله ايضاً انه لم يضع العرب قواعد مطردة يمكن الرجوع اليها في مثل هذه الحال . واذا اردنا القياس على ما جاء في الكتب العربية من الاعلام اليونانية زادت المعضلة اشكالاً فان ايدي النساخ قد لعبت بها كل ملعب هذا فضلاً عن انهم لم يحجروا بها على نمط معلوم في زمن من الازمنة الا في احوال مغمورة واسماء مشهورة . وزد على هذا ان اكثر اعلام الالفاظ غير المذكور في كتب العرب . ولا ريب عندي ان العربيين والمؤرخين توثقوا ما يمكن حسن التطبيق في تعريب الاعلام ولكن عدم جريهم على خطة واحدة وسنّ معلوم ذهب بذلك الجهد ضياعاً فقالوا مثلاً ارسطاطاليس وارسطوطاليس وارسطاليس وارسطوليس وبتروه ايضاً فقالوا ارسط . وقالوا اسقليبيوس واسكولابيوس واسكليبي واسقولا ب وامثال ذلك كثيرة في النثر فما بالك لو نظمت شعراً

تلاعب النساخ

واما تحريف النساخ وتصحيحهم فما لا يدركه حصر فكثيراً ما نقرأ فيلقوس

وفيلثوس وفيلنوس وقيلبوس وقتلتوس ويكون المراد فيلثس ايا الاسكندر . وثقرأ
بودنطه وتيرنطه وبيرنطه وبورنطا والمراد البيزنطية . وخذ اي كتاب شئت من
كتب التاريخ من البيروني والمسمودي الى ابن الاثير وابن خلدون حتى المقرئ
وانظر فيه الى الاعلام اليونانية فيشكل عليك ارجاعها الى اصلها

وكثيراً ما ترى الاسم الواحد مكرراً في صفحات وهو في كل صفحة بهجاء
تختلف عما قبله وما بعده فاذا فحقت القرعاني طبع بغداد صفحة ٢٣٦ وقرأت
انطياقوس ثم رأيت ابطيحش بالباء والحاء ص : ٣٦٩ فما ادراك ان المراد بهما
انطيوخوس اذا لم تكن هناك قرينة ترشدك

ومن بلاء النسخ ايضاً تحويل الفكر من علم مشهور الى علم مشهور فتضيع
فائدة الرواية بحملتها كقولهم في يوليوس قيصر بولس او بولوس واين بولس
من يوليوس

ولا يصح ارجاع اللوم في خطأ النساخ الى المؤلفين والمؤرخين الا حيث
اجتزأوا بالنقل من نسخ مصحفة والا فلا ريب ان القاضي الفاضل مثلاً لم
يفسد شيئاً من الاسماء الافرنجية في ما كتب عن الصليبيين فلم يقل الاستبارية
والاستنارية كما نقل ابن الاثير وابن خلدون بل قال الاستبالية على لفظها
الافرنجي (hospitaliers)

عوداً الى تعريب الاعلام

بقي عليّ ان اذكر الاصول التي جريت عليها في تعريب الاعلام :
جرت للافرنج عادة في نقل كثير من الاعلام اليونانية عن الاصل
اللاتيني دون اليوناني ولا سيما في اسماء المعبودات . فاذا ارادوا اثينا الالهة
الحكمة قالوا مينرفا بلفظها اللاتيني واذا ارادوا فوسيد او فوسيدون الاله البحار
قالوا نبتون . والسبب في ذلك ان معبودات الرومان كانت تماثل معبودات
اليونان من اوجه شتى . ولها عند كل من الفريقين اسماء توافق روح لغته .

ومعانيها . واذا كان الافرنج اقرب عهداً بالرومان وقد تناولوا اسما معبوداتهم عن اللاتينية على ما دونها فرجيليوس وغيره من الشعراء والكتّاب اطلقوا تلك الاسماء على الاعلام اليونانية ايضاً . لما ثلثها لها في المفاد . على ان كثيرين من تحقيقهم قد اخذوا يرجعون الى الاصل وبذلكرون كل علم باسم لفته

وهكذا فعلت في تعريب المعبودات فسميت كل معبود باسمه اليوناني وان كان بعضها ذكره في كتب العرب . فقلت زفس ولم اقل زاو يش كما قال ابو نواس ولا المشتري وان ورد بهذا اللفظ في كتب العرب . وقلت هرس ولم اقل عطارد وقلت آرس ولم اقل المريخ كما قال العرب او بهرام كما قال العرب والفرس . وذلك لان مشتري العرب وعطارد هم وريخهم وبهرامهم هم غير امثالهم عند اليونان وليس لهم في كتبنا وصف معين ينطبق على المفاد اليوناني . ولم اتوسع في شيء من هذا الباب الا باسم عفروذيت فقد اطلق عليها اسم الزهرة لغرب الشبه بين الزهرتين في اساطير القومين

وفي سائر الاعلام حفظت الاصل اليوناني مع مراعاة صحة اللفظ العربي على قدر الامكان

وتابعت العرب في الاسماء الشائعة فابقيتها على حالها فلم اقل أَلِكْسَنْدَرُ او انكسندروس على ما يقتضيه اللفظ اليوناني بل قلت الاسكندر لاجماع العرب على كتابته بهذا الهياء

وجاريت الافرنج وكثيرين من كتاب العرب بزيادة حرف الهاء في اوائل الاسماء المبتدئة بحرف علة ثقيل فقلت هوميروس وهلميس وهيرا وهيبا كما قالوا هيروودس وهيروودوس وهيرقل وهيلانة مع انه لو روعي رسم الحروف اليونانية وعلم انه لا هاء فيها لوجب ان يقال ايروودس وايروودوس وارقل وايلانة . على ان العرب لم يراعوا ذلك في كل الاحوال ولهذا قالوا اميروس واسنيودس بدل هوميروس وهسيودس

ومثل ذلك يقال في زيادة العين في اوائل نحو عشرة اسماء فان ذلك يقرّبها

الى اللهجة العربية فاخف علينا ان نقول عسقلاف من ان نقول اسقلاف وعفروذيت بدل افروذيت .

وجاريت الافرنج وبعض العرب ايضاً في بتر بعض الاسماء ولا سيما الطويل منها فقلت طرطار بدل طرطاروس وطفطام بدل طقطامبوس ومربوت بدل مريونس واسكندر بدل اسكندريوس وفوسيند بدل فوسيدون كما قال العرب هرقل بدل هرقليس وتيوفيل بدل ثيوفيلوس وخصوصاً ان ملازمة هذه السين للاعلام اليونانية كملزمة الحركة والتنوين للمعرفة والتكرة في الحركة العربية غنى عنها .

الحروف التي لا مقابل لها في اليونانية

وليس في اليونانية طاء ولا قاف ومع هذا فعما كثيران جداً في الاعلام اليونانية واللاتينية المعربة فقالوا النيفونس والطيوخس وقبرس وقسطنطين وقيصر بدلاً من انتيفونس وانتيوخس وكبرس وكستنتين وكيسار . واخالم احسنوا بالنظر الى انطباق تعريبهم على اللهجة العربية . فجاريت من سلك هذا المسلك وقلت بالطاء طروادة وطرنا وطيطان واماها . وبالقاف قرونس وقبريون وقلبارس . وربما اجتمع الحرفان كما في طقفير

ويقال مثل ذلك في الصاد فهي ليست من حروف اليونانية ومع هذا فقد قلت صوقوس كما قالوا صولون وصوفياً

واليونانية خلوة من حرف الدال فكل دال فيها ذال فراعيت في هذا الباب جودة اللفظ وحافظت على ابقاء معربات المتقدمين على حالها فقلت الاسكندر والاسكندر وداماس ودردانيا بالدال وذريون وذبر وذفوب بالدال

الحروف التي لا مقابل لها في العربية

وفي اليونانية حروف ليست في الهجاء العربي كالفاء B فهي مقام الباء في الحروف السامية وموقع هذه اي ثانية في الحروف فكما عبر اليونان بها

عن بائنا خللو لفتهم منها يجب ان نعبّر عنها بالباء لخللو لفتنا من حرفهم ويشمل هذا التعريف جميع الالفاظ التي يدخل هذا الحرف بهجائها وهي كثيرة كباينا وبريسا وبورس وبرياس .

وفيها حرف آخر لا مقابل له في العربية وهو الباء الفارسية II فقد اخترت لها الفاء لقرب غرضها اليها فقلت فريام وفطرقل وفوذالير كما قالوا فرسيس وافلون وفيداس . ومن معربي القدماء من اختار لهذا الحرف الباء العربية فقالوا بطرس بخلاف كثيرين من معربي السريان الذين يقولون فطرس فعولت على هذا الوجه الا حيث وقع تكرار الحرف او ثقل اللفظ بالفاء فأرجعته الى الباء وقلت فينبس وبلفونة وأولنب ولم اقل فينبس واولف وبلفونة

ولا فرق في اليونانية بين الجيم والغين فيعبر عنهما فيها بحرف واحد I^٢ تفرجه بين الغين العربية والجيمين اي الجيم المصرية والجيم السورية فقد اخترت ان اعبر عنها بالغين فقلت غلاطيا وخرطينة الا في احوال قليلة رأيت فيها الجيم اوقع في الاذن سواء كان مصرياً او سورياً كجبرنيا ومجيس

تنافر السين والثاء

والثاء والسين كثيرتان في الالفاظ اليونانية وقد تجتمعان مما فيشكل على العربي لفظها اذا كان اولهما ساكناً . ففي مثل هذا قلبت الثاء تاء فكُتبت اغستين بدل اغشين . واثقل من ذلك اللفظ اذا وقعت الثاء بين سينين نحو رينسيثيس فكُتبتا منستس . واما اذا كان الساكن الثاني فاني ابقيته على حاله لسهولة لفظه اذ لا يصعب مثلاً ان يقال ثسطور

الباء والثاء

ومع اني تحاشيت الباء الفارسية والفاء اليونانية في النظم فلم اتحاشها في الشرح فالعربية واليونانية لفتان قديمتان وللتقلد فيهما اوضاع رأيت ان لا اتمدأها في الشعر الا فيما لم يطرخوا بابه رغبة في استبقاء الصيغة النظرية على حالها .

واما الشرح فهو بلسان عصري وقد اضطرت فيه الى ايراد اعلام قديمة وحديثة وقع فيها هذان الحرفان فأبقينهما على حالهما دفعا للبس كما يفعلون مثلاً في اليونانية الحديثة اذا اوردوا علماً افرنجياً احد حروفه الباء وهي ليست موجودة في لغتهم فيعبرون عنه بحرفين $\mu\pi$ وليس من ذلك شيء في اليونانية القديمة

طريقة ابن خلدون

وقد تعرض للقارىء اثناء مطالعته كتب الاعاجم حروف كثيرة لا نظير لها في العربية فكان قدماء الكتاب من العرب يكتبونها بما يقارب لفظها من حروفهم وهو نقص غير خاص بالعربية ولكنه يتطرق الى كل لغة من سائر اللغات ومنشأه من التباين في النطق بالحروف بين لغة واخرى . فهما كانت الصور التي يرسم بها الافرنجي اكثر حروف الخالي وبعض الحروف العربية كالحاء والعين والقاف والفاء فليس بالامر السهل عليه ان يتلفظ بها على وضعها العربي . ومع هذا فقد اتخذ لما بعض الكتاب المحدثين صوراً فارقة تميزها بالرسم دفعا للاشكال كان يفعوا نقطة فوق حرف h ليشيروا انها في الاصل قاف وليست كافاً . ونقطة فوق حرف h او تحته ليشيروا انها حاء وليست هاء . و d منقوطة يعبر بها عن الفاد . واذا ارد بها الطاء الحقوا بها حرف h . والعين ساكنة يعبر عنها بضممة . ومتحركة بحرف حركتها مع الضمة المذكورة وهما جزءا وليس كتاب المعصر باول من انبه الى هذا البحث فقد قال ابن خلدون في مقدمته :

« ليست الامم كلها متساوية في النطق بتلك الحروف فقد يكون لامة من الحروف ما ليس لامة اخرى والحروف التي نطقت بها العرب هي ثمانية وعشرون حرفاً كما عرفت ونجد للعبرانيين حروفاً ليست في لغتنا وفي لغتنا ايضاً حروف ليست في لغتهم وكذلك الافرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من الهجم . ثم ان اهل الكتاب من العرب اصطلموا في الدلالة على حروفهم السموعة باوضاع حروف مكتوبة متميزة باشخاصها كوضع ألف وباء وجيم وراء وطاء الى آخر

الثنائية والمشرين واذا عرض لهم الحرف الذي ليس من حروف لغتهم بقي مهملًا عن الدلالة الكتابية مغفلًا عن البيان وربما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذي يليه من لغتنا قبله او بعده وليس ذلك بكافٍ في الدلالة بل هو تغيير للحرف من اصله . ولما كان كتابنا مشتملاً على اخبار البربر وبعض النجم وكانت تعرض لنا في اسمائهم او بعض كلماتهم جروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح اوضاعنا اضطررنا الى يئانه ولم نكتف برسم الحرف الذي يليه كما قلناه لانه عندنا غير وافٍ بالدلالة عليه فاصطلعت في كتابي هذا على ان اضع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه ليتوسط القارىء بالنطق بين تخرجي ذينك الحرفين فتحصل تأديته . وانما اقتبست ذلك من رسم اهل المصحف حروف الاشمام كالصراط في قراءة خلف فان النطق بصاده فيها مجهم متوسط بين الصاد والزاي فوضعوا الصاد ورسموا في داخلها شكل الزاي ودل ذلك عندهم على التوسط بين الحرفين فكذلك رسمت انا كل حرف بتوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسطة عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم او القاف مثل اسم بلكين فاضعها كافًا وانقطعا بنقطة الجيم واحدة من اسفل او بنقطة القاف واحدة من فوق او ثنتين^(١) فيدل ذلك على انه متوسط بين الكاف والجيم او القاف وهذا الحرف اكثر ما يجي في لغة البربر . وما جاء من غيره فعلى هذا القياس اضع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معاً ليعلم القارىء انه متوسط فينطق به كذلك فنكون قد دللنا عليه ولو وضعناه يرسم الحرف الواحد عن جانبيه لكننا قد صرنا من نخرجه الى نخرج الحرف الذي من لغتنا وغيرنا لغة القوم فاعلم ذلك والله الموفق للصواب بئنه وفضله»

ذلك ما أشار به ابن خلدون منذ خمسة قرون وهو مقتبس من كتابة اهل

(١) قال ابن خلدون « بنقطة الكاف واحدة من فوق » لانه مغربي واهل

المغرب بنقطون القاف بنقطة واحدة من فوق والقاف بنقطة من اسفل . وورد

ذلك بقوله « او ثنتين » للدلالة على نقط القاف في غير بلاد المغرب

المصحف فلم يعبا الكتاب بكلامه أو لم يشعروا بحاجة ماسة إليه إذ كادت تنطوي صحف التعريب في العصر المتأخرة . على أن أبناء العصر أخذوا يشعرون بتلك الحاجة فجعل بعضهم يميز بين رسم الحروف الاعجمية المجتعة وليس عسيراً علينا أن نستمد من الفرس كثيراً من الحروف التي ليست في اوضاع العربية فسدّ مسدّ ما نقص عندنا من حروف الافرنج لان النارسية على ما لا يخفى اقرب بوضعها ومنشأها الى لغات الغرب منها الى اللغات السامية . فلما عدل الفرس بعد الاسلام عن حروفهم التهلوية الى الحروف العربية رأوا أن حروفها لا تؤدى جميع منطوق اللفظ بلسانهم فزادوا من عندهم حروفاً لما نقص عن مدلول لفظهم في لغة العرب فرسموا الباء والجيم وفرقوا بين الجيم والزيم وبين انكاف والگاف وزاد الترك الكاف الخرساء

ولا يفوتنا المطالع اللبيب اننا اذا اشرنا باستعمال هذه الحروف فانما اشير بها في الاعلام الاعجمية المترتبة ليس الا . وهي على كل حال لا تصلح في الشعر إذ يجب أن يبقى على صبغته العربية . ولهذا استعملتها في الشرح دون المتن على أن النقص ليس كله في الحروف الصحيحة ولكنه يتشعب أيضاً الى الحركات او حروف العلة الافرنجية فالحركات العربية ثلاث فقط يقابلها ثلاثة حروف علة وليس منها شيء ينطبق على لفظ e, o و u و e و e وامثالها ما هو شائع في لغات الغرب

ولبعض كتاب الترك طريقة حسنة في الدلالة على حركات الفاظهم التي لا يمكن التعبير عنها بالحركات العربية . ذلك انهم يخذون من النخبة فتحين ثقيلة وخفيفة . وكذلك من الكسرة كسرتين . ومن الضمة اربع ضمات اثنتين ثقيلتين واثنين خفيفتين يسمون واحدة من كل من الثقيلتين والخفيفتين مبهمة والآخرى مقبوضة . وباختلاف رسم هذه الحركات قائمة او منخبة او مقبوضة فوق الحرف او تحته تجتمع لديهم ثمانية حركات يستعملون بها التعبير عن جميع ما يقضيه منطوق لسانهم

وليست العربية في حاجة الى شيء من ذلك للدلالة على منطوق الفاظها
فحركاتها كافيةٌ وافيةٌ . ولكن الحاجة فيها الى ما يمثل بعض منطوق اللغات
الاعجمية كما تقدم

ولقد وضع الشيخ ابراهيم اليازجي منذ بضع سنوات اربع حركات تمثل بعض الحروف
الفرنسية وهي : u و ou . وقد جرى فيها على الجمع بين حركتين او ثلاث مراعيًا بذلك
مخارج الحركات كما راعى ابن خلدون مخارج الحروف

وان في استعمال هذه الحركات مع الحروف الفارسية سهلاً كبيراً للدلالة
على اصل كثير من الحروف الاعجمية . وقد لا يصعب مع التوسع بها قليلاً
والاصطلاح على اوضاع لسائر حروف الاعاجم التي لانظير لها في العربية والفارسية
ان يتوصل كتاب العرب الى الدلالة على منطوق جميع الحروف في سائر اللغات وان
كان النطق ببعضها يظل مستحيلاً على من لم يألف قراءة اللغة المعربة اعلامها
والتلفظ بحروفها الاصلية . وعلى كل حال لا يجوز الاكثار من هذه الاصطلاحات
ولا يسوغ استعمالها الا في احوال خاصة

النبر

وقد راعيت النبر اي موقع المد في اللفظة (accent) ما امكن فقلت مثلاً
آرس ولم اقل اريس الا حيث اضطررتني ضرورة الشعر ورجائي ان يكون
ذلك قليلاً

التصرف بالحروف والحركات

ولم اتصرف في الحروف والحركات الا فيما ندر ووجعت في ذلك تقريب
اللفظة لمسمع القارئ العربي دون ان اعبت بمادة الاصل كما قلت مثلاً صفة
تعريباً لاسم انثى اصلها صفيثا وسفيو

واما حروف العلة التي نعب عنها بحركات فقد تماشيت تغييرها عن مواضعها
كما وقع في كثير من كلام العرب في الشعر ولا سيما المولدين منهم كقول ابن هاني :

وَتَحَتَّ بنو العباس منك عزيمةً قد كان يعرفها المليك المرقلُ
 وكان حقه ان يقولَ هرقلُ فقلبتُه القافية وامثال هذا كثيرة في شعر
 المتنبي وابي تمام وغيرهما

الالفاظ المعربة من اليونانية

وقد نهيت على الكلمات اليونانية الاصل كالاسطول والمينا والليمان والنوقي .
 وما يشبه في كونه يونانياً كالعفريت والعنبر وما يشابه اليونانية كالخربرة
 هذا جل ما توخيت احكاماً لتعريب الالفاظ وحاشا ان ازعم الفلاح بكل
 ما توخيت او ادعي الصلاح بكل ما تحربت . ولكنه لا يريني ان ادعي اخلاص
 النية وصدق الاجتهاد فقد اتيت ما اتيت وانا واثق من نفسي انها لم تذخر
 جهداً في هذا السبيل

النظم في التعريب

لا بد للشارع في تعريب منظومة كالاليادة او نظم ملحمة على مثالها من
 ان يقف طويلاً ويتردد برهة قبل ان يعين اوزان منظومته وقوافيها . وليس
 لنا في اوضاع السلف اصول نرجع اليها في مثل هذه الحال . وهي ان
 يتسنى وضع مثل هذه الاصول فينقيد كل بحر من بحور الشرياب من ابوابه او تميم
 كل قافية من القوافي لمعنى من المعاني . فقد نظم العرب كل معنى على كل بحر وكل
 قافية واجادوا . والفريخة الجيدة نقادة خيرة اذا طرقت باباً افتتح لها ملء
 رغبتها فنقع على البحر والقافية وهي لا تعلم من اين تأتي لها ان تقع عليها وانما
 هو الشعور الشعري يدفعها الى حيث يجب ان تندفع

فالشاعر المجيد اذا تصور امرأ فانما يتصور له ذلك الامر على كماله فتنبه
 له السليقة جمال الشكل كما هيأت له جمال المعنى فيجتمع له احكام التناسب
 بين اللفظ والمعنى والوزن والقافية . فكل بيت بنى عليه نصيده فهو الاساس

الذي يصح ان يستند اليه ويبنى عليه

ولا يخرج عن هذه القاعدة الا الشعر المنظوم لاغراض معلومة ودعت الحاجة الى تقييده بقيود لا مناص له منها كالاراجيز المنظومة في العلوم وبعض الموشحات والاغاني المربوطة بانغام معينة فالشاعر مقيد فيها بنمط لا يتيسر له العدول عنه الى غيره

وفي ما سوى ذلك فالشاعر مطلق اليدين يتصرف بالشعر كيف شاء وله ان يرتضي ما تيسر له من الاوزان والقوافي وهي في الغالب تبرز له من نفسها بشكلها الانيق وقوامها الرشيق

على ان قريحة الشاعر وان كان مجيداً ليست كيد النساج تنطلق في العمل ايان حركها العامل . فقد يضطرب الجنان وينحبس اللسان والذهن وقاد . وقد يكون القلم سيالاً فيجف فيه المداد . فالامساك عن النظم في مثل هذا الاعتقال خير من اجهاد النفس فلا يلبث العقال ان ينحل من نفسه . واذا طال الخمول فليشخذ الشاعر قريحته بتلاوة جيد الشعر فهو كالجللاء للسيف الصدي .

ولكنه قد يحصل خلاف ما تقدم فنتراكم المعاني وصورها وتندفق التخييلات تدفقاً يكاد يذهب بها شتاتاً فيتبها للشاعر رسم مطلعه بيتين او اكثر على ابحر مختلفة فيبحر في الاختيار ويميل الى الاسترشاد

اوزان الشعر وابوابه

ولهذا رأيت ان اذكر في ما يلي ما تيسر لي استخراج من شعر العرب بالنظر الى ترابط بحور الشعر بمواضيعه وابوابه . فقد راعيت هذا الترابط في بعض الاناشيد فادت تلك المراجعة الى فائدة بحسن التعويل عليها في بعض الاحوال ولا شك ان العروضيين نظروا الى ابحر الشعر من هذه الوجهة ولكنهم لم يزدوا على تسميتها باسماء تنطبق توسعاً على مسميات مواضيع القصائد المنظومة عليها فقالوا هذا طويل وذاك بسيط وذلك خفيف أو سريع وهلم جرّاً ووقفوا عند هذا الحد

ولكنه يستفاد من هذه التسمية ان لكل بحر ساحلاً يقف عنده ويرشد
اسمه اليه فاذا قلنا هذا بحرٌ طويل علمنا انه لا يسوغ ان ننظم عليه الاهازيج
والموشحات والاغانى واذا قلنا هذا بحرٌ مقتضب او مجتث علمنا انهما لا يصلحان
للمنظومات على اطلاقها ولا يصح فيهما تدوين الروايات والتواريخ
ولو اردنا ان نضع اصولاً وافية لهذا البحث لوجب ان نرجع الى منظوم
نوايغ الشعراء ونقابل بين ابوابه وبحوره فنظهر لنا اغلبيّة كل وجه في كل بحر .
وهو بحث طويل لا يتسع له هذا المجال

فحسبنا اذاً فتحاً لهذا الباب ان ننبه اليه ونذكر موجزين خلاصة ما انضح
لنا بالتطبيق والمقابلة

فالطويل بحرٌ خضمٌ يستوعب ما لا يستوعب غيره من المعاني ويتسع للفخر
والحماسة والنشايه والاستعارات وسرد الحوادث وتدوين الاخبار ووصف الاحوال
ولهذا ربا في شعر المتقدمين على ما سواه من البحور لان قصائدهم كانت اقرب
الى الشعر القصصي من كلام المولدين . خذ مثلاً لذلك معلقات امرئ القيس
وزهير وطرفة ولامية الشنفرى وقصيدة عبد يغوث الحارثي التي مطلعها :

ألا لآلئوماني كفى اللوم ما ييا فما لكما في اللوم نفع ولا ليا

والبسيط يقرب من الطويل ولكنه لا يتسع مثله لاستيعاب المعاني ولا يلين
لينه للتصرف بالتراكيب والالفاظ مع تساوي اجزاء البحرين . وهو من وجه
آخر يفوقه رقةً وجزالةً ولهذا قلّ في شعر ابناء الجاهلية وكثّر في شعر المولدين .
مثال الشعر الجاهلي قول نأبط شرّاً :

يا عيّد ما لك من شوق وايراقٍ ومن خيالٍ على الابواب طرّاقٍ
وقول عبدة بن الطبيب :

هل جبل خولة بعد الهجر موصولٌ ام انت عنها بعيد الدار مشغولٌ
ومثال شعر المولدين قول ابن زريق :
لا تعذليه فان العذل يوجعه قد قلت حقاً ولكن ليس بسمعه

وقول ابي تمام :

السيف اصدق انباء من الكتب في حذره الحذ بين الجدة والأعب
والكامل اتم الاجور السباعية وقد أحسنوا بتسميه كاملاً لانه يصلح لكل
نوع من انواع الشعر ولهذا كان كثيراً في كلام المتقدمين والمتأخرين وهو اجدود
في الخبر منه في الانشاء واقرب الى الشدة منه الى الرقة ومنه معلقنا عنتره وليد
وقصيدة الحادرة قطبة بن جرويل :

بكرت سُميَّة بكرة فتمتع وغدت غدوً مفارق لم يربح
واذا دخله الحذ وجد نظمه بات مطرباً مرقصاً وكانت به نبرة تهيج
العاطفة كقولهم :

بأدمية نُصبت لمتكف بل ظبية أوفت على شرف
بل درة زهراء ما سكنت بجرأ ولا اكتفت ورا صدف
وهو كذلك اذا اجتمع فيه الحذ والاضمار كقول الخليل السعدي :
ذكر الزباب وذكرها سقم نصبا وليس لمن صبا حلم
وقول الحارث الشكري :

لمن الديار عفون بالحبس آباتها كهارق الفرس
والوافر ألين البحور يشتد اذا شدته ويرق اذا رفقته وأكثر ما يجود به
النظم في الفخر كملقة عمرو بن كلثوم وفيه تجود المراثي ومنها كثير في شعر المتقدمين
والمتأخرين كقول الخنساء :

بذكرني طلوع الشمس صخراً واذكره لكل طلوع شمس
وقول المهمل :

اهاج فداء عينك ألدكار هداً فالدموع لها الحدار
وحسبك من شعر المولدين مرثية ابي الحسن الانباري :
علو في الحياة وفي المات لعمرك تلك احدى المعجزات
ومرثية المتنبي :

نعدُّ المشرفية والعمالي ونقتلنا المتنون بلا قتال

والخفيف اخف البحور على الطبع واطلاها للسمع يشبه الوافر لينا ولكنه أكثر سهولة واقرب انسجاما . واذا جاد نظمهُ رأيتُهُ سهلاً ممتنعاً لقرب الكلام المنظوم فيه من القول المنشور وليس في جميع بحور الشعر بحرٌ نظيره يصح للتصرف بجميع المعاني ومنه معلقة الحارث بن حلزة الشكري

والرمل بحر الرقة فيجود نظمهُ في الاحزان والافراح والزهرات ولهذا لعب به الاندلسيون كل ملعب واخرجوا منه ضروب الموشحات وهو غير كثير في الشعر الجاهلي واكثره في مثل ما تقدم ومع هذا فلفتنة فيه شيء من الحماسة وللحارث الشكري قصيدة وصفية اخبارية ابداع فيها ومطامعها :

عجبٌ خولة اذ تنكرني ام رأت خولة شيئا قد كثر

والسريع بحرٌ يندفق سلاسة وعدوبة يحسن فيه الوصف وتمثيل العواطف ومع هذا فهو قليل جدًّا في الشعر الجاهلي ومنه قول الخنساء :

وصاحبٍ قلت له صالح انك للغيل بسنمطار

والمنقارب بحرٌ فيه رنة ونغمة مطربة على شدة مأنوسة وهو اصلح للعنف منه للرفق ومنه قصيدة بشامة بن عمرو :

هجرت أمانة هجرا طويلا وحملك النأي عبأ ثقيلا

وقصيدة ربيعة بن مقروم :

من آل هند عرفت الرسوما بُجمران فقرأ أبت ان تريا

والفرس بصرة عونه كالرجز وعليه نُظمت شهامة الفردوسي

والمحدث او متدارك الاخفش بحرٌ اصابوا بتسميته الخبب تشبيهاً له بجنب الخيل فهو لا يصلح الا لنكتة او نغمة او ما اشبه وصف زحف جيش او وقع مطر او سلاح وهو قليل في الشعر القديم والحديث

والرجز ويسمونه حمار الشعر بحرٌ كان اولى بهم ان يسموه عالم الشعر لانه سهولة نظمهُ وقع عليه اختيار جميع العلماء الذين نظموا المتنون العلمية كالنحو والفقه

والمنطق والطب فهو اسهل الجور في النظم ولكنه يقصر عنها جميعاً في ايقاظ
الشعائر واثارة العواطف فيجود في وصف الوقائع البسيطة وايراد الامثال والحكم
تلك هي الابجر العشرة التي نظمت عليها الالياذة فقد ترى النشيد كله مجزأ
واحداً وقصيدة واحدة وقد نتمدد فيه الابجر والقصائد على مقتضى ما تراءى لي
من سياق الكلام

واما الابجر الستة الباقية وهي المضارع والمقنضب والمجثث والمزج والمديد
والمسرح فالاربعة الاولى منها لاتصلح لقصرها لمثل الالياذة ولا يجود نظمها
في ما خلا الاناشيد والتواشيح الخفيفة . والمديد قل من بنظم عليه وهو ثقیل على السمع .
والمسرح لم يتفق لي نظمته في الالياذة لغیر سبب مقصود

القوافي

القوافي والاوزان اليونانية والافرنجية

اذا سمع العربي لفظة « شعر » علم فوراً ان المراد به بالنظر الى اللفظ الكلام المقفى
الموزون ورسخت في ذهنه القافية رسوخ الورد . وليس الامر على هذا الاطلاق
في سائر اللغات اذ ليس في اليونانية ولغات الافرنج ابجر وتفاعيل فانما هذه من خصائص
لغة العرب ومن هذا حذوهم من ابناء الشرق كالسريان والفرس والترك . واما
بنو الغرب فلم اقبسوا واوزان خاصة بهم . فالقياس عبارة عن عدة الاجزاء
او المقاطع التي يتألف منها الشطر او البيت والغالب فيها ان تكون اثني عشر
مقطعاً وهو ما يسمونه بالاسكندري نسبة الى اسكندر دوبرناي وهو اشتهر شيء
برجز العرب . وهذا القياس البسيط يقوم عند الافرنج مقام جميع ابجر الشعر
وتفاعيله عند العرب . واما الالياذة وما جرى مجراها من الشعر اليوناني ففيه
الوزن تزيد اجزأؤه وتنقص بحسب التفاعيل فهناك اسباب خفيفة وثقيلة
تتألف منها اوتاد مجموعة ومفروقة تقوم مقام التفاعيل العربية والاساس في كل
ذلك طول المقطع او قصره وكون حرف العلة القائم مقام الحركة في العربية

ممدوداً أو غير ممدود . وبعبارة أخرى يراعى في المقام الاول موضع النبرة من اللفظة
 واما القافية فليست من لوازم الشعر في كل اللغات فالفرنسوية لا يصلح
 شعرها بدون قافية والانكليزية فيها الشعر المقننى وغير المقننى ومثلها الايطالية
 والالمانية . فهذا الاعتبار نُقلت الالباذة الى لغات الافرنج بالشعر المقننى كترجمة
 يوب والشعر غير المقننى كترجمة مُنتهى . واما الاصل اليوناني فهو موزون غير
 مقننى وقافية كل بيت قائمة بنفسها لا تراعى فيها المائلة لاية قافية كانت من
 القصيدة او الشيد

القوافي في لغة العرب

والعربية لا يصلح شعرها بدون قافية لانها لغةٌ قياسية رثانة يجب ان
 يراعى فيها القياس والرنه . وفيها من القوافي المتناسبة ما يتعذر وجود نظيره في سائر
 اللغات فلا يسوغ لها ان تبرز عطلاً مع توفر ذلك الحلي الشائق . فاذا
 اقصر الافرنجى على صوغ شعره كالجزء العربي لكل شطرين قافيتان متناسبتان
 ينتقل منهما الى غيرها واضطراً الى تكرارها بعد حين او لو اختار ان يعرّي
 شعره من القوافي بتاتاً فمذره في ذلك ان لغته هكذا خلقت . بل لو اجهد نفسه
 في مواضع كثيرة لتعذر عليه تعزيز قافيتين بثالثة . والشاعر العربي بخلاف
 ذلك فان كثيراً من ضروب القوافي تنهال عليه انبهاًل الغيث واذا انجبت
 فلا تنجس الاقصير باخ او لقرع بابٍ ضيق او لتجاوز الحد في اطالة القصيدة
 المنظومة على قافية واحدة

تناسب القوافي والمعاني

وقوافي الشعر كبحوره يجود بعضها في موضع ويفضله غيره في موضع آخر
 وحسبك دليلاً ان جميع قراء الشعر يطربون لبعض القوافي دون البعض
 الآخر واذا نظم شاعرٌ واحد قصيدتين على بحرٍ واحد بمعنى واحد ونفس واحد
 فلا ريب ان القافية الغناء تميل بالسامع الى اثارها على اختها . ولا ريب ان

اختيار قافية القصيدة ابعد مثلاً من اختيار مجراها وذلك بنسبة ما يربو عدد القوافي على عدد البحور والمرجع في ذلك الى سلامة النوق وغزارة المادة . فالقرينة الجيدة في غنى عن اصول توضع لها بهذا المعنى لو فرضنا من الممكن وضع مثل هذه الاصول فعي من نفسها تقع على القافية والبحر بلا جهد ولا تردد . ومع هذا فلا بأس من ايراد بعض ملاحظات لتراءى للتناظم اثناء النظم وللقارئ اثناء المطالعة

الشعر كالنظم الموسيقي والقافية رسته او قراره فخيماً جاد النظم وتناسق الى منتهاه حسن وقعه في الاذن وانشرح له الصدر وطربت له النفس . فكل نظم اطرب ارباب الصناعة وذوي الاذن السمتة فهو الحسن وهكذا الشعر فلا يحسن وقعه في نفوس قرائه وساميه ما لم يكن جيداً وقد يستهان بالمعنى البليغ لضعف قافية او وقوعها في غير موضعها

القوافي الضيقة والثقيلة

واول ما يجدر بالشاعر اجتناب القوافي الصعبة الضيقة فانه يضطر معها الى استعمال الكلام المنبوذ والوحشي المهمل ويضيق في وجهه باب التصرف بالمعاني على ما يتصورها فيعضل عليه النظم وعلى قارئه الفهم . ولنضرب لذلك مثلاً نابغة من نوابغ الشعراء ابا الطيب المنيني . نغذ قصيدته التي مطامها :

أَمْ سَاوِرٌ ام قرن شمس هذا ام ليث غاب يقدم الاستاذ

وقابلها بمعظم شعره فيبدو لك من استغلاق العبارة والتكلف ما يحملك على الظن انها ليست من نظمه لو لم تكن مثبتة في ديوانه . وان اردت برهاناً اقرب فانظر في محبوكات صفي الدين الحلي وكأها منظومة في باب واحد واقرأ الثانية واخاتية والظاائية وان كنت صبوراً جلدًا فأتم قراءتها من اولها الى آخرها وقل لي بعد ذلك رأبك فيها

ففي مثل هذا المأذق الفيق يضطر الشاعر الى اتخاذ جميع البيت لثمة للقافية مع ان الغرض من القافية ان تكون لثمة للبيت مندجّة في معناه . فاذا كره في القافية

وهي كلمة واحدة ان تكون حشواً للبيت فكم يكره ان يكون جميع البيت حشواً للقافية ما لم يكن مبنياً عليها لغرض مقصود
رنة القافية

وكما ان العرب نظموا جميع المعاني على جميع البحور فقد كان هذا شأنهم في القوافي فلم يقيدوا قافيةً بباب من الابواب وخير للقوافي ان تبقى مطلقة يتخير منها الشاعر ما شاء فتأتيه ارسالاً . فان سلم ذوقه جاءته منقادة طوعاً فحلت معها والا فلا يسلم الذوق كرهاً

ولكنه يجوز للباحث ان يلقي نظره على منظومات الشعراء ويمحصها بالنقد والمقابلة . فاذا فعلنا ذلك بدا لنا مثلاً : ان القاف تجود في الشدة والحرب . والదال في الفخر والحماسة . والميم واللام في الوصف والخبر . والباء والراء في الغزل والنسيب . وانما هو قول اجمالي اذا صح من باب التغليب فلا يصح من باب الاطلاق . لان مناحي التحول من نعمة الى اخرى في قافية الحرف الواحد اكثر من ان تحصى . فنغمة الراء مضمومة تختلف عنها مكسورة وفتوحة . وهي وما قبلها متحرك غيرهما وما قبلها ساكن او محدود بحرف علة . ورنتها في بحر تختلف عنها في بحر آخر وهكذا الى ما لا نهاية له

وغاية ما يقال في هذا الباب ان المعاني الشعرية كالآلئ المنثورة لا مرشد الى احسان نظمها في سمعها خير من سليقة الناظم فان جادت الصنعة بهرت البصر والا جاءت ركماً بعضها فوق بعض وذهب خلل بنائها بنضارة رواثها

جوازات الشعر

ليس المقام مقام بحث في بيان اللغة وعروضها ونوع هذا فلا بد لي من ايراد نبذة يسيرة في ما رأيت اجتنابه واتيانه من الجوازات الشعرية استتماماً لبيان النهج الذي نهجته في التعريب

لو اراد الشاعر ان ينجح لكل خطأ يرتكبه في النظم بشاردة من شوارد

شعر العرب لما عدم سبيلاً الى التخلص من معظم ما يتورط فيه عجزاً وجهلاً . على ان الطويل الباع القويم البراع تأبى نفسه ان يتوراك على شذوذ فارط وقذح ساقط ولو كان صاحبهما من شيوخ الشعراء كأمريء القيس وزهير بن أبي سلمى . — فاي شاعر تجيد يرتقي جزم المضارع بغير جازم بناء على ورود ذلك في معلقة زهير بقوله :

وان سفاه الشيخ لاحلم بعده وان الفقى بعد السفاهة يحلم
ومن يقبل على ايراد المتناورات في شعره افتداء بيت فذير لامريء
القيس اذ قال :

غداثها مستشترات الى العلى تفل العقاص في مثنى ومرسل
بل من يقدم اليوم على قبض مفاعيلن الاولى من احد شطري الطويل
كما جاء في الشطر الثاني من بيت امرئ القيس بأخر لفظة «عقاص» — ومثله
قول طرفه :

أمن كالأواح الاران نصاتها على لاحب كأنه ظهر برجد
وقول الشنرى وقد قبضها في الشطر الاول

غدا طاوياً بعارض الريح هافياً يحقوت باذئاب الشباب ويمسل
ولا تخلو قصيدة من شعر الجاهليين من مثله . جاز لم ذلك لنغمة كانت لم
في تلاوة الشعر يضيع معها الفرق في الطويل بين مفاعيلن ومفاعلن . وليست
للمولدين تلك النغمة الا في شيء من انشاد اهل العراق ويضارعهم بها الفرس في
انشاد الشعر العربي والفارسي اذ يمرثون على ياء مفاعيلن مرّاً خفيفاً فلا يشعر
بجذفها اذا حذفت وقد يسكنون اللام ولا حرج

وقد ضبط العروضيون جوازات الشعر ولكن لكل ناظم ضعفاً من وجه
فتكثر استباحته في ضروب لا يستبيحها غيره ويمتنع الواحد عما لا ينكره الآخر .
ولهذا رأيت ان اذكر ما انكرت وما لم انكر من تلك الجوازات :
استجبت صرف ما لا ينصرف حيث اقتضاه الوزن بلا تكلف الى منعه

قصرتم الممدود قليلاً ولم استبح مد المقصور مطلقاً
لم اصل المقطوع الا بهزة ان بعد لو ولم افطع الموصول الا في اول
الشطر وهذا قليل جداً

لم اشدد المخفف . ولم اخفف المشدد الا اذا كان حرف قافية
لم اسكن المتحرك الا في ضمير الغائب والغائبة بعد الواو كما في « وَهَوَ »
و « هَي » ولم احرك الساكن الا حيث وجب تحريكه في الدرج للقاء
الساكنين او في القافية لاطلاقها . او ما جاز تحريكه على الاطلاق كاللم
اللاحقة بالضمير نحو « نَمُ » و « كَمُ »

لم اجنب تحريك العلم المنادى اذا اقتضاء الوزن
لم استعجز اخلاس حرف في ما سوى « انا » وحروف العلة الساقطة
طبعاً بدرج الكلام قبل الساكن كالواو والياء في « اولوا الحكمة » و « ذوي العلم »
لم اشيع الا ما جاز اشباعه كهاء الضمير الغائب الساكن ما قبلها نحو منه
او وجب كلفاء المذكورة المتحرك ما قبلها نحو « به »

سكنت في موضع او موضعين السين الواقعة في آخر العلم الاعجمي نحو
او ذيس تجارة لمن يحسب ان هذا الحرف مع ملازمته لاكثر تلك الاءلام يصح
اعتباره حركة بنفسه

واما ما فرط في كلام العرب من غريب المسوغات كمنع صرف المتصرف
وتذكير المؤن وتأنيث المذكر وفك المدغم فيجب ان يعتبر شاذاً ولا يجوز ان
يقتدى بشيء منه

عيوب القافية وسنادها

لا حاجة بي الى تقييد عيوب القافية كالاكفاء والاجازة والاقواء والاصراف
فان صغار الطلبة لا يجهلون في قوافي القصيدة الواحدة بين « فالخ وشانخ » او « كمين
وعميد » او « رجل وحمل » او « راس ونفس » وانما اقول كلمة في السناد

ففيه ما يجب نبذُهُ مطلقاً كسناد التأسيس في الجمع بين المؤسّس وغير المؤسّس كأن تكون قافيةُ «بتصبر» وأخرى «يتظاهر» . ومنه المكروه وإن ورد قليلاً في شعر البلغاء كسناد الاشباع أي الجمع في القوافي بين نحو «مكارم» و«تفاقم» باختلاف حركة الدخيل

ويقرب من هذا سناد الرّدف وهو أن يكون بيت مردفاً بحرف علة وآخر غير مردف كالجمع بين «قوم» و«حلم» وهو أكثر وروداً في الشعر الصحيح ومنه الجائز الشائع وهو سناد الحدو وسناد التوجيه أي اختلاف حركة ما قبل الروي بين الفتحة والضمّة والكسرة نحو «قدّم» و«قدّم» و«قدّم» وهذا النوع الأخير كثيرٌ في كلام النوايع من المتقدمين والمتأخرين ومع هذا فقد اجتنبت في تعريب الالبّاذة جميع أنواع السناد جائزها ومكروهها

تكرار القافية

وأما تكرار القافية فليس من مذهبي وإن أجازهُ العروضيون . فلم استجبه في النظم ولم أكرر قافيةً واحدةً في كل الالبّاذة بلفظها ومعناها طالّت القصيدة أو قصرت . ولا يستثنى من ذلك إلا حيث تكررت الايات في الاصل ووجب اعادة العبارة بنصّها أو حيث كانت النظم رجزاً أو متقارباً مصرعاً فهناك كل بيت قائم بنفسه تنقطع القافية بانتهائه فإذا اتفق تكرارها بعد ايات فكأنما هي واقعة في قصيدة أخرى

التجنيس

لم أنوح التجنيس في شيء من النقل بل ربما نبذته إذا ظهر منه ثقل أو تكلف فانه أسمع شيء في الشعر إذا تسقطه الشاعر تسقطاً قال لي صديق من علّة الادباء وقد جرى امامه ذكر البيت القائل:

باللهنا لا تطعمن في مصر في عنهما فضلاً بما في مصر في

هذا بيت لشاعرٍ تفاخر به الشعراء فوالله لو خيّرت بين أن أشق أو

يُنسب لي هذا البيت لاخترت الشنق . يثبتك هذا بمبلغ الانقباض الذي تحدته
في النفس امثال هذا التكلف . ومع هذا فقد أثبت ما جاء عنوا في الكلام بلا
تلّس مثال ذلك : (ص : ٧٦٢)

بهما التور عن الارض ارتفع وغمام السبر بالتور سطم
وحباب القطر في اكفافه كحُبوب الدر للارض وقع
ذلك هو النهج الذي آلت على نفسي ان انهجه في كل الكتاب واني ابرأ
الى الله من العصمة فاذا فرطت مني فارطة على خلاف ما ذكرت فانما تلك هفوة
زل بها القلم وجل ربك ولي العصمة والسداد

ضروب النظم في التعريب

بقي عليّ نعمة لهذا الباب ان اذكر ضروب النظم التي جريت عليها في تعريب
الكتاب : —

رُبَّ من ترجوبه دفع الاذى عنك بأتيك الاذى من قبله
فقد يأتي الضرر من حيث يُرجى النفع فان اتساع القوافي في اللغة العربية من
جملة اسباب التضيق على الشعراء اذ معها طال الشاعر باعاً فلا يأتي على عدد
معلوم من الايات حق بكاد يستنزف القوافي السائفة ولهذا كان من المستحيل نظم
الالوف المولفة على قافية واحدة . وهذا من جملة اسباب ضعف الشعر القصصي
في العربية . واذا فرضنا وجود قافية تتسع لمثل هذا المجال فالاذن تملّ توالي
النفمة الواحدة لأطيب الالخان . فهذه تائية ابن الفارض الكبرى وقل من
يقرأها مع ان حفاظ شعره يعدون بالالوف كما ابتأ في موضع آخر . واذا لجأنا
الى الرجز في مثل هذا السياق الطويل فلدينا من سائر البحور ما يفوقه جزالة في
بعض المواضع وقوة في مواضع اخرى

زارني صديق من نوابغ شعراء العصر وقال بودي نظم الحادثة التاريخية
الفلانية وهي تستغرق نحو خمسمائة بيت في سياق واحد وانه ليعز عليّ ان التزم

قافيةً لمثل هذا العدد ولا أحب ان انظمها رجزاً والمقام لا يؤذن بتقطيعها
قصائد . قلت وما قولك لو جعلتها نشيداً مسجعاً او مثنأ لا تستعيد القافية فيها الا
مرة كل بضعة ايات فتخللها قوافي اخرى تطيب لها نفس القارىء فلا يماها
ويتسع لك المجال فتخلص من العسف والتكلف فاستحسن واظنه فعل
ولهذا نوتت النظم على طرق شتى متبعا للخطبة التي تقدم بسطها ومراعيا
لكل ضرب من ضروب النظم مقاماً حسبته بنطبق عليه وربما قطعت النشيد
قصائد مختلفة وربما نظمته قصيدة واحدة . ووسعت لنفسي في استنباط ضروب
غير مطروقة ولكنني لم اخرج بشيء منها عن اصول الشعر واللغة .
فاستعملت النظم الشائع من قصائد وتغانيس وارجيز وساكت مسالك اخرى
دعوتها باسماء رأيتها تنطبق عليها وهي :

المثنى

وفيه تبنى القعيدة على قافية يرجع اليها في كل بيتين مرة . وعروض البيت
الثاني فيه مطلقة من القافية على نحو ما اصطاح عليه المتأخرون في الرباعي او
الدوينت الاعرج ومثاله : (ص : ٣٨٩)

لو ترأصت والمعراج استطارا	ونجيع الدماء سال وفارا
ونبصرت بابين تيلدليس لم	تذر اي الجيشين منه اغارا
مستشيطا ينقض فوق الاعادي	بنهب السهل بين عاد وغارا
كخليج يضيق بالسيل نجرا	ه فيستأصل الجسور الكبارا

وهكذا الى آخر القصيدة

المرثع

ومثاله : (ص : ٥١٥)

كسا الفجر وجه الارض ثوباً مزعفرا	وزفس ابوالاهوال في ارفع الدررى
على قمة الأولب تصني مهابة	لمنطقه الارباب ألف تحضرا

فقال: «لِيَعْلَمَ كُلُّ رَبٍّ أَوْ رَبَّةٍ بِمَا الْيَوْمَ فِي صَدْرِي فَوَادِيَ أَمْرٍ
فَلَا يَنْبِذَنَّ الْأَمْرَ عَصِيْلًا أَدْعُوهُ لَا تُنْزِلْ مَا أَمْرَتْ أَمْرًا مَقْدَرًا
لِنَصْرَةِ أَيْ الْقَوْمِ مِنْ يَمْرِ مِنْكُمْ يَا وَبْنَ مَنْكُوبًا يَخْضُتْهُ الدَّمُ
وَالْأَفْنِ شَمَّ الْأَلْبِ بِرَاحَتِي إِلَى الظُّلُمَاتِ الدُّهْمُ يَلْقَى وَيُرْجَمُ
إِلَى حَيْثُ أَبْوَابُ الْحَدِيدِ قَدْ اسْتَوَتْ عَلَى عَتَبِ النُّوْلَازِ وَالْقَعْرِ مُظْلَمٌ
إِلَى هَوَاةٍ بَيْنَ الْجَحِيمِ وَبَيْنَهَا مَجَالٌ كَأَفْصَى الْجَوْعِ عَنْ اسْفَلِ الثَّرَى
وَالْتَمَنَ أَوْ الْمَرْبَعِ الْمَسْمُوطِ

ومثاله: (ص: ١٠١٤)

فَضِيضُ الْجَيْشِ مَذْدُورًا هَزِيمًا كَالظُّلُمِ نَفَرًا
إِلَى الْيُونِ حَيْثُ هُنَاكَ حُلْفُ حِمَارِهِ أَنْحَصَرَا
يُجَفِّفُ فِي ظِلَالِ قِلَاعِهِ عَرَقًا بِهِ سَجَتْ
كَتَابُهُ وَيُرْوِيهِ غُلَّةٌ فِيهَا قَدْ اسْتَعْمَرَا
وَرَاءَهُمُ الْإِخَاءُ وَالْجَوَاشِ فِي عَوَانِقِهِمْ
جَرَوْا لَكِنْ هَكَطُورًا تَرَبَّصْ يَرْقُبُ الْقَدْرَا
لَدَى أَبْوَابِ إِسْكِيَا فُضَاهِ الثُّؤْمُ ثَبَطَهُ
وَبَابُنْ أَبَاكَ أَفْلَوْنُ أَحَدُ يَصْدُقُ الْخَبْرَا:

«عَلَامَ وَأَنْتَ مِنْ بَشَرٍ جَرَيْتَ تَجِدُنِي أَثَرِي
أَتَجِبِلُ أَنِّي رَبٌّ فَتُرْتُ بِلَاهِبِ الشَّرِّ
تَرَكْتَ هُنَاكَ طُرُودًا تَفَرُّ إِلَى مَعَاظِلِهَا
وَجِئْتَ هُنَا فَلَا لَانَ تَفُوزُ تَعْسَتْ بِالظَّفْرِ
فَلَسْتُ بِهَائِلٍ أَبَدًا» فَقَالَ أَخِيْلُ مُتَقَدِّمًا:
«أَزْجَاجُ السَّهَامِ وَشَرُّ آلِ الْخُلْدِ وَالْكَبِيرِ
أَرَى أَنَا بَيْنِي عَنْ سُورِهِمْ مَكْرًا وَالْأَكْمَرِ

فنىَّ عضَّ الحضيض قُبَيْلَ ما بحصاره استترا
والموشح المسبَّح

ومثاله : (ص : ٩٣٣)

ما اشتمل الفجر بثوب الجساد من يمة يبرز فوق البلاد
يرمقه معبودها والعباد
حتى انبرت دون الخلايا تيس في تحف الرب هفست تيس
فابصرت آخيل فوق الثرى معانقاً فطرقل واري الفؤاد
يشق بالعبرة هامي الجفون وحوله اصحابه بسدبون
وسطهم حلت بتلك الشجون
وبده اجترت وقالت : « ألا مما طما الخطب وطم البلاد
دع ثم فطرقل على الترب اذ في قدر الارباب بالغيب باد
والموشح المثخن

ومثاله : (ص : ٤٥٧)

سار مكطور حثيثاً وأنى باب إسكية والزآن طليل
فتلقته نساء وبنات منه علماً لتقصى سائلات
عن بنين واخوان ثقات
وبعول وأخلاقاً فامر ان يبادرن على ذاك الاثر
ويصلين لارباب البشر
علماً تدفع عنهن الاذى ولزاهي قصر فزبام مفي
هو صرح شيد بالفتح الجميل فوق ابواب رواق مستطيل
خممه صف بديع المنظر غرف قد بنيت بالمرمر
كلها خمسون ملئس الحجر

لبنى فريام شيدت مضجعا وثوت ازواجهم فيها بها
 ويحاذين صفاً رفعا
 فيه بالابناس والرغد ثوى مع كل ابنة الصهر الخليل
 وفيه المنظومة مبنية على قافيتين وهما هنا الالف المقصورة واللام كما ترى وله
 لازمة في اوله يبنى عليها وتؤسس قافيته في ختام الدور الاول بيتين واما في سائر
 الادوار فبيت واحد

والموشح المردف

ومثاله : (ص : ٧٣٥)

كان نسطور لدى كأس الشراب مصفياً يسمع عجا واصطخاب
 فلما خاؤون قال : « أفكر فما علة يفجم عن فزع الحراب
 حول تلك الفلك فتبان الوحي نقمهم يعلو مدي لا تبرحها
 واشرب الخمر صرناً ربنا هيكميذا لك تحمي المسبحا
 وتنقي الجرح من هذا الخضاب

وانا ماضٍ ارى ماذا جرى بالسرى وأقتال نرساً اكبرا
 كان نرسيميد قد غادره مؤثراً نرساً أيه نسطرا
 وعلى رُمعٍ طويل قبضا بسنانٍ قاطع صُفراً اضا
 والى الباب عدا مستشرقاً فله لاج القضا ايضاً قضا
 يبنى الاغريق قد جل المصاب

والمستطرد

وهو ما تبنى القصيدة فيه على قافيتين فاكثر يرجع الى كل واحدة منها
 كلما استطرد الى الموضوع الذي قيلت في اوله . مثال ذلك تعاورة اخيل وفيكس
 (ص : ٥٦٨) بخطاب اخيل بقصيدة سينية من المثنى :

قال أخيل : « يا أذيسُ المؤانسُ لي فاسمعُ فاني لا الأبنُ
لي مقالُ فلنُ احولنُ عنه فعيهِ واطرحنُ عنك الوسوسنُ
من يقلُ غيرَ ما تيقنُ فكرا كان عندي من الجحيم اشرا
فالذي قد اسررتُها كم جهارا لجميع الاغريق لستُ بنا كسُ
وجواب فينكس بقصيدة رائية من المثنى ايضا :

فاستتم الحديث والقوم طرا بوجوم خالوا التصا مرا
ثم فينكسُ والدموع هوام لاشتداد الوبال قال مصرا
« ان تكن عن تحدثم واحتداد راغباً عن لقاء جيش الاعادي
وطلبت المآب يا ابني المدهى كيف التي على بعادك صبرا
وهكذا فكلما تكلم احدهما رجع الى قافيته . وقد يقع هذا الاستطراد في غير
الخطاب والجواب كان يكون بين الخبر والانشاء او غير ذلك مما يقلضيه المقام

مصرع المقارب

وعلاوة على ذلك استحسن تصريع المقارب كما فصلت في الفقرة الاولى من
النشيد السادس بعد المطلع الآتي :

خلت ساحة الحرب من كل رب فنعج العجاج بطعن وضرب
فمن سيمويس الى زئش فراع السيف ومد القسي

مصرع الرجز ومقفاه

وجعت في النشيد الثالث والعشرين بين مصرع الرجز ومقفاه التصريع
الانشاء والتقنية للخطاب وانبت هذا النسق في كل النشيد المذكور



اللياقة والشعر العربي

الشعر القديم

لقد يُعجز الباحث في تاريخ الشعر العربي ان يرجع بحثه الى ما وراء قرن قبل الهجرة . وان معظم ما عراه بعض الكتاب الى من تقدم ذلك العهد ليس الا من باب التخرُّص فلا يصحُّ وضعه موضع ثقة بل يجب نبذه والحكم بانه انما وضع لتتمة حديث او تميم رواية . وكان فطرة العرب الشعرية تدفعهم الى ترصيع كل رواية من رواياتهم بايات ينقلونها من حيث تسر لهم النقل وان اعيانهم ذلك عمدوا الى وضع شيء مما تجود به فرائضهم . ولذلك كانت جميع نأليفهم مشحونة بالشواهد الشعرية مما يجوز الحكم بصحة نقله وما لا يجوز . فاذا ساغ لنا الآن ان نقول بصحة ما أخذ الشعر الجاهلي الحديث من المهمل بن ربيعة الى زهير بن ابي سلمى انه قيل في زمن كان فيه الشعر في ابانه وسوق عكاظ في ريعانها والحفاظ والرواة منبثون كسلاك البرق يدوتون وينقلون ويحوصون على اذخار مسموعهم وتحفظهم والقراءة مألوفة والكتابة معروفة والشعر ينزل يُحمد عليها فيُخزَن اختزان الدر المنضود . ومع هذا فان بعضه لا يخلو من النقد والشبهات . ولكن من لنا بدليل واحد يثبت صحة اسناد الشعر المروي عن شعراء القبائل البائدة وكما أنها من طسم وجديس وعاد وثمود . ومن ذا الذي يثق اليوم مثلاً ان مهدي الكاهنة هي القائلة يوم انذرت قوم عاد بالهلاك :

اني ارى وسط السحاب نارا	تنثر من ضرامها الشرارا
يسوقها قوم على خيول	تهتف بالاصوات والصهيل
وهي عذاب يال عاد فاعلموا	فوحّدوا الله لكي ماتسولوا
ثم استجبروا بالنبي هود	نبي رب واحد معبود
فقد اتاكم عن قريب داهية	فليس تبقي منكم من باقية

اقطُ نطقٍ يثلها قوم عادٍ بل هي

ازاء الشعر العربي المنسوب الى
ثم الى الملائكة وابليس واشباه
ان يتكلف عناء الاشارة
، العرب عموماً قد انكروا على
يم ابن عباس « من قال ان

الطبيعة الى التطلع الى اصل
مر يمشوا في اصله وجعل كل
نائل منهم اوّل من هذبه عدي
بالمهلل لانه اوّل من هلمل
م الى ان اول شعراء العرب
الى ما وراء ذلك الزمن باحساب
ثمود وقيل بل حمير وامثال هذه
العقل ويعجز النقل عن اثبات

، فلا يثبت مطلقاً ان العرب لم
يعتهم وطبيعة بواديهم وحواضرهم

دنا لعهد اسجره وقبلها بقرنٍ على ما دنا عليه قبل عشرات من القرون .
فقد يصحّ الفرض ان النهضة الشعرية كانت تنفاوت ارتقاء وارتقاء بين زمن
وزمن ولكنه لا يصح القول ان جذوتها لم تلتهم الا لهذا العهد القريب .
فارثاء بلاغة الشعر متقدم على ارتقاء بلاغة النثر اللازمة الافكار الشعرية

للفطرة البشرية . واذا كان الشعر مدوناً قبل اللياذة بعصور في لغات الهنود
والمصريين وبلادهم معقّلة بقيود الحضارة فما بالك بالعرب وهم في بداهتهم
وجاهليتهم يطوفون في عالم الخيال فلا قيد ولا عقل يطرقون البوادي والقفار
فينقرون فيها على ماشاؤهم الاوتار ويسامرون النجوم فلا يسر الجوّ عنهم شيئاً من
بهائها وهم جميعاً بين هائم وهاجع وهاجم ومدافع ومنافر ومفاخر وكل تلك
الاحوال تهيج السليقة الشعرية حتى في الأئدة الخاملة . وهم هم اليرم في باديتهم
اولئك الرعاة الغزاة منذ النبي عام والشعر على تغير لغته وزوال اعرابه ما زال
انيسهم وسيرهم في الحل والترحال وسيظل كذلك الى ما شاء الله .

طموه

لا ريب بعد ما تقدم ان الشعر العربي القديم درّس اثره وطمّس خبره
وان ما يُنقل منه لا ياتنا حديث الوضع من نغزعات الكتّاب . ولعله يأتي زمن
يتوصل فيه الباحثون في عاديّات الایام الخوالي الى اكشاف شيء مما قد يكون
عاقبته لغرض . ولكن افتراض حصول ذلك قليل الجدوى بالنظر الى لغة
الشعر العربي من عهد شعراء الجاهلية المعروفين حتى يومنا . لانه اذا وجد شيء
من الشعر الراقي الى ما فوق القرن الرابع للميلاد فانما يكون بلغة غير لغة امرئ
القيس واذا كانت لغة اصحاب المملكات ونظائرها يُشكل فهمها على معظم قراء
العربية مع جميع القيود التي قيّدت بها اللغة من عهدهم فما يكون مبلغ فهمنا
من لغة تلك العصور ولا ضابط لها ولا قيد

عكاظ

وهو معلوم ايضاً ان منطوق لغة العرب كان يختلف وبتباعد بتباعد الجبال
ولهذا كثرت المترادفات في اللغة العربية الى ما لا نظير له في لغة اخرى . ولا
طال الامد على تلك اللوحى ولم نغم سوق عكاظ لبانت لغة الغرب لغات لا يتفاهم
اصحابها واتصلت كل منها عن الاخرى انفصال العربية عن شقيقتها العبرية

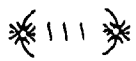
والسريانية . فلما عظم شأن السوق المكاظية واخذ الشعراء يؤثرونها من اطراف البلاد يتناشدون فيها ويتنافسون كان معظم مهم انقاء الالفاظ الفصيحة المشهورة عند اكثر القبائل طمعاً بكثرة المستحسنين لشعرهم فاشتركت الالفاظ وعمت التعابير المألوفة بين الجميع فالتقت اللغة شر التفرق وامنت الفاظها من التبعض بين شتيت القبائل

وقد كان ذلك شأن العرب في اختيار الفصح من الكلام في نظائر عكاظ كذي المجاز في الجمالية ومربد البصرة في الاسلام

القرآن ولغة قریش

اذا ثبت ان لمكاظ ونظائرهما فضلاً في تقيص الفاظ اللغة فانفضل العظيم في استحيائها واستبقائها انما هو للقرآن فهو الذي احكم تراكيبها وابدع في تنسيق اساليبها وصعد بالبلغة الى اوج مراقبها . بل هو الذي جمع جامعتها وهذب عبارتها . ولما ارتفع منار الدين الاسلامي كانت اللغة العربية تنتشر بانتشاره على وتيرة واحدة في مشارق الارض ومغاربها . ولا عبرة بما كان يعتور لغة العامة من الركّة والكنة بمخالطة الاعاجم وبعدها عهد الحزم الغدير من المالية العربية بالانقطاع عن اصولها . فان القرآن كان ولا يزال رائد الكتاب يرجعون اليه في مواضع الاشكال ويمثلون ببارته ويتفهمون ببلاغته فكان من مجزئه حفظ اللغة العربية الفصحى على اسلوب واحد منذ ثلاثة عشر قرناً مع تفرق حفظتها وتشتت المتكلمين بها

وفضل القرآن على الشعر العربي يكاد يفاهي فضله على لسان العرب لان بلاغة التعبير تهيج الفطرة الشعرية سواء كانت العبارة نثراً او شعراً . ولهذا كثر لفظ القائلين في اوانل الاسلام ان القرآن كلام شعري . فجاءت الآية بتكذيبهم (وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقرآن مبين) فلذلك اجمع ائمة العرب على ان الشعر لا يعد شعراً ما لم يكن مقصوداً بالوزن . فان جاءت العبارة



موزونة على غير قصد فليست من الشعر في شيء . وامثال ذلك كثيرة في القرآن والحديث . فمن الآيات القرآنية « من كان منكم مريضاً او على سفر » و « واخرجت الارض اثقالها » و « لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا مما تحبون » ومن الحديث « هل انت الا اصبعٌ دُمِيت وفي سبيل الله ما لقيت »

وانَّ للافرنج اسلوباً ثرياً في الكتابة يتمدون فيه تقيق العبارة بما لا يجوز اتيان مثله في النثر البسيط ويتوخَّون فيه اثاره العواطف والخوض في عالم الخيال ومذهبهم فيه بخلاف مذهب العرب اذ يعدُّونه من فنون الشعر وان تجرَّد من القالب الشعري ولم يقصد به الوزن والتقفية

واذا كان اللسان العربي خلواً بعرف العرب من هذا النوع من الشعر فان في القرآن من البلاغة ما لم يجتمع له نظير في نثر ولا في شعر . فلا غرو اذا ان يكون هو الناهض بهذا اللسان تلك النهضة التي وطدت اركان فصاحته وهذبت مقول الشعراء حتى اُربت بلاغة التركيب وجزالة اللفظ في شعر المخضرمين والمولدين ممن اُكثروا من تلاوته وسماعه على مثله في شعر من تقدمهم من فحول الشعر الجاهلي — قال ابن خلدون « وكلام الاسلاميين من العرب اعلى طبقة في البلاغة من كلام الجاهلية لانهم سمعوا القرآن وحفظوه وهو في اعلى طبقة من البلاغة وحفظوا الحديث ايضاً . ولذلك نجد شعر حسان والحطيئة وجربير والفرزدق وذوي الرمة والاحوص وبشار البلغ من شعر امرئ القيس والنابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير ونحوهم »

وخلاصة القول ان لغة الأعراب في البادية ومنطوق سائر العرب في حواضرهم ما زالوا يتراوحن بين الصعود والهبوط والقارب والابتعاد حتى هذَّبهما شعراهما عكاظ واتى القرآن فكان فيه القول الفصل والمنهج التويم والحجة الكبرى والاساس الوطيد

واذ كانت عكاظ بين نخلة والطائف في الحجاز ولقریش الحجاز منزلة

لأنما دلتها منزلة بين العرب ولم سدانة الكعبة كان الشعراء الوافدون من اليمن وبادية الشام وهضاب نجد وبرق تهامة وسائر أطراف البلاد العربية يشبهون جهدهم بلغة قريش المضربة وكانت اذ ذاك اللغة المعول عليها بين أكثر قبائل الحجاز ونجد فقيوت وما لبثت ان فازت بالقلبة في منظوم الشعراء . ثم جاء القرآن فأحكمها ذلك الاحكام الذي يدهش له الاعجمي فضلاً عن العربي وشعر ما سواها من لغات سائر القبائل في الثر والشعر الا بقية من الاصول النحوية والاصطلاحات التركيبية

وكانت لغة قريش تزداد رسوخاً في اذهان الشعراء وشيوخاً بين العرب كلما دانت قبيلة منهم بالدين الاسلامي بعد سماع آي القرآن ولا سيما بعد ان قام الشعراء القرشيون فأخذوا باطراف البلاغة فكان لم القيدح المعلى في الشعر كما كان لهم من قبل في رفعة القدر

وهو غير خاف انه كان لقريش بصراً في الشعر في الجمالية ومع هذا فلم تكن لم فيه مقامات عالية ولم يرتفع شعراؤهم بطبقته الى طبقة نوابغ الشعراء من سائر القبائل لان العرب كانت تفر لم بالتقدم في كل شيء الا الشعر . ولما استنهضتهم بلاغة القرآن واقبلوا على النظم واجادوا فيه ايما اجادة ونبع منهم الفحول كعمرو بن ابي ربيعة كبيرهم والحارث بن خالد المخزومي والعرجي وابو دهبل وعبيد الله بن قيس الرقيات اقرت لم العرب بالشعر ايضاً

واما سائر قراء العربية والمتكلمين بها بعد حين من ملل الاعاجم من دان بالدين الاسلامي او انتشرت بينهم قبائل العرب فما عرفوا الا لغة القرآن والحديث وما تبهما من كتب الفقه وعلم الكلام مما استمدت جميعاً منهما ومعظم ذلك من لغة قريش . واذا رجعنا الى علم النحو الذي يقوم عليه عماد التركيب والتعبير في اللغة راينا انه انما طشاً بفضل القرآن لانه وضع قبل كل شيء لضبط اقراءات القرآنية . ثم لما كتبت اسفار اللغة وسائر العلوم العربية وغير العربية كان القرآن والحديث مرجعاً للاستدلال على صحة التعبير واحكام التركيب وضبط

المتدرات فكانت لغة قريش في كل ذلك هي اللغة السائدة فحفظها الشعراء واصبحت في شعر المخضرمين والمؤلفين انفي منها في شعر ابناء الجاهلية اذ قل الخليط فيها من سائر لغات العرب وهكذا صارت لغة جميع كتاب العربية من عرب واعاجم ولا عبرة بما طرأ عليها من الخلل والانحطاط وزوال الاعراب بين عامة المتكلمين بها فان الفساد بتطرق بمرور الزمان الى كل لسان . وحسب العربية مزينة على سائر اللغات الحية انه ليس يبين لغة غيرها حفظت اصول شعرها وكتابتها منذ اربعة عشر قرناً وبقيت واحدة في جميع اطراف الارض بين العرب وغير العرب والمسلمين وغير المسلمين

مقابلة

بين لغة قريش المضربة ولغة اللياذة اليونانية

وكيف عاشت الاولى وتلاشت الثانية

قد يفهم من عنوان هذا الفصل اننا لا نقصد فيه المقابلة بين لساني العرب واليونان بالنظر الى ما بينهما من الصلة او الشبه والاختلاف في المنشأ والوضع والاشتقاق والتركيب فتلك امور ليس هذا موضع البحث فيها . ولكنه لا بد لنا من النظر الى سبب تلاشي لغة اللياذة لئلا يسير من استحكمها وبقا لغة قريش حية طول هذا الدهر

ان سنة النمو والتحول وتفرع الاصل الواحد الى اصول شتى تشمل اللغات كسائر المخلوقات . فقد قلنا ان لسان العرب في الجاهلية تفرق الى فروع كاد كل منها يقوم لغة بنفسه ويمتنع النفاذ بين اصحابه فجاء القرآن وازال الخلاف واثق عرى الارتباط فسادت اللغة القرشية . وهكذا كانت لغة قدماء اليونان فروعاً كثيرة مرجعها الى فرعين كبيرين الدوري واليوني يتكلمهما سكان قلب بلاد اليونان ومستعمراتهم في صقاية وبعض بلاد ايطاليا وغيرها فها بمشابهة

لغة نجد عند العرب مع ما يتبعها من اطراف الحجاز . ويلحق بها فرع ثالث هو الايولي وكان لغة فريق من سكان اسيا الصغرى وتاليا وتوابعا فنشأت فنداروس وثيوكريش كانت باللغة الدورية ومنظومات هوميروس وهسيودس كانت باللغة اليونانية . وان بين اللغتين على تقاربهما فرقا يضا في نظيره بين لغات جنوبي الحجاز . ونجد واليمن . وكلما كانت تمتد فتوحات اليونان ويكثر الاختلاط كان يطرأ على تينك اللغتين تغير يبعدهما عن وضعهما وكان كل من الشعراء والكتّاب ينطق بلغة زمانه ومكانه حتى باتت لغة كل من بني الفرع الواحد تميز عن الاخرى بالتعبير والتركيب . فاللغة اليونانية مثلاً هي التي نطق بها هوميروس في أخريات القرن التاسع ليلاد . وهي التي كتب بها ثوكيذيدس وهيرودوتس في القرن الخامس وديموستينيس في القرن الرابع ومع هذا فالفرق بين لغتهم ولغته غير يسير بل قد تجد فرقا بين لغة ابناء كل قرن وآخر حتى لقد ذهب كرتيوس في تاريخ اليونان الى انه في زمن الاسكندر لم يكن يحصل التفاهم بين المكдонيين واليونان . وقال فلوطرخوس ان فيلبس وابنه الاسكندر جنحا الى ايشار لغة جبرتهما على لغة قومهما فعدلا اليها في بلاطهما وبطانتهم

وعلى الجملة فقد ظل هذا التغير يتعاظم حتى باتت اللغة اليونانية الحديثة لغة قائمة بنفسها ولما اصول بعضها اقرب الى اللغات الحديثة منها الى لغة اللياذة . ولهذا ترى نوايح كتاب اليونان المعصرين مع شدة ما بهم من الغيرة على احياء اللغة اليونانية القديمة والتشبه بها في بعض ما ينشئون لم يغفهم كل ذلك عن نقل اللياذة هوميروس واشباهها بالترجمة الى اللغة اليونانية الحديثة فكأنهما لغتان منفصلتان

واما العربية فليس هذا شأنها فان اصول اللغة ما زالت على ما نطق به شعراء الجاهلية وغاية ما يشكل فهمه على قراءها مفردات لم تألفها العامة ومترادفات متشابهات وتماير غير مأنوسة في عصرنا ولكن التباعد بين لغات العامة تحصور في الكلام العامي . فالحجازي واليميني

والنجدي والعراقي والمصري والسوري والمغربي وان اختلفت مصطلحاتهم في كل قطر من اقطارهم فهم جميعاً يكتبون بلغة واحدة على اصول لا تختلف شيئاً بين اقليم واقليم . وجميع هذه الاصول مبنية على اصول لغة القرآن

وان اختلاف منطوق العامة غير خاص بالعربية بل هو يتناول جميع اللغات الحية حتى اذا نظرت الى ارقاها كالفرنسية والانكليزية رأيت فوقاً يتنوّ في كلام العامة بين منطوق ابناء قطر وقطر وان اتحدت اصول اللغة الفصيحة بين جميع الناطقين بها من ابناء تلك اللغة وغير ابنائها . واذا رجعنا بالتخصيص الى اليونانية الحديثة رأيناها على توحّد لغتها الكتابية متشعبة فروعاً بمنطوق عامة ابنائها فلهذا اثينا لغة اكرت وكلتاها تختلفان عن لغات ساقس وقبرس وجزر الارخبيل واسيا الصغرى

وخلاصة ما تقدم ان اللغة العربية اطول اللغات الحية عمراً واقدمهن عهداً والفضل في كل ذلك للقرآن . فاللياذة وبلاغتها وسائر منظومات هوميروس وهسيودس على علو منزلتهما لم تقم اللغة اليونانية دعامة ثابتة حتى في بلادها ولم تقو على مقاومة التيار الطبيعي ولكن القرآن وطّد اركان لغة قريش في بلادهم واذا دعا في جميع البلاد العربية وسائر البلاد التي طال فيها عهد الاحتلال الاسلامي او كثرت مخالطة العرب الضاربين في اقطار الارض للجهاد والتجارة

اطوار الشعر العربي

او طبقات الشعراء بالنظر الى ازمانهم ومزية كل طبقة منهم

هذا بحث لو تعمّدنا الافاضة فيه لاضطررنا الى التثبت من احوال كل عصر من عصور العرب والنظر في شؤون الشعراء وطرائقهم وفنونهم ومناحي نظمهم والرجوع الى مرامهم في شعرهم وطرق معاشهم وبيان انواع اقتباسهم من الاعاجم واقتباس الاعاجم منهم بالنقل والملازمة الى غير ذلك مما يؤدي الى تدوين سفر طويل . ومع هذا فلا بد من ان نلمّ بالموضوع المأماً اجمالاً لئلا

بنوتنا استجماع اطراف الحديث الذي توخيناه . وعسى ان يكون لنا في مستقبل الزمن متسع لاعادة النظر فيه او ينهض اليه باحث من ادبائنا فيلجئه من جميع ابوابه ويوفيه حقه بما لا يتيسر في هذا المقام

من الكتاب من يقسم الشعراء بالنظر الى ازمانهم الى ثلاث طوائف او طبقات اولها شعراء الجاهلية ثم المخضرمون وهم الذين ادركوا الجاهلية والاسلام . ثم المولودون وهم سائر الشعراء . ومنهم من يزيد طبقة رابعة وهي طائفة المحدثين فيحصر المولدين في فئة قليلة من ابناء اوائل الاسلام كالقرزوق وجبرير والاخلط ويحمل جميع من اتى بعدهم في عداد المحدثين

واننا نأحون في بحثنا نحو اصحاب التقسيم الاخير بالتسمية دون الترتيب ومستدركون ما يجب استدراكه لاختلاط الطبقات الثلاث الاولى بعضها ببعض وواضعون حداً فاصلاً بين كل طائفة واخرى وباحثون في تماسك هذه الحلقات واسباب ترقى الشعر العربي حيناً من الدهر ثم انحطاطه في كلام المحدثين حتى ايام النهضة الاخيرة غير مغفلين في كل ذلك اوجه المقابلة مع منظوم صاحب الألياذة

النهضة الجاهلية

ليس بالامر السهل تعيين الزمن الذي بدأت فيه نهضة الجاهليين لاندثار منظوم الشعراء مما تقدم على الشطر الاخير من القرن الخامس للميلاد او ما تقدم على الهجرة بقرن ونصف قرن . على انه لا ريب ان النهضة الجاهلية المتصلة بالاسلام بدأت قبل الهجرة بقرنين او اكثر لاننا اذا قرأنا شعر المهلهل والشنفرى والمثقب العبدى والبراق بن رَوْحان وغيرهم ممن تقدم على الهجرة زهاء قرن وربع او ما يُنيف رأينا فيه من البلاغة وحسن الانشاج ما لا يجوز الحكم معه انهم كانوا في طليعة شعراء العرب بل لا بد من ان يكونوا نسجوا على منوال نوابغ سبقهم . ولكن لنا من وجه آخر مساعاً للحكم ان تلك النهضة لم تستحكم الا

الاباظة والشعر العربي — الحد الفاصل بين الجاهليين والمخضرمين * ١١٢ *

في القرن الاول قبل الهجرة ولم تبلغ اوج علاجها الا في سنة عقود من السنين الملاصقة الاسلام . ودليلنا على ذلك ان شعر معظم المتأخرين في الجاهلية كليلد ابن ربيعة وزهير بن ابي سلى وعنترة العبسي والاعشى والنابغة الذبياني ارفى من شعر معظم المتقدمين عليهم في الزمن كالبراق وابي دؤاد والحارث بن عباد وامثالهم . ولا يضعف هذا الحكم نبوغ بعض المتوسطين بين الفريقين كامرئ القيس وطرفة بن العبد والحارث بن حلزة الشكري وعمرو بن كلثوم وغيرهم ممن لاصق الاولين ونبغ في منتصف القرن السادس للميلاد فكانوا نبراس تلك النهضة وقادة زمامها اذ يتيسر لنا بهذا الاعتبار ان نعين زمن استحكام النزعة الشعرية في نحو ذلك العهد اي سنة ٥٣٢ للميلاد او قبل الهجرة بنسعين عاماً وهو زمن نبوغ امرئ القيس اول ابناء الفريق المتوسط بين متقدمي الجاهليين ومتأخريهم

وعما يؤيد هذا القول ان كتاب العرب قسموا الشعراء الى طبقات باعتبار جودة الشعر كما قسموا الى طبقات بالنظر الى التاريخ فجعلوا اصحاب الطبقة الاولى من متأخري الجاهليين ومتوسطيهم كاصحاب الملقات جميعاً والنابغة والاعشى الاسدي وعدي بن زيد وعبيد بن الابرس وامية بن ابي الصلت . وعدوا سائر من تقدمهم في الطبقة الثانية الا المهمل فانهم اختلفوا بين ان يكون من الثانية او الاولى

الحد الفاصل

بين شعراء الجاهلية والمخضرمين

اذا حسبنا لا تحكام النزعة الشعرية الجاهلية تسعين عاماً وجعلنا طليعتها امراً القيس فاننا نجسب لطور الشعر الجاهلي بأمره مئة وخمسين عاماً اولها سنة ٤٧٢ للميلاد وآخرها سنة الهجرة النبوية وزعيم جنده عدي بن ربيعة الملقب بالمهمل . وهو معلوم ان بعض شعراء الجاهلية ادركوا صدر الاسلام وماتوا

في زمن النبي كرهير وهو الذي قيل فيه ان النبي نظر اليه يوماً وعمره مئة سنة فقال اللهم اعذني من شيطانه قيل فما قال بعد ذلك شيئاً من الشعر . ومنهم من مات في زمن الخلفاء الراشدين كممرو بن معدي كرب . ومنهم من عمّر حتى انقضت دولة الراشدين وقامت دولة بني امية كلييد المتوفى في خلافة معاوية وعمره على ما قيل مئة وخمس واربعون سنة . فامثال هؤلاء يحصل الاشكال في تعيين طبقتهم فتلتبس بين طائفتي الالاهيلين والمخضرمين

وقد قيل في تفسير المخضرم هو من ذهب نصف عمره في الالاهلية ونصفه في الاسلام . او هو من ادرك الالاهلية والاسلام على الاطلاق تشبيهاً بالنافاة المخضمة التي قطع طرف اذنها كأن ما ذهب من عمره في الالاهلية ساقط لا يعتد به . وقل من ينطبق عليه القول الاول من فحول شعراء الالاهلية كلييد العامري الذي عمّر طويلاً في الالاهلية والاسلام . واما الذين ادركوا الالاهلية والاسلام فكثيرون كرهير والخنساء والحطيئة ممن نبغ في الالاهلية وابي ذؤيب الجملي وكعب بن زهير وحسان بن ثابت ممن نبغ في الاسلام . ولهذا نظر البعض في تعيين الطبقة الى القرب والبعد من الاسلام فكان زهير عندهم جاهلياً ولييد مخضرمًا وربما وضعوا لييد في طبقتين فقالوا هو جاهلي ومخضرم . وعندنا انه اذا صح احد هذين القولين بالنظر الى الشاعر وصفته فلا يصح شي منهما بالنظر الى الشعر وصفته . والا لوجب ان نجعل معظم المخضرمين في طبقة الالاهيلين ايضاً فتختلط الطبقتان مع ان لكل منهما مزبة خاصة بها على ما سنبينه في ما يلي

فلذلك وجب اعتبار الصبغة الشعرية في اقوال امثال هؤلاء فمن قال الشعر قليلاً في الاسلام او لم يقله عدّ جاهلياً كرهير ومن ربا قوله في الاسلام بعد ان اسلم وحفظ القرآن ككعب ابنه فهو مخضرم . ويقال مثل ذلك في حسان ابن ثابت شاعر النبي فهو زعيم المخضرمين وان قضى نصف عمره في الالاهلية وقال فيها الشعر الحسن

على انني لا اعلم باي مساع 'يعدّ' لييد والخنساء من المخضرمين . فاما لييد

اللياذة والشعر العربي - الحد الفاصل بين شعراء الجاهليين والمخضرمين * ١١٩ *

فان جميع شعره ولا سيما نه لفته من لباب الشعر الجاهلي ولم يرووا له في الاسلام
الا بيته القائل :

الحمد لله اذ لم يأتني اجلي حتى لبست من الاسلام سربالا
وقيل ان الخليفة عمر استشهده ايام خلافته من شعره فانطلق وكتب سورة
البقرة في صحيفة ثم اتى بها وقال : ابدلني الله هذه في الاسلام مكان الشعر
فسر عمر بجوابه واجزل عليه العطاء

واما الخنساء فجميع شعرها قبل الاسلام وبعده نخر ورثاء ونفسه واحد
وصبغته واحدة وكله جاهلي ولا وجه لعدتها بين المخضرمين الا ان نحسب من
الشعر حماسياتها النثرية المسجعة كقولها لابنائها يوم وقعة القادسية : يا بني انكم اسلمتم
طائعين . وهاجرتم مخنارين . والله الذي لا اله الا هو انكم لبنو رجل واحد كما
انكم بنو امرأة واحدة . ما هجنت حسبكم . ولا غيبت نسبكم . واعلموا ان الدار
الآخرة خير من الدار الفانية . اصبروا وصابروا وربطوا وانقوا الله لعالم تفلحون .
فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها . وجلت ناراً على ارواقها . فتيموا وطيسها .
وجالدوا رئيسها . تظفروا بالمغنم والكرامة . في دار الخلد والمقامة

فان في هذا الكلام مسحة من بلاغة المخضرمين ولكننا قد قدمنا ان العرب
لا تعد هذا الكلام من الشعر في شيء لانه غير مصوغ في القالب الشعري
وان كانت معانيه شعرية . فالخنساء وليد وامثالها في عرفنا يجب ان يعدوا من
شعراء الجاهلية بالنظر الى شعرهم وان صح ان يحسبوا من المخضرمين بالنظر الى
امتداد حياتهم

وهو ثابت ايضا انه في اوائل الاسلام حصلت فترة في الشعر فاسكتت
الشعراء ثم هبوا اليه هبة جديدة وبسوه ثوباً ثيباً . قال ابن خلدون : ن
الشعر كان دبوراً للعرب فيه علومهم واخبارهم وكان رؤساء العرب ينادسون فيه
وكانوا يفتنون في سوق عكاظ لانشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول
الشبان واهل البصر حتى انتهوا الى المناظرة في تعليق اشعارهم بآركان البيت الحرام

تم انصرف العرب عن ذلك اول الاسلام بما شغلهم من امر الدين والنبوة والوحي وما ادشهم من اسلوب القرآن ونظمه فسكتوا عن الطلوس فيه زماناً ثم استقر ذلك واونس الرشد في الملة ولم ينزل الوحي في تحريمه وسمعه النبي واثاب عليه فرجعوا الى ديدنهم منه »

فهذه الفترة التي ذكرها اين خلدون وغيره من مؤرخي العرب هي الحد الفاصل بين الطور الاول والطور الثاني من اطوار الشعر العربي . فجميع ما تقدمها شعر جاهلي ويلحق به قليل مما تاخر عنها من قول شعراء الجاهلية الذين ادركوا الاسلام واسلموا وبقي شعرهم على صفتة الجاهلية الصرفة كهبة بن العائيب كما سنبت في الفصل التالي بايراد مثال من شعره في الاسلام

الطبعة الاولى

او شعراء الجاهلية

خاض العرب في الجاهلية عباب بحر الشعر وولجوا كل باب من ابوابه فوصفوا وترسلوا وتغزلوا ومدحوا وهجوا ورثوا ودنوا الاخبار وضرَبوا الامثال ووضعوا الحكم وتناقروا وتفاخروا وشاعزهم مندفع في كل ذلك بسائقة الطبيعة يفكر في محسوس بين يديه . ومنظور امام عينه . وعاطفة بين جنبه . وشعيرة تخرج في صدره . وصورة مرسومة في مخيلته منعكسة عن طرق معيشته وفطرته . لا يتطاع الى ما وراءها ولا يتكلف الزخرف والتنيق

وكانوا يسدون قولهم نحو كبد الحقيقة فلا يخطئونها ويقولون الشعر عن شعور حي ولا يخطئون الى ما وراء مشهودهم ومعقولهم فجاء شعرهم مثلاً صادقاً لبدائيتهم وحضارتهم . حتى لو اندثرت جميع اخبارهم وانارهم وما بقي الا شيء من شعرهم لتيسر للباحث ان يستخرج منه وصفاً كاملاً لجميع احوالهم كما استخرج الباحثون كثيراً من غوامض جاهلية اليونان من شعر هوميروس

ويسري هذا الحكم على جميع شعراء الجاهلية من عبدة الاوثان واليهود والنصارى ومن ادرك الاسلام واسلم او لم يسلم . وهم في ذلك سواء في اليمن ونجد والحجاز والعراق وبوادي الشام وسائر اطراف بلاد العرب . فالشاعر منهم إما بدوي عريق في البداوة واما حضري لاصق بانباء البادية وكلاهما متخلف باخلاق الجاهلية ينزع الى رسم الحقيقة رسماً ناطقاً . فاذا روى حادثة بسطها بسطاً جلياً والم بها المأماً واضحاً يفنيك عن التقرص والتعقيب نظير ما فعل هوميروس في ايراد كل حوادثه . واليك مثلاً قول المهلهل بعد وقعة السلاء اذ حضرها مع اخيه كليب وفرّ ابن عنق الحية من وجهها :

لو كان نامٍ لابن حية زاجراً	لنهاه ذاً عن وقعة السلاء
يوم لنا كانت رئاسة اهل	دون القبائل من بني عدنان
غضبت معد غثها وسمينها	فيه ممالة على غسان
فأزالم عنا كليب بطنة	في عمر بابل من بني قحطان
ولقد مضى عنها ابن حية مذبراً	تحت العجاجة والخنوف دوان
لأ رآنا بالكلاب كأننا	أسد ملوثة على خفان
ترك التي سمعت عليه ذبولها	تحت العجاج بذلة وهوان
ونجا بهجته وأسلم فومه	متسربلين رواعف المرائ
يمشون في حلق الحديد كأنهم	جرب الجمال طلين بالقطران
نعم النوارس لا فوارس مذبح	يوم المباح ولا بنو همدان
هزموا العداة بكل اسم مارين	وهندي مثل الغدير يمان

واذا وصف شيئاً فانه يستجليه على علته ويستتم تبيان حالته على طبيعته كقول عبدة بن الطيب يصف ناقته ويشبهها بالنور الوحشي المتذعر امام الكلاب:

نرى المعصى مشفراً عن مناسمها كما تجأجل بالوغل الغرايل^(١)

(١) المشفرا المتفروق . ويججل يجرّك فيذهب دفاقه ويوقى بجلاله . والوغل الردي

كَأَنَّهَا يَوْمَ وَرَدِ الْقَوْمِ خَامِسَةً مَسَافِرُ أَشْعَبِ الرُّوقَيْنِ مَكْحُولٌ^(١)
تَجْتَابُ نَصْعٍ جَدِيدٍ فَوْقَ نُقْبَتِهِ وَلِلْقَوَائِمِ مِنْ خَالٍ سِرَاوِيلٌ^(٢)
مُسْفَعُ الْوَجْهِ فِي أَرْسَاعِهِ خَدَمٌ وَفَوْقَ ذَلِكَ إِلَى الْكَمْبَيْنِ تَحْجِيلٌ^(٣)
بَاكِرُهُ قَانَصٌ يُسَمَّى بِأَكْلَيْهِ كَأَنَّهُ مِنْ صِلَاءِ الشَّمْسِ مَمْلُولٌ^(٤)
يَأْوِي إِلَى سَلْفَعٍ شَعَثَاءَ عَارِيَةٍ فِي حُجْرَاهَا تَوَلَّى كَالْقِرْدِ مَهْزُولٌ^(٥)
يُثْلِي ضَوَارِيَّ أَشْبَاهًا بِجَوَّةٍ فَلَيْسَ مِنْهَا إِذَا أُمْكُنَّ تَهْلِيلٌ^(٦)
يَتْبَعُنْ أَشْعَثَ كَالسَّرْحَانِ مُنْصَلَّتَا لَهُ عَلَيْهِنَّ قَيْدُ الرِّمَحِ تَمِيلٌ^(٧)
تَقْضِيهِنَّ قَبِيلًا ثُمَّ هَاجَ بِهَا سَفْعٌ بِأَذَانِهَا شَيْنٌ وَتَنْكِيلٌ^(٨)
فَاسْتَثَبَتِ الرُّوعَ فِي النَّاسِ صَادِقَةً لَمْ تَجْرِ فِي رَمْدٍ فِيهَا الْمَلَامِيلُ^(٩)

- (١) الخاتمة واردة الخمس . والمسافر الخارج في أرض إلى أخرى وأراد به الثور الوحشي . وأشعب الروقين الذي انشعب قرناه
- (٢) المجتاب اللابس . والنصع الأبيض . شبه الثور لبياضه . بلبس ثوب أبيض . ونقبتة لونه . والخال برود فيها خطوط سود وحر
- (٣) السفعة سواد يضرب إلى الحمرة . والخدم جمع خدمة وهي الخماخال
- (٤) مملول أي كأنه منشوي في ملة وهي الرماد الحار
- (٥) يأوي أي الصائد إلى أمراته . والسفع الجرثومة . البذنة . والتولب ولد الحمار شبه ابنها به
- (٦) يثلي يدعو . والضواري الكلاب المضرة . والتهليل أن لا يصدق الجملة يقال قد هلّ الفارس إذا قصر
- (٧) يعني الكلاب . وأراد بالاشعث القانص . والسرحان الذئب . والمنصلت المنجرد في امره . وقيد الرمح قدره
- (٨) السفع السود . قوله بأذانها شين أي آذانها مقطعات ببرائتها وذلك لقولم أن الكلاب إذا عدا فاجتهد في عدوه قطع أذنه بمغالبه لدنوها منها
- (٩) أي لما نظر الثور إلى الكلاب قد هاجت به ثبت الرُّوع في عينه لما عاينه .

فانصاعَ وانصعن يهنوكها سدرِكُ^(١) كأنهن من الضمير المزاجيلُ^(١)
 فانقضَّ ينفض مدريَّين قد علقا تخافوض غمرات الموت تخذولُ^(٢)
 شروى شبيهين مكروباً كموُهما في الجنبتين وفي الاطراف تأسيلُ^(٣)
 كلاهما يبتغي نهك القتال به ان السلاح غداة الرّوع محمولُ^(٤)
 يخالس الطعن إيشاغاً على دهش بسلبِ رَغْه في الشأن ممطولُ^(٥)
 حتى اذا مضى طعنًا في جواشنها ورَوْقه من دم الاجواف معلولُ^(٦)
 ولَّى وصُرِّعَ من حيث التبسَن به مضرَّجاتٌ باجرأحٍ ومقتولُ^(٧)
 كأنه بعد ما جدَّ النجاة به سيف جلا حده الاصناع مسلولُ^(٨)

وقوله صادقة اي صلبة صحيحة النظر لا تكذبه . والملايلُ جمع ملمول وهو المكحالُ يريد انه لم يكن بعينه رمد يجري له فيها ملمول

(١) يهنو اي كأنه يطير فوق الارض من الخفة . وانصاع اخذ ناحية .
 والسدك الملازم . يقول كل الكلاب ملازم للثور لا يفارقه . والمزاجيل المزاريق يُزجل بها

(٢) اي فاهتز الثور حميةً وانفًا من الفرار من الكلاب . والمدريان القرنان .
 وعلقا صلبا . وتخذول اي لا عون له

(٣) شروى الشيء مثله . وقوله شبيهين يعني القرنين شبيههما بالرتعين .
 والمكروب الشديد الفتل واصل ذلك في الجبل ثم قيل لكل ممثلي شديد مكروب .
 واراد بالجنبتين الجنبين . والتأسيل الاستواء والطول

(٤) كلاهما اي كلا القرنين . والنهك الشدة والاستقصاء .
 (٥) اي يطعنهما نخالسةً لكثرتها . والايشاغ الخفة . والسلب الطويل .
 وسنخ الشيء اصله . والشأن ملتقى كل فيلتين من قبائل الرأس الرابع .
 والممطول الممدود

(٦) مض اوجع واحرق . والجواشن الصدور . والمعلول الذي سقي الدم مرة

مُسْتَقْبَلُ الرِّيحِ يَهْفُو وَهُوَ مُبَارِكٌ لسانه عن شمال الشدق معدول^(١)
 يخفي الترابَ باطلاً ثمانية في اربع مسهن الارض تحليل^(٢)
 له جنابان من تقع يثور ره ففرجه من حصى المعزاء مكاول^(٣)
 وهذا الشعر وان كان مقولاً في اوائل الاسلام فقائله جاهلي وليس في
 شعر ابناء الجاهلية ما يفوقه تمثيلاً لنزعتهم الشعرية . ومثله قول بشر بن عوانة
 في الاسد :

افاطم لو شهدت بطن خبت وقد لاقى المزبر أخاك بشرا^(٤)
 إذا لرأيت لنا زار لنا هزبراً أغلباً لاقى هزبراً^(٥)
 تهنس ثم اجهم عنه مهري تحاذرة فقلت عقرت مهراً^(٦)
 أنل قدمي ظهر الارض افي رأيت الارض اثبت منك ظهراً
 وقلت له وقد أبدى انصالاً تحذرة ووجهاً مكفهراً

بعد مرة أخذ من اللال وهو الشربة الثانية وانما قال دم الاجواف لان الثور
 نعمد مقاتل الكلاب

(١) المبتوك المعتمد في سيره لا يترك جهداً . وقوله مستقبل الريح يستروح
 بها جوفه لحرارة التعب

(٢) يخفي التراب يستخرجه لشدة عدوه . وقوله مسهن الارض تحليل اي على
 قدر تحلة اليمين كأنه اقسم ليمسن الارض

(٣) الجنابان الناحيتان يقول قد ارتفع له من جانبيه غبار من شدة عدوه .
 والمعزاء الارض ذات الحصى اي انه اشد عدوه يرد الحصى على فرجه فكأنه
 اكليل له وهذا غاية شدة العدو

(٤) اخطت المطمئن من الارض وفيه رمل . والمزبر الاسد

(٥) الاغلب من صفات الاسد للمبالغة في الغلب

(٦) تهنس بتختر

بكنكبن غيلةً إخذى يديه ويسطُ للوثوبِ عبياً أخرى
 يدلُ بمخلبٍ وبجدرٍ نابٍ وبالعظا تَحسِبَن جِراً
 وفي يُنْأِي ما في الحدِّ أبى بمضربه قراعُ الموتِ أثراً
 ألم يلفك ما فعلت ظباهُ بكاطمة غداة لقيتُ عمراً
 وقلبي مثلُ قليك ليس يخشى مُصاولةً فكيف يخافُ دَعراً
 وأنت تزومُ الأشبالِ قوتاً واطلبُ لأبنةِ الاعمامِ مَهراً
 ففيمَ تسومُ مثلي أنْ بُولِي ويجعلُ في يدك النفسَ قسراً
 نصحتك فالتس يا ليثُ غبري طامعاً أن لحمي كنت مرّاً
 فلما ظن أن النفسَ نصحي وخالفني كأنني قلتُ هُجراً
 مشى ومثيتُ من أسدين زاماً مرأماً كنت إذ طلباهُ وغراً
 هرزتُ له الحسامُ نفلتُ أني سملتُ به لدى الظلاء فجراً
 وجدتُ له بجائشة أرنه بأن كذبتهُ ما منتهُ غدراً^(١)
 واطلقتُ المهند من يميني فقد له من الاضلاع عشراً
 فخرٌ مجدلاً بدمٍ كأنني هدمتُ به بناءً شمشعراً
 وقلتُ له يمزُّ عليَّ أني فقلتُ مناسي جلدًا ونفراً
 ولكن رمت شيئاً لم يرمه سواك فلم أطق يا ليث صبراً
 تحاولُ أن تعلمني فراراً لعمري ابيك قد حاولتُ نُكراً
 فلا تجزع فقد لاقيت حراً يحاذر ان يعاب فت حراً
 فان نكُ قد قُلت فليس عاراً فقد لاقيت ذا طرفين حراً

وهذا هو بالنفس نسق هوميروس في استنمام مزاياء موصوفاته . وان هذه
 الافاضة في التمثيل ضعفت كثيراً في شعر المخضرمين ومن وليمهم

(١) الجائشة النفس . يتهمكم على الاسد ويقول اظهرت له اني جدت له بنفسي
 ولكن نفسي كذبت تلك الامنية وفُتكت به

وقد كان ذلك اسلوب الجاهليين في جميع ما مثلوه بشعرهم مما يتناول احوال الحرب والسلم والعادة والخلق والمعيشة في الاقامة والتسيار واذ كان محسوسهم خشناً ومطالعاتهم غير ممتدة كثيراً الى ما وراء الحروب واخبار القبائل كان معظم شعرهم في ما وافق ذلك المحسوس وتلك المطالعات فأفاضوا في وصف البوادي والقفار واكثروا من وصف معيشتهم واحوالها ومدح الكرم والوفاء وقرى الضيف واسهبوا في ذكر ما لديهم وحواليهم من سلاح وخيل وابل وما اشبه من معدات زمانهم ومكانهم ومع هذا فان لغتهم وان كان فيها شيء كثير من خشونة معيشتهم فقد كانت منسعة للغرام والحكم الرائعة والحاسة ووصف الشعائر والاخلاق فتلك جميعها امور منطبعة في فطرة الجاهلي انطباعاً في نفوس اعرق الخلق في الحضارة . بل ربما كانت اصنى وانقى في اذهان ابناء البادية . فاي شعر في الفخر والحاسة اسمى من قول السموال :

اذا المرء لم يبدنس من اللوم عرضه	فكل رداء يرتديه جميل
وان هو لم يحمل على النفس غيماً	فليس الى حسن الثناء سبيل
تعيرونا انا قليل عديدنا	فقلت لها ان الكرام قليل
وما قل من كانت بقايا مثلنا	شباب تسمى للعلى وكهول
وما ضرنا انا قليل وجارنا	عزيز وجار الاكثرين ذليل
لنا جيل يحمله من نجبره	منيع يرد الطرف وهو كليل
رسا أصله تحت الثرى وسما به	الى النجم فرع لا ينال طويل
هو الابلق الفرد الذي شاع ذكره	يعز على من رame و بطول
وانا اقوم لانرى القتل سبة	اذا مارأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا	وتكرمه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حنف أنفه	ولا طل يوماً حيث كان قتيل
تسيل على حد الظبات نفوسنا	وليست على غير الظبات تسيل

صفونا ولم نكدُرْ واخلص سرّنا
علونا الى خير الظهور وحطنا
فنحن كماء المزن ما في نصابنا
ونكر ان شئنا على الناس قولم
اذا سيد منا خلا قام سيد
وما اُخمدت نار لنا دون طارق
وايماننا مشهورة في عدونا
واسياننا في كل شرق ومغرب
معوذة ان لا تسل نصالها
سلي ان جهلت الناس عنا وعنهم
فان بني الريان قطب لقومهم

واي قول في الحكمة احسن من قول زهير :

وأعلم ما في اليوم والامس قبله
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
ومن لا يصانع في أمور كثيرة
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
ومن بك ذا فضل فيجزل بفضل
ومن يوف لا يذم ومن يهد قلبه
ومن هاب اسباب المنايا ينلته
ومن يجعل المعروف في غير اهله
ومن يعص اطراف الزجاج فانه
ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه
ومن يفترب يحسب عدواً صديقه
ومن لم يزل يسترحل الناس نفسه

ولكنني عن علم ما في غد عم
نمته ومن تخطى يعمر فيهرم
يضرر بأنياب ويوطأ بنسم
بفره ومن لا يتق الشتم يشتم
على قومه يستغن عنه ويذم
الى مطمئن البر لا يتعجم
وان يرق اسباب السماء بسلم
يكن حمده ذماً عليه ويندم
يطيع العوالي ركبت كل لئيم
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ولا يعنها يوماً من الذل يندم

ومهما تكن عند امرئ من خليفة
وكانت ترى من صامت لك محجبة
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده
وان سناه الشيخ لاحم بعده
سألنا فأعطيت وعدنا وعدتم
واليك مثلاً في الغزل من بنية
بسطة رابعة الجبل لنا
حرّة تجلو شتيتاً واضحاً
صقلته بقضيب نافر
ايض اللون لذبذا طمه
تمنح المرأة وجهاً واضحاً
صافي اللون وطرفاً ساجياً
وقروناً سابغاً اطرافها
هيج الشوق خيال زائر
آنس كان اذا ما اعتادني
وكذاك الحب ما اشجعه

وان خالها تحق علي الناس تعلم
زيادته او نقصه في التكلم
فلم يبق الا صورة اللحم والدم
وان الفتى بعد السفاهة يحلم
ومن أكثر التسلل يوماً يحرم
ويبد بن ابي كاهل الشكري :

(١) فوصلنا الجبل منها ما اتسع
(٢) كشعاع الشمس في النسيم طمع
(٣) من أراك طيب حتى نفع
(٤) طيب الربق اذا الربق خدع
(٥) مثل قرن الشمس في المعوار تنع
(٦) اكحل العينين ما فيه فنع
(٧) غللتها ريج مسك ذي فنع
من حبيب خفي فيه قدع
حال دون النوم في فامتنع
يركب الهول ويعمي من وزع

(١) الجبل بمعنى الوصل او العهد والميثاق . وما اتسع اي بقدر امتداده

(٢) الشيت الشجر المنفلج

(٣) اراد بالقضيب الناضر المسواك

(٤) يقال خدع ريقه اذا تغير

(٥) الساجي القليل التحرك . والتمع كد في لم الموق

(٦) القرون الذوائب . وغللتها دخلت فيها . والفنع الكثرة

(٧) الخمر الحياء . والقدر الرد يقال قدعته اي رددته

فَأَيَّتَ اللَّيْلِ مَا أَرْقَبُهُ وَبَعِينِي إِذَا نَجْمٌ طَلَعُ^(١)
وَإِذَا مَا قُلْتُ لَيْلٌ قَدْ مَضَى عَطَفَ الْأَوَّلُ مِنْهُ فَرَجَعُ
يَسُجُّ اللَّيْلُ نَجْمًا مُظْلَمًا فَتَوَالِيهَا بِطَيِّثَاتِ النَّبْعِ
وَيَزَجِّبُهَا عَلَى ابْطَائِهَا مُغْرِبَ اللَّوْنِ إِذَا اللَّوْنُ انْقَشَعُ^(٢)
فَدَعَانِي حُبٌّ سَلَى بَعْدَ مَا ذَهَبَ الْحِدَّةُ مِنِّي وَالرَّيْعُ^(٣)
خَبَلْتَنِي ثُمَّ لَمَّا تَشَفَّنِي فَتَوَادِي كُلَّ أُوبٍ مَا اجْتَمَعُ
وَدَعَانِي بِرُقَاهَا أَنَّهَا تُنْزِلُ الْإِعْصَمَ مِنْ رَأْسِ الْبَيْعِ
تَسْمَعُ الْحَدَاثَ قَوْلًا حَسَنًا لَوْ أَرَادُوا غَيْرَهُ لَمْ يُسْمَعِ
كَمْ قَطَعْنَا دُونَ سَلَى مَهْمَا نَازَحَ الْغَوْرَ إِذَا الْآلُ لَمَعُ
فِي حُرُورٍ يَضْجُ اللَّحْمُ بِهَا يَأْخُذُ السَّائِرَ مِنَّا كَالصَّقْعِ^(٤)
وَمَنْ إِنْ لَمْ يَلْفُوا فِي الْغَزْلِ رَقَّةَ الْمُنَافِرِينَ فَلَهُمْ بِوصفه سُدَاجَةٌ نَقُولُ كَثِيرًا
مِنَ الْمَعْنَى فِي الْكَلَامِ الْقَلِيلِ وَلَا سِيَّامَا إِثْنَاءَ مَزْجِهِ بِذِكْرِ الْحُرُوبِ كَقَوْلِهِمْ فِي مَا يَنْسَبُ
إِلَى عُنْتَرَةٍ:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرِّيحَ نَوَاحِلُ فِي وَيْضِ الْهِنْدِ نَقَطَرٍ مِنْ دَمِي
فَوَدِدْتُ ثَقِيلَ السَّيْفِ لِأَنَّهَا لَمْتُ كِبَارِقَ ثَغْرِكَ الْمَتَسَمِّ
تِلْكَ كَانَتْ عَلَى الْجِلَّةِ مَنَازِعُهُمْ فِي شَعْرِهِمْ وَذَلِكَ هُوَ نَتَاجُ الْقِرَافِ الْجَاهِلِيَّةِ وَانْتِ
فَرَى أَنَّ أَصْحَابَ تِلْكَ الْقِرَافِ لَمْ يَكُونُوا أَبْنَاءَ جَاهِلِيَّةٍ جَهْلَاءَ مِنَ الْجَهْلِ بَلْ مَا أَحْرَامُ
أَنْ يَكُونَ أَطْلَقَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ لِشُيُوعِ عِبَادَةِ الْأَوْتَانِ بَيْنَهُمْ وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ
بِمَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ « اتَّخَذُوا الْجَاهِلِيَّةَ بَيْتُوتَ » إِذْ قَالُوا فِي تَفْسِيرِهَا

- (١) وَيُرْوَى وَيَمْتَنِي أَيِ يَتَعَبَّنِي يَقُولُ إِنَّهُ سَاهِرٌ لَيْسَ يَنَامُ فَهُوَ يَرَاغِي النُّجُومَ
- (٢) الْمَغْرِبُ الْإِيضُ يَعْنِي يَبَاضُ الصَّبْحِ . وَانْقَشَعَ ذَهَبَ . وَيَزَجِّبُهَا يَسُوقُهَا
- (٣) الرَّيْعُ أَوَّلُ الشَّبَابِ
- (٤) الْحُرُورُ الرِّيحُ الْحَارَّةُ . وَالصَّقْعُ حَرَارَةُ تَصِيبِ الرَّأْسِ

اللغة الجاهلية

وقد اوردنا من قولم فضلاً عما تقدم امثلة شتى من مرادفات اقوال هوميروس في شرح اللياذة

ومدة هذا الطور الشعري زهاء مئة وخمسين عاماً . ومن صفوة لقوله امرؤ القيس وطرفة بن العبد والحارثة بن حلزة وعمرو بن كلثوم وعنترة العبسي وزهير ابن ابي سلى وليد بن ربيعة وهؤلاء هم اصحاب الملقات والناطقة الديان والمهلل والاعشى الاسدي وعدي بن زيد وعبيد بن الابرص وبشر بن ابي حازم وامية ابن ابي الصلت والسموأل والثغرى ودريد بن الصمة

ومزجه البساطة والبداية واقتناء الفطرة وتمثيل الحقيقة في رسم الطبيعة . فهو في جميع ذلك اعلى طيعة من شعر المتأخرين من العرب ولا يفوقه شيء من شعر المتقدمين من سائر الأمم حتى اليونان والرومان

الطبقة الثانية

اوشعراء المخضرمين وشعراء الدولة الاموية

علت ان النهضة الشعرية كانت في ريعانها عند ظهور الاسلام فجاء القرآن واسكت الشعراء . وما اسكتهم الا ليزيد نهضتهم استحكاماً وبملاً حوافظهم يلاغنه الغلبة . فاندفعوا اندفاع السيل المنهر واذهانهم ملأى بما اذخرت من الشعر الجاهلي وما ضمت اليه من البلاغة القرآنية فاجتمعت لهم بداهة الفكر وسمو التصوير ودقة التعبير

وقد ألحقت شعراء الدولة الاموية بالمخضرمين اولاً — لان النخبة القرآنية اثارَت نفوسهم اثارها للمخضرمين لقرب عهدهم بها . فنفس حسّان ونفس الفرزدق واحد . وجربير يائزل كعب بن زهير ومثله الاخطل وان كان نصرانياً . بل ربما علت طبقة شعراء الدولة الاموية عن تقدمهم من المخضرمين في البلاغة لشبوبهم عليها وتأملها في نفوسهم

وثانيًا — لان الشعراء كانوا اعزّ نفسًا وارفع شأنًا في الدولة الاموية منهم في الدولة العباسية وما وليها . وسببه ان الدولة الاموية قامت على كره من الفريق الاعظم من المسلمين فكانت في حاجة الى استمالة الشعراء فدلّوا وعزّوا ولم يهينوا كما هانوا بعد ذلك الزمن اذ باتوا يطلبون الزلى نقرًا من الخلفاء وبطانهم طمعًا بنال وجرا لمغن وشتان ما كرامة المتزلف والمترفع . فغسان مدح النبي ولكنه مدحه شغفًا بمنابيه . وتصح المشاكلة بينه وبين الفرزدق في مدح زين العابدين علي بن الحسين ولكنها لاتصح بينهما وبين مدّاح معظم المولّدين والمُحدثين

وثالثًا — لان شعراء العرب حتى اواخر الدولة الاموية لم يالفوا ترف الحضارة المسترّبة اليهم من الرومان والفرس بالمخالطة فبقيت مسحة القطرة الجاهلية ظاهرة في شعرهم فهم والمخضرمون طبقة واحدة لا ينفصلها فاصل

ثم انه بالنظر الى معنى لفظة المخضرم في عرف كتاب العرب لا بنكر اطلاقها على شعراء الدولة الاموية لانهم قد يعنون بها كل متوسط بين عصرين كما اطلقوها على مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية يريدون بهم الذين ادركوا الثانية من شعراء الاولى . فلا بأس علينا بهذا الاعتبار ان نطلقها نوسمًا على شعراء الدولة الاموية لتوسط كثيرين منهم بين الخلفاء الراشدين ودولة بني امية والتضاق الباقيين بهم

فيبقى علينا النظر في المتأخرين من شعراء بني امية الذين ادركوا دولة بني العباس . فامثال هؤلاء يقال فيهم ما تقدم في متأخري الجاهليين الذين ادركوا الاسلام . فمن ربا شعره في دولة الامويين وبقيت فيه صبغة المخضرمين كان مخضرمًا ومن ربا شعره في دولة العباسيين فكان قوله اميل الى الرقة منه الى البلاغة كان مولدًا . ولا يخرج عن هذا التعريف الا نوابغ قليلون كبشار بن بُرْد الذين عاصر الدولتين ولبس الحلتين وفصل من الشعر ما شاء لما شاء فكان من ابلغ المخضرمين بقوله :

إني ظلل بالجزع ان يتكلما وما ذا عليه لو اجاب متيما

وبالجزع آثار يقين وبالوى ملاعب لا يعرفن الا توهما
ومن ارق للولدين شعراً بقوله :
لمست مكنتي كفة ابني الندى ولم أدري الجود من كفة صدي
فلا تات منه ما افاد ذوق النقي أفتت واعداني فانتلت ما عدي
ومثل بشكر في الخضرمين مثل التابضة الجمدي في الجاهليين فتابضة شعراً
جاملي عريق في البدوة . وهو القائل ايضاً :
الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فحسه على
للوح الليل في النهار وفي الليل ل غباراً يفرج الظلم
الحافظ الراجح السام على الارض ولم يبت تنجها دعا
الخالق الباري المصور في الأثر حام ماء حتى يصير دما
وليس في شعر الخضرمين شيء ينطبق على المعاني القرآنية ويقتل بلاغتها

كهنه الايات

وقد كان شعر الخضرمين آية في علو الطبقة ومثاق البك يربو بهما على
ما تقدم عنه وما تأخر من سائر الشعراء . ولكن ببلتهم من الرقي في الحضارة
اضعف ففهم تزعمة المتقدمين التطرية ففصروا فيها عن المتقدمين . ولم يمكنهم
من التأني في المعيشة بما استتب للعرب بدم من مزينات العمران فلم يدركوا
شأوا للولدين بالرفة والتصرف بالمعاني . وفي ما سوى ذلك كان شعراً غاية الغايات
ولا فرق في ذلك بين شعراء النبي والخلفاء الراشدين كحسان بن ثابت
وكعب بن زهير وشعراء الدولة الاموية كذي الرمة وعبيد الراعي بل ربما كان
شعر الدولة الاموية أعرق في البلاغة كما تقدم . وفي ما يلي من امثلة شعراً
ما يؤيد هذا القول

قال حسان بن عبد الله بن قيس :

الله اكبرنا بنصر نبيه وبنا اقام دعاء الاسلام
وبنا اعز نبيه وكتاباه واعزنا بالصرب والاقدام

في كل معترك تطير سيوفنا فيه الجماجم عن فراخ المام -
 بنتابنا جبريل في اياتنا بفرائض الاسلام والاحكام -
 يتلو علينا التور فيها محكمًا قسماً لعمرك ليس كالاقسام -
 فنكون اول مستحل حلاله ونحرم الله كل حرام -
 نحن الخيار من البرية كلها ونظامها وزمام كل زمام -
 الخائضو غمرات كل منية والضامنون حوادث الابام -
 سائل ابا كرب وسائل تبعاً عنا واهل العتر والازلام -
 انا لنمنع من اردنا منعه ونجود بالمعروف للمعام -
 وترد عادية الخميس سيوفنا ونقيم رأس الاصيد القمقام -
 فلئن نفرت بهم لمثل قدمهم نغر الليب به على الاقوام -

ودونك مثالا من مشوبة كعب بن زهير التي مطلعها : بانت سعاد ...
 وقد وجهها الى النبي يعتذر اليه فأنته بعد ان كان اهدر دمه

تسمى الوشاة بجنبيها وقولم انك يا ابن ابي سلى لمقتول
 وقال كل خليل كنت آمله لا ألهينك افي عنك مشغول
 فقلت خلوا سبيلي لا أباكم فكل ما قدر الرحمن مفعول
 كل ابن انثى وان طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول
 انبثت ان رسول الله اوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
 مهلاً هداك الذي اعطاك نافلة لا قرآن فيها مواعيط وتفصيل
 لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم اذن وان كثرت في الاقاويل
 لقد اقوم مقاماً لو يقوم به ارى واسمع ما لو يسمع القيل
 لظل يردد الا ان يكون له من النبي باذن الله تنويل

فقد جمع في هذه الايات القليلة بين الاعتذار والحكمة والملاح والتخبر
 بأبداع اسلوب وابلغ عبارة
 ومن قول الاخطل في العجور :

وكنيت اذا لقيت عييد نيم
لثيم العالمين يسود نيماً
وقد زعم الاخطل انه اجمي العرب يهذين اليتين
ومن امثلتهم في النسيب قول ذي الرمة :

الا يا اسلي باداري على البلى
لما بشر مثل الحرير ومنطق
ولا زال منهلاً يجرعائك القطر
رخيم الحواشي لاهراً ولا تزر
وعينان قال الله كونا فكاتا
فعولان بالالباب ما تفعل الحمز
ومن ابلغ من الامام علي بن ابي طالب اذ قال مبتهلاً لله تعالى :

لك الحمد يا ذا المجد والجلود والعللا
المهي وذلاني وحرزي وموللي
تباركت تعطي من تشاء وتمنع
اليك لدى الاعار واليسر افزع
المهي لئن خيبتني او طردتني
فمن ذا الذي ازجو ومن انشع
المهي لئن جلّت وجهت خطيبي
فنفوك عن ذنبي اجلّ وأوسع
المهي لئن اعطيت نفسي سؤلها
فها انا في روض الندامة ارتع
المهي ترى حالي وفقرتي وفانتي
وانت مناجاتي الخفية تسمع
المهي فلا تقطع رجائي ولا تزع
فوادي نلي في باب جودك مطعم
المهي أجري من عذابك انني
أسير ذليل خائف لك اخضع
المهي فأنسني بتلقين حبيبي
لخيل رجائي منك لا يتقطع
المهي اذا لم ترعني كنت ضائعاً
وان كنت ترعاني فلت أضيع
المهي اذا لم ترف عن غير محسن
فمن لمسيء بالهوس يتنع
المهي لئن قصرت في طلب التقي
فلست سوى ابواب فضلك اقرع
المهي افلني عثرتي وامح حوبتي
فاني مقر خائف انصرع
المهي لئن خيبتني او طردتني
فما حيلتي يارب أم كيف أصنع
المهي حليف الحب بالليل ساهر
بناجي ويكي والمغفل هجم

وكلهم يرجو نوالك راجياً
لرحمتك العظمى وفي الخلد بطمع
الهي يميني رجاء يسه سلامة
وقبح خطيائي عليّ يشنع
وان من اصدق الامثلة علي علو طبقة هذه الطائفة من الشعراء قصيدة
الفرزدق في مدح زين العابدين علي بن الحسين التي قيل ان اهل البيت لم
يمدحوا بمثلاً ولهذا اوردناها بطولها وهي: ^(١)

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا النبي النقي الطاهر العلم
اذا رآته قريش قال قائلها الى مكارم هذا ينتهي الكرم
ينمي الى ذروة العز التي قصرت عن نيلها عرب الاسلام والعجم
يكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم
يفضي حياء وينفض من مهابته فلا يكلم الا حين يتنسم
من جدته دان فضل الانبياء له وفضل امته دانت له الامم
ينشق نور الهدى من نور غرته كالشمس ينجاب عن اشراقها الظلم

(١) قال الفرزدق هذه القصيدة يوم حج هشام بن عبد الملك الاموي
وطاف بالبيت واراد ان يستلم الحجر الاسود فلم يصل اليه لكثرة الزحام فنصب
له منبر فجلس عليه وحوله جماعة من اهل الشام فيبثوا هو كذلك اذ اقبل زين
العابدين يريد الطواف فلما انتهى الى الحجر الاسود تقى الناس له حتى استلم
الحجر فقال رجل من اهل الشام من هذا الذي قد هابه الناس هذه المهابة
فقال هشام لا أعرفه غفافة ان يرغب فيه اهل الشام وكان للفرزدق حاضراً
فقال انا اعرفه وانشد بعد ذلك هذه القصيدة . فغضب هشام وجلس الفرزدق
بصفان فعلم زين العابدين وارسل اليه اربعة آلاف درهم فردها الفرزدق
وكتب اليه انما مدحك بما أنت اهل له فأعادها زين العابدين وقال تعاون
بها على وهرك فاناً اهل بيت النبي اذا وهبنا شيئاً لاستعيده . وقالوا كفى
بالفرزدق ان يكون قال هذه القصيدة حتى يدخل الجنة

مشتقة من رسول الله نبعته
 هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله
 الله فضله قدما وشرفه
 وليس قولك من هذا بضائه
 كلنا يديه غياث عم نعمها
 سهل الخليفة لا تخشى بواده
 حمل اقبال اقوام اذا فدحوا
 ما قال لا قط الا في تشده
 لا يخلف الوعد ميمون نقيته
 عم البرية بالاحسان فانصلت
 من معشر حبيب دين وبفضهم
 ان عد اهل النقي كانوا ائمتهم
 لا يستطيع جواد بعد غايتهم
 هم الغيوث اذا ما ازمة ازم
 لا يفرح النصر بسطان كفه
 يستدفع السوء والبلوى بجهنم
 مقدم بعد ذكر الله ذكرهم
 باي لم ان يحل الدم ساحتهم
 اي اخلاقي ليست في رقابهم
 من يعرف الله يعرف اولية ذا
 طابت عناصره واخلم والشيم
 يجده انبياء الله قد خلجوا
 جرى بذاك له في لوحه القلم
 العرب تعرف من انكرت والعجم
 يستوكفان ولا يعرفهما القدم
 يزبه اثنان حسن الخلق والكرم
 حلو الشائل تحلو عنده نعم
 لولا التشهد كانت لاه نعم
 رجب الفناء اريب حين يعترم
 عنه القتارة والاملاق والدم
 كفر وفريهم منجي ومعتصم
 او قيل من خيرا هل الارض قيل هم
 ولا يدانهم قوم وان كرموا
 والاسد اسد الشرى والبأس تحدم
 سيان ذلك ان اثروا وان عدموا
 ويستزاد به الاحسان والنعم
 في كل بدء ومخوم به الكلم
 خيم كريم وأبدى بالندی عصم
 لاولية هذا او له نعم
 والدين من بيت هذا ناله الام

هذا جل ما يمكن ايراده في مثل هذا الموضع من شعر ابناء هذه الطبقة
 ومزبه كما ترى بلاغة في المعنى ومثانة في التعبير واحكام في التركيب مع
 ميل الى الرقة . وتلك ايضا من مزايا الليادة . فان بلاغة الاصل لاتعوقها
 بلاغة في الكلام اليوناني . فان ظهر نقصير في التعريب فنبعته على العرب دون

المشع . وان فيها من مثانة التعبير ما لا يفوقه شئ في شعر جميع الام ولا سبا في مشاكلة الالفاظ للمعاني وحكاية الاصوات بما اشترنا اليه في مواضعه
ومدة هذا الطور الشعري مئة وخمسة وثلاثون عامًا تبتدىء من الهجرة وتنتهي بقيام الدولة العباسية

وعروة وصله مع الطور الاول او طبقة الجاهليين النابغة الجعدي وامثاله .
ومع الطور الثاني او طبقة المولدين بشار بن برد
وغوله في صدر الاسلام حسان بن ثابت وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحة ومالك بن نويرة والعباس بن مرداس والنمر بن تولب وابو ذؤيب النخعي . وفي عصر الدولة الاموية القطامي والاخلطل النصرانيان وجبرير الخطمي والفرزدق وعبيد الراعي وذو الرمة والكميت بن زيد وارطاة بن سمية والاعشى ابن ربيعة والاعشى التغلبي

الطبقة الثالثة

المولدون أو شعراء عصر العباسيين

قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ للهجرة (٧٥٠ م) والسلطنة الاسلامية موطدة الدعائم مشيدة الاركان وغزاة العرب ضاربون في المشرق والمغرب يقوضون ما تداعى من مباني الفرس والرومان فينبذون الانقاض البالية ويشيدون على اسس الحزم دولة قبيض الله لها ان تكون دولة العزة والسلطان في ذلك الزمان . فامتلات خزائن الخلفاء بكسب المجاهدين وجباية الاموال وتسربت ما فاض منها الى بيوت المقربين وصنائعهم من امير وفقير وعميد وشريد . فذاقوا حلو حضارة الدولتين الهاويتين وتبدلوا مرقعة عمر ذلك الدثار الرث الذي ضم بين رُدينه عماد الاسلام والمسلمين بيزة الخز والدباج . وطلائته من لبن وتمير وابسر الادم بشهي طهام لماظنه الفالوذ والسكجاء . وذلك الرّحل على بغير قارح يمتطيه الخادم والمخدوم وهما سواء في شرع الاسلام بالسروج الموشاة على الجياد المطهمة تحف بها مواكب الحشم والغلمان . فملت القصور

ووشيت الخدور وزها الرياش وانسبط المعاش . والشعراء من افراد تلك الامة
يرقون رقيباً في معارج العمران
زعموا ان شاعراً بدوياً من رعاة الماشية ممن دبّ وشبّ بين الكباش
والنعاج قدم حاضرة عامرة فاكرمه صاحبها فمدحه بهذين البيتين :
انت كالدّلّو لا عدمنك دلّوا من كثير العطا قليل الذنوب
انت كالكلب في الحفاظ على الو د كالنيس في قراع الحروب
فهم بعض اعوان الامير بقتله فقال الامير خلّ عنه فذلك ما وصل اليه علمه
ومشهوره . ولقد توسمت فيه الذكاء فليقم بيننا زمناً وقد لانعدم منه شاعراً جيّداً . فما
اقام بضع سنين في سعة عيش وبسطة حال حتى قال الشعر الرقيق الاخذ بجماع
القلوب وهو في زعم بعضهم صاحب الايات التالية :

يامن حوى ورد الرياض بخده وحكى قضيب الخيزران بقدم
دع عنك ذا السيف الذي جرّده عيناك امضى من مضارب حدم
كل السيوف فواطع ان جردت وحسام لحظك قاطع في غمد
ان رمت لقتلي فانت مخير من ذا يعارض سيداً في عبد
ومهما يكن قدر الصحة من هذه القصة المروية على اساليب مختلفة
فان فيها اشارة بيّنة الى تأثير الاحوال بافكار الرجال وفعل الحضارة بقرائح الشعراء
وهذا كان شأن الشعراء في زمن الدولة العباسية فانهم رتّعوا في ارجاء
ذلك الملك النسيح متربعين بمد شظف العيش على الطنافس الوثيرة في المنازل
الانيقة امام الحدائق الفناء . وخلفاءهم يصعدون بالامة في سلم المدنية يحرسون على
استئثار ذلك الفتح المبين فيدخرون ما تلقوه عن تقدمهم ولا يألون جهداً في
احكامه والقائه حتى يهروا الغرب بما تجمع لديهم من ذخائر السلف النفيسة .
وان التجف الغراء التي كانت هارون الرشيد بنفع بها شارلمان من غرر تلك
الكنوز ومن جملة ساعته التي تلقاها سلطان المغرب آية من الايات لا تبقي
تجلاً للرب في مبلغ الثروة العباسية واستحكام النهضة وريائها من العراق

الى مصر والشام والاندلس وسائر البلاد التي طرقها المسلمون
فلا بدع وكل ذلك مشهود الشعراء ان نشقف اذهانهم ونتروض نفوسهم
ولتسع مداركهم ويرق تصورهم ويمرحوا في روض من الشعر اريض يجولون
فيه جولة لم تتوفر اسبابها لسلفائهم

ولهذا لم يكن لشاعر جاهلي او غنصرم ان يبدع ابداع الرقاشي بقوله :
نبت ندماني الموي في بدمته من بعد اتعاب طاسات واقداح
فقال خذ واسقي واشرب وغن لنا يا دار مشواي بالقاعين فالساحي
فما حسنا ثانياً او بمض ثالثاً حتى استدار ورد الراح بالراح
او يرق رقة ابي نواس بقوله :

ومستطيل على الصباء باكرها في ثنية باصطباح الراح حذاق
فكل شيء رآه ظنه قدحاً وكل شخص رآه قال ذا الساق
فلا ريب ان هذين القولين اوقع في النفس من قول عنتره :

ولقد شربت مع الندامى بعد ما ركد المواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات امزقة قرنت بازهر بالشمال مفدم

فاذا ابدع عنتره بهذا الوصف في زمانه بين قوم يهيمون في الفلوات
على ظهور الابل بين مضارب البادية فانه لا يطرب جلساء ابي نواس والرقاشي
في محافل الانس والمغاني التانق والعيش الرغيد

وقد بلغ المولدون الدرجة القصوى من التصرف بالمعاني وجزالة اللفظ ودقة
السبك فصعدوا بالشعر درجة لم يبلغها المتقدمون وهيبات ان يدركها المتأخرون .
وكان هذا ديدن الفريق الاعظم منهم في جميع الابواب التي طرقوها . فاي
غزل ارق من قول ابي نواس :

حامل الموى تعب يستحقه الطرب
ان يكن يحق له ليس ما به لعب
تضحك لاهية والمحبة ينتخب

كلما انقضى سببٌ منك جاءني سببٌ
تجيبين من سمي صحتي هي العجب
وقول المجتري: كيف اغدو من الصبابة خلوا
قف بها وقفةً نردُّ عليها
ان للبين منةً لا تؤدِّي ويداً في ثماضٍ يضاء
حبيبها حتى بدت لفراقٍ
اضحك البين يوم ذاك وابكي
فجعلنا الدواع فيه سلاماً
وجعلنا الفراق فيه لقاء
ووشئت بي الى الوشاة دموعاً
واي تشبيه ابدع من قول ابن المعتز في القلم:

قلمٌ ما اراده ام فلكٌ يجري بما شاء فاسمٌ ويسيرُ
راكمٌ ساجدٌ يقبل قرطاً
من لي بقلبٍ صينٍ من صخرة
جرحته خداه بلحظي فما
ري بما شاء فاسمٌ ويسيرُ
سا كما قبل البساط شكورُ
في جسدٍ من لؤلؤ رطب
برحت حتى اقتص من قلبي

ومثله قول ابن الرومي في قوس الغمام:

وساقٍ صبيحٍ للصبح دعوته
يطوف بكاسات العفار كأنجمٍ
وقد نشرت ايدى الجنوب مطارفاً
يطر زها نوس السحاب بأخفٍ
فقام وفي أجفانه سنة الغمض
فمن بين منقضٍ علينا ومنقضٍ
على الجود كالأحوالي على الارض
علي احمر في اصفر اثر مبيضٍ
مصبة والبعض انصر من بعضٍ

واي كلام في الملح اطل من قول ابن هاني:

قد طيب الافطار طيب ثنائه
لم تدني ارضك اليك وانما
ورأيت حولي وفد كل قبيلة
حتى توهمت العراق الزاها
من اجل ذا تجد الثغور عذابا
جئت السماء ففتحت ابوابا

ومن ترى اعلى كعباً بالحكمة والزهد من ابي العلاء وهو القائل :

غير مُجدٍ في ملتي واعتقادي	نوح بالكِ ولا ترثم شادِ
وشبهه صوت النعي اذا فيه	من بصوت البشير في كل نادِ
أبكت ناكم الحمامة أم غداً	ث على فرع غصنها الميسادِ
صاح هذي قبورنا غملاً الرء	ب فأين القبور من عهد عادِ
خفيف الوطء ما اظن أديم الـ	ارض الامن هدم الاجسادِ
وقبيح بنا وان قدّم المـ	د هوان الالباء والاجدادِ
سز ان اسطعت في الهوامر وبدأ	لا اخشياً على رفات العبادِ
رب لحد قد صار لحداً مراراً	ضاحك من تراحم الاضدادِ
ودفين على بقايا دفين	في طويل الازمان والآبادِ
فأسأل الفرقدن عمن احسأ	من قبيل وآنسا من بلادِ
كم اقاما على زوال نهارِ	وانارا لمدلج في سوادِ
نعب كلها الحياة فما	جب الامن راغب في ازديادِ
ان حزنأ في ساعة الموت اضعا	ف سرور في ساعة الميلادِ
خلق الناس للبقاء فضأت	أمة يحسبونها للنقادِ
انما ينقلون من دار اعمأ	ل الى دار شقوة او رشادِ
ضجعة الموت رقة يستريح الـ	جسم فيها والعيش مثل السهادِ

ومن ابدع ابداع ابي الطيب بالتصرف بالمعاني وجمع شنائها وبكفيك قوله :

غاب الامير فغاب الخير عن بلد	كادت لفقد اسمه تبكي منابرهُ
قد اشتكت وحشة الاحياء أربعة	وخبرت عن اسم الموتى مقابرهُ
حتى اذا عقدت فيه القباب له	أهل لله باديهِ وحاضرهُ
وجدت فرحاً لا الغم يطردهُ	ولا الصباية في قلب تجاورهُ
اذا خلعت منك حمص لا خلعت ابدأ	فلا سقاها من الوسمي باكرهُ
دخلتها وشعاع الشمس متقد	ونور وجهك بين الخلق باهرهُ

في فيلق من حديد لو قذفت به
تمضي المراكب والابصار شاخصة
قد حزن في بشر في تاجه قر
حلو خلايقه شؤس حقائقه
تضييق عن جيشه الدنيا ولورحبت
اذا تفلن فكر المرء في طرف
تحمي السيوف على اعدائه معه
اذا انتضاها الحرب لم تدع جسدا
فقد نيقن ان الحق في يده
تركن هام بني عوف وثعلبة
نفاض بالسيف بحر الموت خلفهم
حتى انتهى الفرس الجاري وما وقعت
صرفت الزمان لما دارت دوائره
منها الى الملك الميمون طائره
في درعه اسد تدمي اظافره
تجصي الحصى قبل ان تجصي ما اثره
كصدرة لم تبين فيها عساكره
من مجدو غرفت فيه خواطره
كأنهم بنوه او عشائره
الا وباطنه للعين ظاهره
وقد وثقن بأن الله ناصره
على رؤوس بلا ناس مفاخره
وكان منه الى الكعابين زاخره
في الارض من جيف القتلى حوافره

واي حنين اوقع في النفس واعظم ايثارا للعاطفة واصدق رسما لرقعة شعر
المولدين من فراقية ابي الحسن علي بن زريق البغدادي . وان لنا من سمو
معاني القصيدة التالية وجزالة الفاظها عذرا على ايرادها كلها مثالا على شعر النوابع
من ابناء هذه الطائفة : (١)

لا نمدليه فان العذل بولعه قد قلت حقا ولكن ليس يسته

(١) كانت له ابنة عم كلف بها اشد الكلف ثم ارتحل عنها من بغداد لما فقه
علته فقصده ابا الخبير عبد الرحمن الاندلسي في الاندلس ودمحه بقصيدة بليغة
فاعطاه عطاء قليلا . فقال ابن زريق انا لله وانا اليه راجعون ساكت القفار
والبحار الى هذا الرجل فاعطاني هذا العطاء . ثم تذكر فراق ابنة عمه وما بينهما
من بعد المسافة وتحمل المشقة مع ضيق ذات يده فاعتل غما ومات . قالوا
واراد عبد الرحمن بذلك ان يخبره فلما كان بعد ايام سأل عنه فنفقده في
الخان الذي كان فيه فوجدوه ميتا وعند رأسه رقعة مكتوبة فيها هذه القصيدة

جاوزت في نصحه حذاءً اضرب به
 فاستملي الزفق في تأديبه بدلاً
 قد كان مضطجعاً بالخطب يحمله
 يكتنيه من لوعة التشتيت ان له
 ما آب من سفر الأ وأزعجه
 تأبى المطالب إلا ان تكافه
 كأنما هو في حلٍ ومرتحلٍ
 اذا الزمان اراه في الرحيل غني
 وما مجاهدة الانسان واصلة
 قد قسم الله بين الناس رزقهم
 لكنهم كلفوا حرصاً فليست ترى
 والحرص في الرزق والارزاق قد قسمت
 والدهر يعطي الفق من حيث يمنه
 أستودع الله في بغداد لي قرأ
 ودعته وبوديه لو يودعني
 وكم تشفع بي ان لا أفارقه
 وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى
 لا أكذب الله ثوب العذر مخرق
 اني اوسع عذري في جنائنه
 أعطيت ملكاً فلم احسن سياسته
 ومن غدا لاساً ثوب النعيم بلا
 اعتضت من وجه خلتي بعد فرقه
 كم فائل لي ذقت البين قلت له
 هلاً ائت فكان الرشد اجمعه
 من حيث قد رت ان النصيح ينفعه
 من عنفه فهو مضى القلب موجعه
 فضلت بخطوب البين اضله
 من النوى كل يوم ما يروعه
 عزم الى سفر بالرغم يزعمه
 للرزق سعيًا ولكن ليس يجمعه
 موكل بفناء الله يذرعه
 ولو الى السند اضحى وهو يقطعه
 رزقاً ولا دعة الانسان لقطعه
 لا يخلق الله من خلق يضيعه
 مسترزقاً وسوى الغايات يقنعه
 بنفي ألا ان بنفي المرء يصرعه
 عفواً ويمنعه من حيث بطعمه
 بالكرخ من فلك الازرار مطلقه
 صفو الحياة واني لا أودعه
 وللضرورات حال لا تشعه
 وادمي مستهلاًت وادمه
 مني بفرقه لكن ارفعه
 بالبين عنه وقلبي لا يوسعه
 وكل من لا يسوس الملك يخلعه
 شكر عليه فعنه الله ينزعه
 كأساً تجرع منها ما اجرعه
 الذنب والله ذنبي لست ادفعه
 لو انني حين بان الرشك اتبعه

لو انني لم تقع عيني على بلد
يا من اقطع ابائي وانفدما
لا بطمنن بجني مضجع وكذا
ما كنت احسب ان الدهر يبعثني
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيد
وكننت من ريب دهر جازعا فرقا
بالله بامنزل القصر الذي درست
هل الزمان معبد فيك لذتنا
في ذمة الله من اصبحنا منزله
من عنده لي عهد لا يضيع كما
ومن يصدع قلبي ذكره واذا
لا صبر لدهر لا يمتعني
علما بان اضطباري معقب ترجأ
عل الليلي التي اضنت بفوقنا
وان تغل احدا منا منيته
وان يدم ابدًا هذا الفراق لنا
في سفرتي هذه الا واقطعه
حزنا عليه وليلي لست اجمعه
لا يطمنن به مذ بنت مضجع
به ولا ان بي الايام تنجمه
غبراء تمنعني حقى وتمنعه
فلم اوق الذي قد كنت اجزعه
اثاره وعفت مذ بنت اربعه
ام الليالي التي امضته ترجعه
وجاد غيث على مضناك يبرعه
عندي له عهد صدق لا اضيعه
جرى على قلبه ذكرى يصدعه
به ولا بي في حال يتمعه
فاضيق الامران فكرت اوسعه
جسمين تجمعني يوما وتجمعه
لا بد في غده الثاني سيتبعه
فما الذي بقضاء الله نصنعه

وان المقام ليضيق عن الاستزاده من هذه النفائس فان ما اوردها منها ليس الا ذكرا من ذرة

نظرة في شعر المولدين

لم يكن لفريق من الناس ان يدعي الكمال حتى الشعراء . والمولدون مع بلوغهم
من البلاغة واحكام الصنعة اقصى الدرجات فانهم يؤخذون ولا سيما المتأخرين
منهم على مفاخر ترجع الى خلال اربع :

الخلة الاولى اقتضاب الوصف الشعري فلا تبرز الحقيقة جلية على فطرتها
في كثير من شعرهم ويشتتن من ذلك الحكم والامثال وكذلك الابحاث العلمية التي
ليست من لباب الشعر ويندر ان يشاعرا يعمد الى وصف فيستقته ويرسمه

اللياذة والشعر العربي - نظرة في شعر المولدين * ١٤٥ *

رسماً جلياً كاملاً كما رأيت في اسد بشر وثور عبدة . فترى الافكار متزاحمة والمعاني متلازمة في منظوماتهم فتخلل الأجمة بينها وتأقي متراكمة فينوت السامع شيء كثير مما تصوّروه وقصّروا في تصويره . فهم بهذا الاعتبار قد عدلوا عن منزع الفطرة وابتعدوا عن البداهة الجاهلية وتحولت معهم المقاصد الشعرية اذ بات مرمام فيها جرّ المفانم ودفع المفارم

وان كلامنا في كل ذلك اجمالي لا يؤخذ منه خلو شعر المولدين جميعاً من بدائع الوصف التام واجادة التصوير فقد تجدد في شعر المولدين ما يضاوي منى الجاهليين وان رمت مثالا لذلك فاقرأ قصيدة المتنبي التي مطلعها :

في الخلد ان عزم الخليل رحيلاً مطرّ تزيد به الحدود محولاً

الخلّة الثانية . نبذ لهم في المديح حتى جعلوا الشعر صناعة للتكسب ومهنة للاستزاق فكاد يمتن الشعر وتخطط طبقة الشعراء في عيون عطاء الامة . ولو تتبعنا اقوال فحولهم كالبحري وابي تمام والمتنبي لما رأيتهم يتعدى المدح للمحسن اليهم والعياء للممسك عنهم . بل ربما هجوا بمدوحهم ومدحوا معجوزهم طمعاً وتشقياً كما كان شأن المتنبي مع كافور

ولا يستثنى منهم سوى افراد خرجوا ترفعاً عن موقف الذلة والمسكنة اما لسمعة في حالهم ورفعة في درجتهم الموروثة كابن المعتز وابي فراس فذلك من ابناء الخلفاء وهذا من نسل الامراء . واما لحكمة فطروا عليها وأتفة في طباعهم وزهد في نفوسهم كالمرّي وما اقل امثاله بين المتقدمين والمتأخرين . ولهذا كان المرّي يرجع كثيراً في ميزان الرجال على المتنبي وامثاله مع ان الرّجحان بين المتنبي في ميزان الشعراء

الخلّة الثالثة . ابتذل الغزل ووصف الغرام حيث لا يحرك اليه الا التوطئة للمديح . فجاء اكثر ما نظم من هذا القبيل غير مثير للعاطفة ولا مؤثر في النفس وان كثّر فيه الحنين والانين بخلاف ما يقصد به شخص معين كما رأيت في قصيدة ابن زريق

وهو ثابت ان التوضئة بالفزول ليست من بدع المولدين بل هي خطئة درج عليها الشعراء من ايام الجاهلية . على ان الجاهليين لم يبتذلوها ولم يتعمدوها الا في احوال مخصوصة كان يزدان بها شعرهم . ولم يصف شاعرهم في اكثر المواضع الا غراماً برح به كما ترى في غزليات امرئ القيس وعنترة واذا تعدى تلك الخلطة فلم يتعدّها الا قليلاً . بخلاف المولدين اذ كانوا يتكلفون الفزول تكلفاً كأنه من لوازم الاستهلال

والظاهر ان كثيرين من ذوي الروية والنقد كانوا ينكرون تلك الطريقة حتى في ابان الزمن العباسي

قال الابشيحي: مدح ابو العتاهية عمرو بن العلاء^(١) فأعطاه سبعين ألفاً وخلع عليه خلعاً سنياً حتى انه لم يستطع ان يقوم فغار الشعراء منه فجمعهم وقال يا لله العجب ما اشد حسد بعضكم لبعض ان احكم بأيتنا ليمدحنا فيتفزل في قصيدته بخمسين بيتاً فما يلفنا حتى يذهب رونق شعره . وقد تشبب ابو العتاهية بايات يسيرة ثم قال :

اني أمنت من الزمان وصرفه لما علقته من الامير حبلا
لو يستطيع الناس من اجلاله جعلوا له حرّ الوجوه نعالا
ان المطايا تشكيك لانها قطعت اليك سبابها ورمالا
فاذا وردن بنا ووردن خفافاً واذا صدرن بنا صدرن ثقالا

واذا اردت دليلاً محسوساً على صحة هذا النقد فنقد قصيدتين من نختار شاعري واحداً وطأ الشاعر بالفزول في احدها وبلغ الموضوع تنوّاً في الاخرى فتبدو لك فوراً مزية مطلع الثانية على الاولى

فمن نختار ابن هاني قصيدته في مدح المعز ومطلعها :

قن في مأتم على العشاق ولبس الحداد في الاحداق
وبكى الدماء بالعم الرطب ب المقتى وبالحدود الرقاق

وقصيدته في المعز ايضاً ومطلعها :

ما شئت لا ما شاءت الاقدارُ فاحكم فانت الواحد القهارُ
وكأنما انت النبي محمدُ وكأنما انصارك الانصارُ
ومن غنار المتنبى قوله في سيف الدولة مستهلاً :

لعينيك ما يلقي الفؤاد وما لقي ولعب ما لم يبق مني وما بقي
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ولكن من يبصر جفونك يعشق
وقوله في مطلع آخر قصيدة قالها وهي في سيف الدولة ايضاً :

فدى لك من يقصر عن مداكا فلا ملك اذا الا فداكا
وان قلنا فدى لك من يساوي دعونا بالبقاء لمن فلاكا

افلا تترك تؤثر مطلع رائية ابن هاني وكافية المتنبى على قافيتيهما
ولا يجب ان يستفاد مما نتقدم اننا ننكر التوطئة على الاطلاق فانها اذا
جادت ووقعت في موضعها ووافقت موضوعها فانها تشق شغاف القلب وتذكي
شرارة النيرة فتهم بها البصائر كما يقع لسامع قصيدة ابي تمام التي مطلعها :

السيف اصدق انباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصبائف في متونها جلالة الشك والرب

فقد اراد مدح المعتصم العباسي على اثر فوزه ذلك الفوز المبين وتكيله
بجيوش الروم ونجته عمورية فوطاً لمدحه توطئة استعملها بما تقدم وما اجملها
توطئة لمثل ذلك المدح

ومما يحمد عليه المولدون بهذا المعنى توطئتهم للثناء بالزهد واشباهه

الخلّة الرابعة . تجاوزهم في المجون وبذاءة التعبير الى ما لا يستيجه ادب
المحالى ويفض من قدر الشعر ومنزلة الشعراء . وهذا ايضاً ليس من بدع المولدين
بل سبقهم اليه شعراء الجاهلية والخضرمون حتى اودعه امرؤ القيس معلقته . وفي
اهاجي حرير والاخلطل والفرزدق ما لا يعد مفخرة لامثال اوائك الفطاحل . ولكن
الجاهلين كانوا يأتونه عفواً على البداة فاستمسك به الخضرمون واوغلوا فيه اينالاً

ادى بالمولدين الى التفنن به تفننهم في سائر ضروب الشعر وفحشوا فيه فحشا فاضحا . ومن ذا الذي يقرأ اهاجي ابي تمام لمقران والمتنبي لابن كيخلج ومجونيات الصني الحلي ولا ينكر ان تشاء بدائع منظوماتهم بتلك السفاسف الهجينة . واغرب من هذا ان كثيرا من تلك البذاءات ممتزج بدرر من المعاني تضيق عنها ارحب القرائح . فاذا قرأت قصيدة المتنبي التي يستهلها بقوله :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم عرضا نظرت وخلت اني اسلم
فانك ترى فيها من غرر المعاني وابكار الافكار ما جرى اكثره مجرى الامثال
وتنوقل جيلا بعد جيل في اندية الادب وحسبك منها قوله :

ذو العقل يشقى في النعم بعقله واخر الجهالة في الشقاوة بنم
والناس قد نبذوا الحفاظ فمطلق ينسى الذي بولى وعاف يندم
لا يخذل عنك من عدو دمه وارحم شبابك من عدو ترجم
لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعله لا يظلم
ومن البلية عدل من لا يعوي عن جهله وخطاب من لا يفهم
ومع هذا فانك لا تتمالك من الانكار على الشاعر خلط هذه النفاس
بتلك الخسائس

واقبح من كل ذلك تشبههم بما لم يشعره الله ولم يسق اليه الطبع ولم
يفش قبلهم في شعر الجاهلين وانما هو بدعة اقتبسوها بملابسة المدنية الجديدة
فما اوغل امامهم ابو نواس في ذلك النهج البذي حتى هبوا الى تحديده
والظاهر ان ذلك التراخي كان مندجيا بروج العصر فانتججه التعراه
وسلك مسلكهم صفوة الادباء كالبديع الهمداني والحريري وسموه احماسا كانه
فكاهة مستملحة يتطلها كل ادب اريب . ولهذا قال الحريري في مقدمة
كتابه : « وما قصدت بالاحماض فيه الا تنشيط قارئه »

ذلك ما يعاب عليه المولدون ما خلا رهطا منهم سما ادبا وتهذب عقلا ونفسا

اما الياذة هوميروس فهي على ما وصلت اليها نقية من تلك المغامر لا يؤخذ صاحبها على شيء من هذه الخلال الرابع . اما الخلة الاولى فلان الشاعر جاهلي وحيثما تصفحت شعره رأيت ابداع في الوصف ورسم الحقائق . واما الثانية والثالثة فلانها مخالفان لطبعه وذلك بادر في كل منظومه . واما الرابعة فقد تحاشاها الشاعر لسمو في ادبه مع ما كان فاشيا في عصره من الاستسلام للشهوات كما اثبتنا في ترجمته ولهذا جاءت الياذة نقية لا يتخللها شيء مما تحظر قراءته حتى على الغادة المذراء

مناهج المولدين

في ابواب الشعر وفنونه واساليبه

لم يقتصر المولدون من الشعر على نظم بل نظروا فيه ومحصوه وانتقدوه وعارضوه بعضا ببعض وبحنوا فيه بحثا علميا ووضعوا اصوله وبرزوا فصوله وجمعوا مخناره وعينوا فنونه ووازنوا بين الشعراء وكتبوا في كل ذلك الاسفار الطوال بين نثر وشعر مما لا يتسع له بحثنا

وقد جعلوا الشعر بالنظر الى معناه ابوابا حصرتها ابو تمام في عشرة وابلغها ابن ابي الاصبغ العدواني الى ثمانية عشر وهي الغزل والوصف والفخر والمدح والمهجاه والعتاب والاعتذار والادب والزهد والخمرات والرثاء والبشارة والتهاني والوعيد والتحذير والمآلح والسؤال والجواب . وزادوا عليها الزمريات والحكم والمجون والحماسة وهي اشرفها عندهم واجادوا في كل ذلك

وتفنتوا في الشعر تفنتا لم يعرفه الاوائل الا قليلا فأفاضوا في التشطير والتخميس والمعمى والاحجية والغز والدوييت الفارسي الذي خالفوا فيه اوزان الشعر العربية

واكثر من كلف منهم بذلك متأخروهم كالحريبي وابن الفارض وصفي الدين الخلي . وان تخميس الصفي الحماسية السموال من اجود ما قيل بهذا

الباب ومطلعها :

فبيح بن ضافت عن الرزق ارضه وطول الفلا رحب عليه وعرضه
ولم هبل سربال الدجى منه ركضه اذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه
فكل رداه يرتديه جميل

وفي ديوان ابن الفارض كثير من الدوييت والغز كقوله :
باليلة وصل صبحها لم يلح من اولها شربته في قدحي
لما فطرت طالت وطابت بلقا بدر يتحنى في حبه من منحي
وقوله ملفزا في بقله :

ما اسم قوت لاهله مثل طيب تحبه
قلبه ان جعلته اولاً فهو قلبه

وللحريري الغاز واحاجي ومعميات واحسنها بل احسن ما قيل بهذا المعنى
بأئيته الطويلة التي مطلعها :

عندي اعاجيب ارويها بلا كذب عن العيان فكثوفي ابا العجب
واما التاريخ الشعري فلا نعلم له شيوعاً عند المولدين وانما هو من فنون
المحدثين او المتأخرين ولكنه بلا ريب مأخوذ عن اصل قديم جداً لان الحساب
بالحروف اقدم من جميع الشعر العربي المعروف وقد استعمله اليونان والعبريون
والرومان قبل العرب ولكنهم لم يلقوه بالشعر . على ان جميع هذه الفنون ليست
الا من فكاهات الشعر ولا يجب ان تعد من بدائع النظم

اما الموشح الاندلسي فهو من تحاسن الاستباط الشعري . قيل اخترعه مقدم
ابن معافر شاعر الامير عبد الله بن محمد المرواني في اواخر القرن الثالث للهجرة
وقيل في اصله اقوال اخرى لا عمل لذكرها . كانوا ينظمونه على اساليب شتى
اشهرها جعل اللازمة بيتين وكل دور بعدها خمسة ابيات كقول الخطيب الاندلسي :

جاءك الغيث اذا الغيث هما يازمان الوصل بالاندلس
لم يكن وملك الا حلما في الكرى او خلة الخناس

دور

اذ يقول الدهر اسباب المني تنقلُ الخُطَاوِ على ما ترممُ
 زمَرٌ بين فرادى وثنا مثلاً يدعو الوفود الموسمُ
 والحيا قد جَلَّالَ الروض سنا فسنا الازهار فيه تبسمُ
 وروى النعمان عن ماء السماء كيف يروي مالك عن انس
 فكساه الحسن ثوباً معلماً يزدهي منه بابهي مايس
 كانوا ينعمون هذا النهج في طوال الموشحات . ولم في ما سوى ذلك طرق
 كثيرة تفنوا عليها وخالفوا فيها اوزان الشعر المشهورة وترام ينقرون في بعضها على
 اوتار الافئدة كما ترى في قول ابن ابي بكر الايض في مطلع موشح :

مالد لي شرب راح علي رياض الافاح
 لولا مضيم الوشاح اذا اسي في الصباح
 اوفي الاصيل انحى بقول ما للشمول
 لعنت خدي

وللشمال هبت فال غصن اعتدال
 فمه بردي

مما اباد القلوبا يمشي لنا مستراليا
 بالخطه رد ثوبا وبالماء الثنبا
 برذ غليل حب علي لا يستميل
 فيه عن عهدي
 ولا يزال في كل حال يرجو الوصال
 وهو في الصدر

وقول عبادة القزاز :

بدر تم شمس ضحا غصن نقا . مسك شم
 ما اتم . ما اوضعا ما اورقا . ما اني

لاجرم . من لحا . قد عشقا . قد حرم
ومما يذكر للمولدين استطراداً ضروبٌ كثيرةٌ من الشعر العامي كالمواليا
وفي أصله أقوالٌ أشهرها أن هارون الرشيد أمر بعد نكبة البرامكة أن لا يرثيهم
أحدٌ بشعر فثرت إحدى جواربهم جعفرًا . بشعر غير مُعَرَّب حتى لا يُعدَّ شعراً وجعلت
ثقول بعد كل شطر ياموالي قالت :

يادار ابن ملوك الارض ابن الفرس . ابن الذين حموها بالقنا والترس .
قالت نراهم ريم تحت الاراضي الدرس . سكوت بعد الفصاحة أأستهم خرس .
هذا الذي يقوله المؤرخون في أصل الشعر العامي والذي نراه أنه أقدم من
ذلك العهد بل نخاله معاصراً للشعر الجاهلي . وللبغداديين أيضاً من هذا النوع
القوما قيل كانوا ينشدونه عند السحور في رمضان سمي بذلك من قول المغنين
« قوما نسحر قوما » وجعلوه على وزن هذه الكلمات الثلاث وتفرع عنه فروع
دعواها الزهري والنجري وغيرها . ولم يغير ذلك من الشعر العامي مما لا يحل لذكره
والاندلسيين كثيرٌ من هذا النوع مما تفرع عن الموشح وبما تغنت به
العامة كالزجل وفروعه عروض البلد والمزدوج والكارى والملمعة والغزل ولا تزال
بقايا كل ذلك في جميع البلاد التي غلبت فيها العربية . وأخصها الزجل المصري
والزهيري البغدادي والمعني السوري . ولا يدخل في عدادها القصيد البدوي لانه
من بقايا الشعر الجاهلي الفصيح

وأحرز المولدون أيضاً قصب السبق في الحكم والمواعظ وجمع شوارد الامثال
وأول رافعٍ منهم لذلك اللواء أبو العتاهية فإنه نظم فيها أرجوزة طويلة قيل
أنه ضمها أربعة آلاف مثل وهي من بدائع نظمها ومنها قوله :

حسبك مما تبغيه القوتُ ما أكثر القوت لمن يموتُ
النفير في ما جاوز الكفايا من اتقى الله رجا وخافا
هي المقادير فليكني أو فذرني ان كنت اخطأت فما اخطا القدر
لكل ما يؤذي وان قل ألم ما اطول الليل على من لم ينم

من جعل التَّامَ عينا هلكا مبلغك الشرِّ كباغيه لكا
ان الفراغ والشباب والجدد مفسدة للمرء اي مفسده
ما زالت الدنيا لنا دار اذى ممزوجة الصفو بألوان القذى
الخير والشر بها ازواج لذا نتاج ولذا نتاج
من لك بالمحض وليس محض ينجث بعض ويطيب بعض
لكل انسان طبيعتان خير وشر وهما خداف
وجرى كثيرون من شعراء المولدين تجرى ابي العتاهية في جمع الحكم والامثال
في القصائد الغراء . فمنهم من نظمها تجرّدة عما سواها من المقاصد كما في النتح
الْبستي في التوبة المعروفة التي مطلعها :

زيادة المرء في دنياه نقصان وربحه غير محض الخير خسران
وكل وجدان حظ لا ثبات له فان معناه في التحقيق خسران
ومثلها لامية ابن الوردي :

اعتزل ذكر الاغاني والغزل وقل الفصل وجانب من هزل
ودع الذكر لأيام الصبا فلا أيام الصبا نجم أقل
ومنهم من اودعها قصائد قيلت لمقاصد معلومة كما فعل ابن دريد في منظومته
المعروفة بالمقصورة الدريدية وقد اراد بها مدح الشاه ابن ميكال وولديه ومطلعها :
باطنية اشبه شيء بالها نرى الخزامى بين اشجار النقا
إمّا تزي رأسي حاكى لونه طرة صبح تحت اذبال الدجى
فكل ما لاقيته مفتقر في جنب ما اسأره شحط النوى
ومن هذا القبيل قصيدة الطغراني المعروفة بلامية العجم اذ قالها لغرض في
نفسه ووزج فيها الحكم بالفخر كما يثبتك مطلعها :

اصالة الرأي صانتي عن الخطل وحلية الفضل زانتي لدى العطل
تجدي اخيرا وتجدي اولا شرع والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفل
وابناء هذا الفريق الاخير من الشعراء يتجاوزون حد الحصر . ويندر ان ترى

شاعراً لم يودع شعره شيئاً من الحكم والأمثال بل كان كثيرون منهم يوطئون بها للمدح والهجاء والوصف والثناء فنقوم لديهم مقام التوطئة بالغزل ويقال في الجملة ان المولدين مع تبذُّلهم في المدح طرَقوا جميع ابواب الشعر مما تقدم ذكره ولكنهم قلَّما اقتصر الشاعر منهم في القصيدة الواحدة على باب واحد بل كانوا يمزجون مزجاً يُملُّ أحياناً ولكنه يُطرب أحياناً كثيرة ولا سيما في القصائد الطويلة التي لا بد من تفكيكه سامعها بما يثنيه هنيةً عن مرمى الشاعر. وربما جمع شاعراً بين الغزل والحكم والأمثال والزهريات والفخر والمدح في قصيدة واحدة واطربك في كل ما قال لبلاغته وطلاوته شعره وحسن تصرفه وحسبك مثلاً من ذلك قصيدة ابن الرومي المسماة حديقة الشعر وهي التي مدح بها اسمعيل بن بلبك في ما ينيف على مئتي بيت . فيينا نخاله مستهلاً بزهريّة فيقول :

اجنت لك الوجد اغصانٌ وكثبانٌ فيهن نوعان تفاجٍ ورماتٌ
وفوق ذلك اعنابٌ مهدلةٌ سودٌ لمن من الظلماء الوانُ
وتحت هاتيك عنابٌ تلوح به اطرافهن قلوب القوم قنوافُ
إذا بك تراه متغزلاً فيقول :

غصون بانٍ عليها الدهرُ فاكهةٌ وما الفواكه مما يحمل البانُ
ونرجس بات ساري الطلّ يضر به واخوانٌ منبِزُ النور ربانُ
ألفن من كل شيء طيبٍ حسنٍ فهن فاكهة شتى وريحانُ
فاذا اسكرك بنشوة تلك الصبهاء وقف خطيباً واعظاً فقال :

ثمّار صدقٍ إذا عاينت ظاهرها لكنها حين تبلو الطعم خطبانُ
بل حلوة مرّةً طوراً يقال لها شهدٌ وطوراً يقول الناس ذيفانُ

.....

تلك الغصون اللواتي في اكتمتها نعم وبؤسٌ وانفراحٌ واحزانُ
يلو بها الله قوماً كي يبين له ذو الطاعة البرّ من فيه عصيانُ
وما ابتلاهم لإعناتٍ ولا عبثٍ ولا لجبلٍ بما يطويه ابطانُ

لكن ليثبت في الاعناق حجنه ويحسن العفو والرحمن رحمن
ثم اذا تخلص الى المدح اودعه الماني الشائقة والحكم الرائعة . واذا انتقل
منه الى العتاب وطلب النوال البس ذلك جلباباً بهياً . واختم بها لا يصلح سواء
ان يكون تاجاً لتلك الغادة الهيفاء فقال :

وان آيت غسبي منك عارفة ان امتدحك عند الله قربان
والحريسب دهرًا وهو ذو سعة والعق يطوي زمانًا وهو سغبان
وللبلاء انفراج بعد ازمته ورعة الدهر اعجاب واسمان
وللاله سجال من فواضله كل امرئ ناهل منه وعلان
ان لا يعني على دهري اخوثة من العباد فان الله معوان
او يطل الحق عند الناس كلهم فليس للعق عند الله بطلان
خذها ابا الصقر بكرًا ذات اوشية كالروض ناعمى عرارافيه حوزان
واسلم لراجيك مسعودًا وان تربت ممن يعاديك آناف واذقان

وهكذا فانه يظل يرتقي بك درجة بعد اخرى وهو يهيجك طربًا حيثما وقف
بك ويحرم حول مطلبه حتى يلجئك الى استتمام سماعه فلا تشعر الا وقد اذيت
على قصيدته برمتها وانت مشغوف بطلاوتها فقلت هلاً زادني منها رحمه الله

وهذا المنزع بعينه هو منزع هوميروس في الياذنه ولو لم تكن حذبة ابن
الرومي خلية من اخبار الشعر القصصي لقلت هي شطر من تلك الملحمة التي
خلب بها هوميروس عقول رواة وقرائه . وكافي بابن الرومي وفيه لحة من
كنيته التي كانت يعبر بها في زمانه الى جرثومة في اصله او عرفانه كانت
تحمله على تحدي هوميروس في كثير من اساليبه ومعانيه وتشبيهاته

وللمولدين اقوال ساحرة في التشايبه والكنائيات والاستعارات وكانوا كلما
ابعدوا عن الحقيقة فقصروا فيها عن الجاهلين اوغلو في الخيال ففاقوا المتقدمين
بسمعة التصور وغروب المجاز



علوم الادب

عند المولدين

ليس من شأننا هنا التعرض لجميع ما تنطوي عليه علوم الادب في عرف بعض العلماء من نحو وتصريف ولغة واشتقاق وامثالها بل نقصر الكلام على ما كان منها خاصاً بالشعر كالعروض او ملازماً له كالبديع والبيان فالمولدون هم الذين فتحوا باب البحث في صناعة الشعر وقيدوا شوارده وفصّلوا قواعده وشاركهم في ذلك النحاة والادباء وعلماء اللغة فضبطوا الاوزان ووزنوا المعاني وصبروا قرض الشعر علماً بعد ان كان ملكة لا ضابط لها الا القياس السماعي

وقد كان ذلك القياس بكنل استبقاء تلك الملكة ايام كان العرب في معتصمهم يتخاطبون في البوادي والخواصر وتجمعهم سوق عكاظ كل عام فتقوم ما اعوج من منطقهم ولا يخاطبهم الاعاجم غالبة تعبت بلسانهم . على ان ايفالهم في اطراف المعمور وانتشار لغتهم انتشاراً لم يكن انتشار اليونانية واللاتينية بازائه شيئاً مذكوراً وامتزاجهم بسائر الملل كل هذا احدث انقلاباً الجأهم الى تقبيد اصول الشعر على اثر تقبيد اصول اللغة

العروض

فكان اول ما استلفت نظرهم ضبط الاوزان فوضع الخليل بن احمد علم العروض نحو سنة ١٥٠ للهجرة اي في اوائل العصر العباسي عصر المولدين . ويقول بعض المتقدمين من كتّاب العرب ان العروض علم خاص بالعربية وان الخليل استنبطه ولم يسبقه اليه احد في لغة اخرى مع ان ارسطوطاليس ضبط قواعده للغة اليونان وله فيه تأليف يعول عليه . ولا كثر اللغات قواعد ضابطة لاصول الشعر وعروضه . ويؤخذ من قول ابن خلكان في ترجمة الخليل انه الم باليونانية ولك ممى أرسل اليه فيها . ولكنه لا يثبت من كل ذلك ان الخليل

وقف على كتاب ارسطوطاليس في العروض واعتمد عليه وخصوصاً ان العروض العربي يختلف في جميع اوضاعه عن عروض اليونان ومن جرى مجراه . وعلى كلِّ فان للخليل فضلاً على الشعر العربي يضاهي فضل ابي الاسود الدؤلي على نحو اللغة بل يربو عليه لانه لم يكن للخليل مرشد الى استنباطه ولا شريك فيه . ولا يكبر على الخليل ان يكون مستنبطاً بلا دليل سابق يسترشد به لان الاستنباط كان في طبعه وله مما خلا العروض استخراجات كثيرة تدل على سعة عقل لم يقدرها ابن المقفع قدرها اذ قال « علم الخليل اكبر من عقله »

والغريب انه كاد يبلغ بهذا العلم حد الكمال منذ فكر في وضعه اذ قيّد جميع البحور التي انتهجها العرب ولم يزد عليها من بعده الا بحر واحد هو المحدث او الخبب ويقال له المتدارك ايضاً لان الاخفش تداركه على الخليل . ولا عبرة بما استعمل المولدون من الاوزان الفارسية كنقول الفارابي والدؤبيت وما عدلوا به عن الاوزان المألوفة في الموشحات والاغانى وما زادوا فيه من تقييد العلة والزحاف فذلك عرض يفسح للتوسع فيه بحال رحب . ولهذا يصح ان يقال ان علم العروض خلق كاملاً لان الخليل احكم تمثيل جميع القوالب الشعرية وتطبيقها على جميع منظوم العرب في الجاهلية

البديع

رأيت ان المولدين تفتنوا في الصناعة الشعرية ونهجوا منهاج لم يسبقهم اليها الجاهليون والمخضرمون وتلاعبوا بالالفاظ والمعاني فمست الحاجة بعد صوغ تلك القوالب الى توثيقها والنظر في احكام زخرفها فوضعوا علم البديع بفرعيه اللفظي والمعنوي فكان اللفظي ألصق بالشعر منه بالنثر والمعنوي يتناول جميع فنون الانشاء من شعر ونثر على حد سواء

واول من كتب في البديع فيما نقل الينا شاعر كلف بأنواع التشابه والاستعارات فكان قوله فيها حجة الكتاب والشعراء ألا وهو ابن المعتز العباسي . ولم يكن بين المولدين من هو اولى منه بوضع هذا الفن فكتب في صناعة الشعر ووضع

رسالة في البديع كانت اساس هذا العلم وذلك في اوائل الشطر الاخير من
القرن الثالث للهجرة اي بعد ان وضع الخليل علم العروض باكثر من قرن
ولا بدع ان يكون واضح هذا العلم شاعراً وان كان العلم بنفسه غير خاص
بالشعر كالعروض فالعلماء والشعراء يتعاونون على احياء الادب . فالشاعر صنّاعة
جيش العلماء والعالم نبراس جند الشعراء
وهكذا فاننا نعدّ من مآثر المولدين وضع علمين عريين استنبطهما استنباطاً
بالنظر الى العربية وهما العروض والبديع اللفظي

البيان

اما البيان بما يشمل من علم المعاني والبديع المنوي فليس من وضع العرب
يحصّر المعنى وان كانوا طبقوه على التراكيب العربية . فقد استمدوا اصوله من
اليونان والسريان والفرس كما استمدوا المنطق من كتاب ارسطوطاليس وغيره
من علماء المتقدمين وكان للفرس في البيان اليد الطولى - ولجعفر البرمكي كلام فيه
ما زال يُنقل عنه . على ان للمولدين فيه النظر العالي والفضل الواسع بما أحسنوا
في تبويبه واحكموا في ترتيبه حتى ألبسوه حلة عربية . ومع هذا فلم يبلغ حتى يومنا
درجة الكمال التي بلغها العروض والبديع اللفظي
فهذه علوم ثلاثة وضعها المولدون احكاماً للصناعة الشعرية واساليب الانشاء .
وليس من شأننا ان نتطالّ الى ذكر سائر العلوم التي لها علاقة بالشعر قريبة او
بعيدة فهي كثيرة ولا سيما في هذا العصر حيث لا غنى للشاعر عن الامام ولو
ظليلاً بكثير من العلوم

اطوار شعر المولدين ومزاياه

كانت مخالطة المسلمين للاعاجم في عصر العباسيين على خلاف ما كانت عليه
لهمد الدولة الاموية . فان الامويين كانوا لاغراض ليس من شأننا البحث فيها
يترفعون في اغلب الامور عن الاجاب فظلوا على قريهم منهم بعيدين عنهم

بالمجاسة والمحادثة والامتزاج نفخي عنهم كثير مما كانت معرفته غير ضارة . واما
المباسبون فاختلطوا بالاعاجم اخلاطاً مكنهم من استطلاع خفاياهم وقربوا اليهم
كل ذي جاه وسياسة وعلم وادب واجزلوا العطاء لكل عضو مفيد في ذلك
الملك الواسع سواء كان عربياً مسلماً او يهودياً عبرانياً او نصرانياً سريانياً او
فارسياً او يونانياً فأحاطوا بكل معارف زمانهم وألف ابناء دولتهم انواع
معيشة البشر . فانتسعت على اثر ذلك معارف الشعراء وتفتتوا في صناعتهم على
وجوه لاعمد للمتقدمين بها

وهذا كان شأنهم في جميع البلاد التي ملكوها والشعراء على مذهب ملوكهم
يقتبسون من كل وادٍ وناد فعمت النهضة الشعرية وكانوا جميعاً فيها سواء
ولكن زمن تلك النهضة طال كثيراً واتسع نطاقها اتساعاً عظيماً فظهر فرق
في منظوم الشعراء بالنسبة الى الزمان والمكن وهو ما نريد اجمال الاشارة اليه
على انه لا يجب ان يؤخذ من قولنا ان المولدين يُنظر الى الازمنة
والامكنة الى طبقات تنفرد كل منها بميزة خاصة بها اذ قد ترى شاعرين بينها
قرون ونهجها واحد واساليبها متفقة وهما بينهما مقاربة وقد نشأ كل منهما
في بلاد . فانما نحن ناظرون اذاً الى النزعة الغالبة في كل عصر وقطر

فاذا امنت في شعر المولدين بالنظر الى الزمان رأيت شعار المتقدمين منهم
الرفقة والرواء وظل هذا شأنهم حتى اواخر القرن الثالث للهجرة اي نحو ١٢٠
عاماً . والباعث الاعظم لذلك ولوجهم في ترف العيش ونضارة الحضارة . وهم وان
ظل كثير من منهم في عيش خشن الا ان من لم يتمتع منهم فقد نظر وخبر
وقد يفضل وصف الرقيب وصف الحبيب . — واول من مهتد ذلك السبيل
مخضرمو الدولتين كبشار بن بُزْد ومروان بن ابى حفصة وتابعهم خلفاؤهم كابي
العتاهية وابي نواس والبحتري وما زالوا على ذلك حتى قام ابن المعتز وابن الرومي
وبهما ختم ذلك العصر الذهبي عصر الرونق والبهاء . فاذا قرأت شعر جميع من تقدم
ذكره منهم رأيت يسيل عذوبة وسلاسة وقد تميز برقته والنباهة

وتبعثهم الطبقة الثانية من المولدين وكانت ادمغة الشعراء قد امتلأت حكمة وفلسفة مما نضج من ثمار العلم فأوغلوا في المعاني الدقيقة وتطلبوا الانكار السامية وصاغوا للتشبيه قوالب شائقة من الكناية والاستعارة فوسعوا ابواب المجاز واخذوا بنأصية الخيال فقربوه من الحقيقة . وشعارهم في كل ذلك سمو التصور وكان هذا ديدنهم من المثني واى فراس الحمداني وابن هاني واى العلاء المعرى واى اسحق الصائى واى اسحق البسنى والشريف الرضى حتى الخفاجى وابن زيدون الاندلسى في مدة زهاء ١٧٠ عاماً كمدة الطبقة الاولى

ثم اتت الطبقة الثالثة في اواخر القرن الخامس للهجرة والشعر تحكم البناء موطد الاركان والعلوم البيانية مفصلة القواعد فعمدوا الى تنميق الشعر والتفنن بزخرفه وتوشيته بانواع البديع . والمجيدون منهم يحكمون رصف المعنى الدقيق باللفظ الرشيق ولكن بعضهم افسدوا بهجة المعاني بتوخي التجنيس ومع هذا فقد كان منهم نوانغ لا يكادون يخطون منزلة عن تقديمهم كالطغراني (وهو متوسط بين هذي الطبقة والطبقة الثانية) وابن خفاجة الاندلسى وابن فلاقس الاسكندري وابن التبيه المصرى وابن الفارض والبهاء زهير المصرى والشاب الطريف وصنى الدين الحلى خائتمهم . وطالت مدة هذه الطبقة من المولدين نحو ٢٦٠ عاماً اى الى حوالي سنة ٧٣٠ هـ . فكان عصر المولدين جميعاً ستائة عام

واما بالنظر الى المكان فابناء البلاد العربية ظلوا جانحين الى البساطة الجاهلية لانطباع تلك الاخلاق في نفوسهم . وبرز المصريون في الرقة والعذوبة لدماثة في خلقهم ورق في طبعهم . وغلبت البلاغة والمثانة في العراقيين لشدة في فطرتهم وملابستهم لاهل البادية . ومال الاندلسيون وسائر اهل المغرب الى التفنن باساليب الشعر ووصف الفياض والرباض لنضارة ارضهم . ووقف السوريون بين المصريين والعراقيين فجمعوا بين رقة الاولين وبلاغة الآخرين ولكنهم لم يبلغوا مبلغ فريق منهم في احكام صنعته

طبقة المحدثين او المتأخرين

ليس في عصر المتأخرين ما يستوقف النظر فهو عصر الانحطاط والتقليد فان الدول العربية كانت قد دالت وتغلب الاعاجم على بمالك الاسلام ولولا القرآن لبادت لغة قريش المضرية كما تقدم وبانت في عداد اللغات الميتة وقامت على اثرها لغات لا يتفاهم اصحابها . والعباسيون وهم اصحاب ذلك اللواء الخائفي بين المشركين كانوا قد هبطوا من مماء مجدم لقرون خلت . ولكن أسس العلم ارتخ من أسس الدول . فالدول تدول وملكها يزول وتبقى معالم حضارتها وعرفانها . ولولا ذلك لانطفأت جذوة النهضة العباسية في اواخر القرن الثالث للهجرة حين لم يبق للعباسيين من حقيقة السلطان الا طيف خيال . ولكن شاعرهم ابن المعتز آخر من اسلم تلك الراية البيضاء بيد الجلاء الذي تولى قتله . ولكن فاهم الدول ومبيدها يذل دون ابادته معارفها . ولهذا تعاقبت الاحقاب وشرارة النهضة العباسية لاهية لتضرم في افئدة الشعراء تضرمها في عقول العلماء ولم يتحدد الا بعد ان بلغت الحد المقضي لكل مفطور ومنظور

ومع هذا فان تلك الجذوة ما زالت ترسل قسماً تذكو به فريضة شاعري حيناً بعد حين حتي لا تخلو الارض في زمن من شعراء العرب . وحسبك النظر الى ابن ثبانة المصري في القرن الثامن وابن حجر المسقلاني في القرن التاسع وعبد الباقي المعروف عند الترك بملك شعراء الروم في القرن العاشر وابن معتوق الشهاب الموسوي في القرن الحادي عشر وعبد الغني النابلسي في القرن الثاني عشر ويقال مع ذلك اجمالاً ان الانحطاط في الشعر العربي اخذ يظهر قبل انقضاء عصر المولدين وبات التقليد شعار المتأخرين . وحبذا لو كان تقليداً صحيحاً بل هو شوه وجه الشعر ولا سيما في القرنين الاخيرين اذ بات شاعرنا ولا المام له باحوال عصره فضلاً عن احوال المتقدمين يتحدى امرأ القيس فيضرب في البوادي والقفار وهو في بيت موصد الابواب . ويسوق الظعن وهو على متن

قطار البخار . ويرنم بهجة الرقتين وينيلهما من كرمه صفات جنة عدن ولا يدزي
 انهما مطمئنان من الارض في بادية قفرة تقتله اشعة الشمس اذا وقف اليهما
 ساعة واحدة . وهو لو فطن يتنقل في موطنه في روض اريض وجنان تجري
 من تحتها الانهار . حتى لو اردت ان تستدل من شعرهم على شيء من حالة نجتهم
 لاعياك ذلك . وغاية ما يرسم في ذهنك صورة مشوهة لا يعلم لها رأس من ذيل
 ولما كانت الكنانة فارغة من سهام المعاني عمدوا الى قذف الالفاظ مزوقة بجملة
 يستترون من ورائها وما هم بمستترين . حتى كأن قدماء المروضين كانوا ينظرون
 اليهم عند ما وضعوا للشعر ذلك التعريف الناقص فقالوا هو الكلام المقفى الموزون
 ولم يزيدوا

الشعر المصري

لم يبق للشعر بعد تلك الرقعة الطويلة الا ان يهب هبة جديدة بطور
 جديد وروح حية . وفي الامة والحمد لله بقية متأهبة لولوج ذلك الباب الرحب
 وهي شاعرة منذ نصف قرن بوجوب تجارة الزمان وعالة ان التصدي لمصادمة
 تيار الترقى غرور عاقبة الزيف والخذلان . ولهذا شرع النوايع من ابناء هذا العصر
 في تعديل الخططة فكانت لهم اليد البيضاء واسفر جهدهم عن ابراز الشعر الرقيق
 بالشوب الانيق . وما هو الا قس فاض من غرة هلال سيتكامل بفضلهم بداراً
 ان شاء الله

الملاحم

او منظومات الشعر القصصي

بحث العرب في ابواب الشعر وغروبه وفنونه ودعوا جميعاً باسماء تنطبق
 عليها . ولكنه لم يتصل بنا انهم وضعوا اسماً لمنظومات الشعر القصصي من نظائر
 اللياذة الا ان يكون ذلك ما استحدثه اهل المغرب وسمّاه بهنهم بالملاحم وهو عندهم

اللياذة والشعر العربي — ضروب الشعر عند الافرنج * ١٦٣ *

كالملاعب بالشعر العاتي ما تضمن من المنظوم احوال امّة او قوم . وفُصِّلَتْ فيه وقائع الحروب والتاريخ . ولعلمهم اخذوا ذلك من النجاشة القتال . والمحنة في اللغة الوقعة العظيمة وربما فُسد بها الاحكام من لَحَم الامر بمعنى احكمه لأن من القاب صاحب الشريعة الاسلامية « نبيّ المحنة » وقالوا في تفسيرها نبيّ القتال او نبيّ الصلاح وتأليف الناس كأنه يؤلف امر الامة

ويقول العرب ايضاً ألح فلان الشعر وحاكمه بمعنى نظمته تشبيهاً لبنت الشعر بيت الشعر وبالثوب المخوك كأنهم يريدون الاشارة الى تأليف اجزائه بالاحكام اللّحمة بينها ومنه الملحمات لمختارات سبع من قصائدهم سيأتي ذكرها ومهما يكن من النسبة المعنوية بين لفظ الملحمات والشعر القصصي فالنسبة بينه وبين الملاحم اظهر ولهذا سمّينا الياذة هوميروس واشباهها بالملاحم تفادياً من استحداث لفظة لم يسبق لها استعمال بين الكتاب

ضروب الشعر عند الافرنج

قلنا (ص : ١٤٩) ان العرب قسموا الشعر من حيث المعنى الى ابواب كالنزل والمدح والهجاء والزنا الى آخر ما هنالك من ابواب الشعر . وهو معلوم ان في شعر جميع الانم شيئاً من هذه المعاني . ولكن الافرنج ينهجون في تقسيم ابواب الشعر نهجاً آخر يجارون فيه العرب بالبحث في اكثر هذه الابواب وغيرها مما لم يذكره العرب ويخالفونهم بالرجوع الى حصرها جميعاً في بابين : الشعر القصصي وهو الذي عبّرنا عن منظوماته بالملاحم والشعر الموسيقي وهو ما نُعبر عن منظوماته بالقصائد او الاغاني . ويسمون الاول « إريك » والثاني « ليريك » . وكلا اللفظين يونانيّ الاصل فالاول من ايرس (ερος) بمعنى الفناء او (εرس) اي بمعنى الكلام . والثاني من ليرا (λυρα) بمعنى القيثارة او الكنتارة او آلة طرب اخرى تشبه العود المعروف عندنا . ومماها يحصر المعنى واحد كما ترى اذ يرجع بهما في الاصل الى المقصود من الشعر في اقدم ازمانه وهو التغني بالحمّ والتطرب بهما والتلغّي بانشاده . ولكنهم فصلوا في الاصطلاح بين البابين وجعلوا لكل منهما مزايا خاصة

به وضمَّنوها سائر انواع الشعر . ذلك انه لابد في الشعر من ان يُرمى به الى احد امرين . اما بسط احوال العالم بمظاهره البارزة واما التعبير عن شعائر النفس الخفية عن الابصار وابرار التصورات الكامنة في الصدور . ومعظم ما يقلل من الشعر لا يخرج عن احدى هاتين الحالتين . فالشاعر القصصي بهذا الاعتبار يعبر عن شعائر غيره والشاعر الموسيقي انما يعبر عن شعائر نفسه

فاذا نظرنا على هذا القياس الى الاصل الشعري في بعض اسفار التوراة واتخذناها مثالا جاز لنا ان نُلتحق سفر ابوب بالشعر القصصي ونعتبره ملحمة من صنفه الملاحم . ولتلقى الزبور ونشيد الانشاد بالشعر الموسيقي وهما من ابداع الاغاني والقصائد التي نطق بها البشر

وقد الحقوا بهذين البابين باباً ثالثاً دعوه « دراما » من لفظة ذراما اليونانية (δραμα) بمعنى العمل او الصنعة وهو ما نستحسن التعبير عنه بالتمثيلي لانهم يقصدون به غالباً منظوم الروايات التمثيلية . وهو متوسط بين القسمين السابقين . ولكل من هذه الاقسام الثلاثة فروع لا تحل لايرادها

الا انه لا يترتب على ما تقدم ان منظومات الشعراء يجب ان ينتهي كل منها الى قسم من هذه الاقسام ويلصق به غير متجاوز الى ما سواه . بل قد يكثر التداخل بينها ولا سيما في منظوم البلاغ . فالياذة هوميروس ملحمة من الشعر القصصي بالنظر الى ما تضمنته من سرد الوقائع والاخبار . وما تجاوزت به الى ما وراء الطبيعة من شؤون الآلهة وملاستهم للبشر في اعمالهم وايضاح حقائق الفضائل والذائل بطريق الاخبار . ولكن فيها قطعاً من ابداع ما قيل في الشعر الموسيقي وحسبك منها رثاء اخيل لفطرقل ولتجعه عليه في مواضع مختلفة منها . وان اوداع هكطور لزوجته في النشيد السادس مازال على قدمه المثال الذي ينسج على منواله ارباب الشعر التمثيلي وليس بين المتقدمين ولا المتأخرين من ادرك شأوه واجاد اجادته فيه مع كل ما احسن راسين الفرنسي في روايته « اندروماخ »

وبقارب هوميروس في الضرب على جميع الاوتار شكسبير الانكليزي .
فالمشهور عنه انه من انصار الشعر التمثيلي ومع هذا فاذا اخذت مثلاً رواية
« هَمَلْت » رأيت فيها من معاني القصائد والملاحم ما يوقفك دهشة وعجاباً .
وقل مثل ذلك في رواية « السيد » لكُرْتَنِي الفرنسي « وانذروماخ » السالفة
الذكر وفوتنت لغوته الالماني واشباه ذلك من منظوم نوايح الابطاليين وغيرهم
وهو معلوم ايضاً ان الشائع عن العرب . بين الافرنج انهم لم يضرّبوا الا على
وتر الشعر الموسيقي ولم يتفعّلوا في النظم الى ما وراء القصائد والاغاني ولكنه قول
مبالغ فيه بل زعمٌ موهومٌ فيه كما سنبين في باب « ملاحم العرب »

ملاحم الاعاجم

قد يتبادر الى الذهن ان رسم الظواهر أقرب الى الفطرة وأيسر تناولاً من
رسم الخوافي الكامنة في النفس ولهذا كانت الشعر القصصي في اكثر الملل
منقدماً على الشعر الموسيقي وفنونه . والصواب ان الاغاني والقصائد أقدم من
الملاحم والملاحم اقدم من التمثيلات لان أقدم ما نطق به الانسان من الشعر
انما كان أغنيةً يتطرب بها . او الشوذة تقذفها النفس اشعاراً بعاطفة من نحو
حبٍ ودعاء وغيظٍ ورجاء . او ملهاة بنشدها الكبير ليتلغى بها الصغير : فهذه
القطع الصغيرة تقدمت بلا ريب على المنظومات الطويلة من اشباه الليادة اذ
لا تتوفر معدات نظم الملاحم الا في الشعوب الراقية بعد ان تألف نظم المقاطيع
القصيرة مئات من الاعوام . ولكن قد يمكن ان يكون ارتقاء الشعر القصصي
منقدماً على ارتقاء الشعر الموسيقي وان تقدم الموسيقي بالوضع كما ان ارتقاء بلاغة
الشعر منقدمة على بلاغة النثر وان كان النثر منقدماً بالوضع . أما التمثيلات
فهي من نتاج الملاحم فجاءت متأخرة عنها بالطبع لانه كان أيسر على الشاعر
في غابر الازمان ان ينطق بلسان جميع ممثليه كما هي الحال في الملاحم من ان
يجعل كلاً منهم ينطق بلسان نفسه في محلٍّ مُعدٍّ لذلك كما هو الواقع
في التمثيلات

والشعراء في جميع الملل يجارون المؤرخين في تدوين الوقائع . وهم وان قصروا عن المؤرخين في تعيين المواقيت وتفصيل الحوادث الا انهم يسبقونهم في تعريف الثمائر والاخلاق ووصف احوال المجتمع البشري وتبيان علاقة الخلق بالخلق . ولهذا لم يكن في الامم قديمها وحديثها امة ادركت شأواً مذكوراً في الحضارة الا وقام نوايح الشعر القصصي بيسطون احوالها ويجيدون الرسم بنافذ الكلام بما ينوق اجادته بقلم الرسام

فلقدما المصريين شعراً كثير يستدل عليه من عاداتهم وان كان الزمان قد اباد ملاحمهم الطويلة فان في ما وجد من القطع المتبثرة بين الآثار ما يدل على انها كانت ذات شأنٍ خطير وحسبك منها شعر نباته ور وللهند ملاحم بقي بعضها ولا تزال «المهابهارتا» آية في بابها وقد ترجمت منها قطع كبيرة الى لغات الافرنج

وللعبرانيين ملاحم لا يزال بعضها في التوراة ولقدما الجرمانيين والسكندنافيين ملاحم كانوا يحاثونها علماً ربيعاً واليونان كانوا منذ القدم مشغفين بالشعر القصصي ولم فيه منظومات كثيرة قبل ملحمة هوميروس اشرنا اليها في موضعه (ص : ٦١) والرومان ساروا على اثر اليونان فابعدوا في هذا الفن وقد اشرنا مراراً الى انياذة قرجيلوس

وقام الافرنج على اثار تبنك الدولتين ونفتوا قرونًا بمنظومات رولان في فرنسا وهيلدبراند ونيبولغن في المانيا الى ان قام نوايح المتأخرين كدنتي الايطالي وملن الانكليزي ومن هذا حذوها

ثم اذا انتينا الى ملل الاسلام من غير العرب رأينا انها ليست بالاقبل حظاً من هذا الفن وهذه شتهامة الفردوسي في اخبار ملوك العجم مما يجيب به ويحسد عليه وقد ذكرناها في غير موضع من هذا الكتاب

وان للفرس اليد الطولى في هذا الفن ولم فيه غير ملحمة الفردوسي منظومات

كثيرة كسهنامة القاسمي الكونابادي التي نظم فيها وقائع الشاه اسمعيل واحداها الى الشاه طهماسب وجعلها نظيرةً لتقویرنامه الهاتفي . ومثلها شاهية نجد الدين البابري النسائي في وقعة الخوارزمي

. ولترك ايضاً بدنه في الشعر القصصي منظومة شهودي في اربعة آلاف بيت . وان اغرب ما روي في هذا الباب ما نقل عن سهنامة الشاعر التركي الملقب بالفردوسي الطويل قالوا انه نظمها في مليون وستمئة الف بيت وكتبها في ثلاثمئة وثلاثين مجلداً فلما عُرِضت على السلطان بايزيد العثماني امر بانتخاب ثمانين مجلداً واحرق الباقي فتألم المؤلف وترك بلاد الروم وذهب الى خراسان فمات فيها كدداً^(١)

ملاحم العرب

اذا قلنا ان العرب نظموا الملاحم فلسنا براضعين ان في لغتهم شيئاً يماثل الياذة هوميروس وسهنامة الفردوسي وفردوس ملن بالشعر الحمي . ولكن اذا صححت الادلة المؤدية الى ان ايوب كان عريباً ولا اخلاها بعيدة الاحتمال كان ذلك السفر البديع المحفوظ في التوراة ملحمة عربية الاصل متقدمة بوضعها على ملاحم اليونان والرومان^(٢)

(١) كشف ، الظنون . ولغات تاريخية ٤ : ١٥٨

(٢) يقول كثيرون من كتاب العرب ان سفر ايوب كتب بالعربية شعراً . ثم نقله موسى الى العبرية ولكنهم لا يأتون بحجة تؤيد هذا القول . ولعلمهم قالوا ذلك بالتواتر او نقلاً عن مصادر مجهولة المصدنا . وان في تواريخ العرب اخباراً ووقائع وانساباً كثيرة منقولة عن كتب قديمة منقودة وهكذا يخلط الصحيح منها بالناسد ويتمذر الرجوع الى الاصل — واما انصار هذا الرأي من علماء العصر فلم ادلة ترجح بالبحث صحة قولهم . فلا ريب ان ايوب كان من ابناء البادية العربية وان تمدد حتى الآن تعيين الخططة التي اقام فيها .

ولكن الاخذ بهذا القول ليس مما يضمّ دُرّةً بتيمة الى خزائن الادب العربية فيزيد في مفاخر العرب . او يفيد لغتهم فائدة تذكر لم وتؤثر عنهم . فالاصل العربي في عالم الغيب وهو على فرض الحال لو وجد لما كان فيه من عربة مُضَرَّ شيء يعول عليه ولما وُجد بين العرب من يفك منه عبارة واحدة لاختلاف اوضاع اللغة ومبانيها في ذلك العهد البعيد . فهي بهذا الاعتبار آرامية او عرية اقرب الى عبرية التوراة منها الى عرية قريش ومن يعلم بالنظر الى ايوب نفسه الى اي فريق من القبائل كان ينتمي وما كانت حالة العرب والعربية في ايامه ومن كتب او استكتب ذلك السفر من قومه او غير قومه . والحاصل ان الماعنا الى ذلك السفر انما هو قبيل التذكرة والحرض على الاشارة الى امر خطير

ثم اذا رجعنا الى الشعر القديم المنسوب الى قدماء العرب في اليمن ونجد والحجاز فلا نلبث ان نتحقق انه من النظم الموضوع حديثاً لفرض كما اوضحنا . وزد على هذا انه لا يربو على عدد معلوم من المقاطيع وليست جميعها على شيء من الشأن في الشعر قصصياً كان او موسيقياً . وايضاً فلا فائدة من الالماع الى ما سبق من النظم في اللغة الينية الحيرية التي هذبت وكتبت قبل لغة قريش بقرون . فالبحت اذاً يجب ان يكون في الشعر الباقي باللغة العربية المضربة

نظرة في الجاهليتين

جاهلية العرب وجاهلية اليونان

ان اقدم ما اتصل بنا من الشعر الجاهلي الجليّ مقولٌ معظمه في مثل المواقف

وفي ذلك يقول هان وإيولّد وشلثمن « ان وقائع هذا السفر تمثل الحياة البسيطة على حقيقتها وتوضح بالرسم الصادق معيشة الشيخ العربي للقبيلة البدوية » ثم ان هذا السفر اقرب الى العربية من سائر اسفار التوراة العبرية . وقد اشار ريثان في مقدمته « لسفر ايوب » الى كثرة الكلمات الارامية فيه

التي قال فيها هوميروس الياذته . فهناك شياطين وجنيات تلقن الشعراء فصيح الكلام تلقين القيان لهوميروس . وفي مثل ذلك يقول الاعشى :

دعوت خليلي مسحلاً ودعواه
جهنماً جدعاً للجهين المذموم
وجهنام تابعة عمرو بن قطن . ولكل من فحول شعراء الجاهلية جنية او شيطان يلقيه الشعر . وهناك ملوك كبار على قبائل صغار لتكاثف وتخالف دفعاً لعار واخذاً لثار . فنشور حرب البسوس بين بكر وتغلب وتتلحم عبس وفزارة على اثر سباق داحس والغبراء . ويكادون يفتنون بعضهم بعضاً كما كاد يفنى الطرواد واليونان وحلفاؤهم . وهناك ايام لتصاول وتجاول فيها قبائل منهم فيشتهر امرها ويذيع ذكرها كيوم الكلاب ويوم الجفار ويوم النصار ويغنى الشعراء بحديثها تغني هوميروس يوم القنطرة ويوم الابطول والكوربت وما اشبه ذلك مما يفوق الحصر

واذا نظرت الى الاشخاص دهشت لما يبدو لك من الشبه في الاحوال والاقوال . فن بطل كعترة ترتجف لصوته القبائل ارتجافها لصوت اخيل يُغاز مثله فيعزل القتال فينكل العدو بقومه حتى يهب من عزله فينعل فعل اخيل في عودته . ومن خطيب كنستور يقف واعظاً موقب قس بن ساعدة فيرشد ويرغب ويهتب . ومن اخوة واخوات وازواج وزوجات وبنين وبنات وآباء وامهات يقولون ويفعلون في جاهلية العرب نظير قولهم وفعلهم في جاهلية اليونان مما ستره بالمقابلة في تعاليق الشرح . ولو اتسع لنا المقام لما عدنا سبيلاً الى ابراز نظير لكل من رجال الاياد ونسائها

واذا حوِّلت نظرك الى اللباس والرياش وطرق المعاش رأيت مع سبق اليونان في حلبة الحضارة مشاكلة باهرة في حالة المعبشة الفطرية والسذاجة الخلقية والحرية الجمالية : سراً ككسيل يتسابقون الى قرى الاضياف كحاتم الطائي وبنون يوتهم على مغرب السبل في فارة الطريق . وانرا كاخيل وفطرقل يأمران وينهون ولديهم الحشم والجوار ومع هذا فهم يبدون بتولون توزيع الزاد على

الاضياف و ينجرون الذبيحة. بُدّام على نحو ما نحر الامير الكندي نافته للعذارى .
وابناء ملوك كولد فريام لانعيبيهم مع غنّاهم رعاية المواشي وتربية الانعام كما قال خالد
ابن الوليد لماهان الارمني « واما ما ذكرت من فقرنا ورعيانا الابل والشاء فما
منا من لم يرعَ واكثرنا رعاة ومن رعى منا كان له الفضل على من لم يرع »^(١)
وسبايا تشرى وتباع . واسرى يُقتل وتفتدى وتسرح باحسان الى غير ذلك مما
لانهاية له وسرى منه جانباً غير يسير مفصلاً بالمقابلة في مواضعه

ملاحم الجاهليين

ليس في وقائع عرب الجاهلية واباءهم ما يضيحي خطورة وقائع الحرب
الطروادية ولكن تلك الوقائع لا تخلو بنفسها من شأن نسبي مذكور . فلا بدّ
إذا من اتخاذ احداها مثلاً للمقابلة . وان أوّل ما يستلفت الانظار حرب البسوس
تلك حربٌ تناقل العرب اخبارها وتناشدوا شعرها على ممرّ القرون حتى
اياماً هذه وصاغوها بقوالب شتى لا يصلح قالبٌ منها اصوغ الملاحم التامة كالالياذة .
ومع هذا فان جميع ما قيل فيها من الكلام المنظوم اقرب نسبة الى الشعر
القصصي منه الى الموسيقى فكل قصيدة منها قطعةٌ من ملحمة . ولكن تلك القطع
غير ملثمة لفقدان اللحمة بينها فهي كالحجارة المنحوتة قد احكمت صنعتها وبقيت
ملقاة في ارضها غير مرصوفة بالبناء . ثم اذا نظرت الى اشهر الرجال والنساء فيها
رأيتهم جميعهم شعراء فكلّيب يقول الشعر ومثله زوجته جليلة واخوه مهلهل .
وكذلك مرة شاعر وابنه جساس شاعر وكلّ ذي شأن في القصة من غريب
وقريب شاعر كالخارث بن عباد وجندّر بن ضبيعة فجموع شعرهم اشبه من
هذه الوجه بالشعر التمثيلي لان لكل حادثة شاعراً ينطق بها بخلاف نهج شعر
الملاحم كالالياذة اذ ترى هوميروس فيها ينطق بلسان الجميع
وقد يخال الباحث في هذا التقارب ثم ذلك التباعد بين منظوم الجاهليتين

انه ربما كانت قصة حرب البسوس ملحمة في اصلها فقدت منها اجزاء اذت الى تفرق ما بقي . ولكنه يتضح لدى الامعان ان ذلك لم يكن وان العرب في الجاهلية لم ينظموا الملاحم الطويلة المحكمة العرى مع توفد القرائح وتوفر معدات الفصاحة في اللغة لان ذلك النسق في النظم لم يكن في طبعهم فلم يخطوا الى ما وراء الطبيعة وكانوا مع عبادة الاصنام يميلون الى التوحيد وكان التسليم للاحكام العلوية من سننهم قبل الاسلام . فلم يوزلوا في التخييلات الشعرية الى النظر في احوال الآلهة وما يترب على ذلك من تفرع البحث الواحد الى ابحاث متعددة على ما هو شأن الامم الآرية . وكل ما يرى من الشبه بين احوالهم واحوال قدماء اليونان انما هو من المظاهر التي آلت بينها طرق المعيشة الجاهلية . واذا نظرت الى حالة اليونان بما كانت عليه مع تلك الخشونة من الانتظام والدربة رأيت انهم كانوا ايام حرب طروادة اقرب شبيهاً بالعرب في ايام الخلفاء الراشدين ثم كانوا في ايام هوميروس اي في زمن نظم اللياذة قد بلغوا من الحضارة مبلغاً لم يكن للعرب في جاهليتهم منه الا النزر اليسير . فلم يسع ابناء الجاهلية ان يتجاوزوا بنظمهم احوال فطرتهم وطرق معاشهم فكانوا ينتقلون بالشعر من باب الى آخر انتقلهم من حي الى حي يمجيدون في كل ما يقولون ولكنهم لا يطيلون المقام فلا يشيدون المنازل الفسيحة المشيدة الاركان

وليس من اللازم ان يكون شعر جميع الامم على نسق واحد بل ربما كان هذا الثباين من الاسباب المؤدية الى ابراز انواع الجمال كافة على اختلاف صوره واشكاله . فالشاعر القصصي من اليونان وخلفائهم كان اذا قص حادثة رواها كلها شعراً واما الشاعر العربي فينشد الشعر حيث يحسن وقعه واكثر ما يكون ذلك في الوصف والخطاب والجواب ويقول الباقي نثراً . وفي هذه الطريقة نوع من التفكيك المأنوس . وهي طريقة شعراء البادية حتى يومنا — جلست مرة الى حلقة شاعر منهم ينشد على نغم ربابته فشرع في مقدمة ثرية قصيرة حتى بلغ الى وصف حسناء فجعل يتغنى بالشعر على نغم آلة الطرب فلما

استتم قصيدته رجع الى الكلام الثري بضع دقائق حتى بلغ وصف وقعة بين
قبيلتين فرجع الى الانشاد وهكذا ظل يراوح قوله بين نثر وشعر نحو ثلاث
ساعات . وذلك ايضاً شأن القراء أصين في كثير من الخواصر العربية
فلا سبيل اذاً للزعم بوجود ملاحم لعرب الجاهلية على نحو ما يراد منها بمرف
الافرنج . ولكن للجاهليين نوعاً آخر من الشعر القصعي مما يمز وجوده في سائر
اللغات وذلك في الملاحم القصيرة المقولة في حوادث مخصوصة فجميع شعراء
الجاهلية وبعض المخضرمين قد سلكوا هذا المسلك واجادوا فيه . ولو تصفحت كتاب
الاغاني ومفضليات الضبي وامثالهما من كتب الادب والشعر لرأيتها مملأة بهذه
المنظومات الغراء وحسبنا بياناً لذلك ان نلتى في سبيلنا نظراً على جمهرة
اشعار العرب

جمهرة اشعار العرب

هو كتابه ألفه ابو زيد محمد بن ابي الخطأب القرشي المتوفى سنة ١٢٠
لهجرة وشرح فيه المنظومات التي اخثارها العرب من نفائس شعر الجاهليين
والمخضرمين وجعلوها سبع رتب في كل منها سبع منظومات . وقد اوردها
المؤلف ببعض خلاف في الترتيب عن المتواتر المشهور فجعل النابتة والاعشى
بين اصحاب الملقات وحذف معلقة الحارث الشكري فكانت المعلقات
ثماني والمجهرات ستاً . وهي في ما يلي مرتبة على ما هو شائع بين كتاب
الادب والتاريخ

المعلقات ودعيت كذلك اخذاً من قولم انها كانت معلقة باركان البيت
 واصحابها امرؤ القيس وزهير بن ابي سلمي والحارث بن حلزة . ولييد بن ربيعة
وعمر بن كلثوم وطرفة بن العبد وعنترة العباسي
والمجهرات ولعلها دُعيت كذلك تشبيهاً لها بالنابتة المجهرة وهي في اللغة
المتداخلة الخلق كأنها جمهور الرمل اي انها عالية الطبقة تحكمة السبك . واصحابها
النابتة الذبياني وعبيد بن الابرس وعدي بن زيد وبشر بن ابي خازم وامية

ابن ابي الصلت وخداش بن زهير والشعر بن تَوَلَب
والنُتَقِيَّات ابي المختارات واصحابها المسيَّب بن علس والمَرْقَش والنَّبَاس وعروة
ابن الورد ومهلل بن ربيعة ودريد بن الصمة والمُتَخَلُّ بن عويمر الهذلي
والمُذَهَّبَات ابي المكتوبة بماء الذهب واصحابها حسان بن ثابت الانصاري
وعبد الله بن رواحة ومالك بن عجلان وقيس بن الخطيم الاوسي وأُحَيْمَةَ بن
الجلَّاح وابو قيس بن الاسلت وعمرو بن امرئ القيس

والمراثي واصحابها ابو ذؤيب الهذلي ومحمد بن كعب البغوي واعشى باهلة وعقمة بن
عبد الحمير وابو زُيْد الطائي ومتم بن نويرة ومالك بن ريب النهشلي البجلي
والمشوبات وهي التي شأها الكفر والاسلام واصحابها النابغة الجعدي وكعب
ابن زهير والقطامي والحطيئة والشمخ بن ضرار وعمرو بن احمرو وتميم بن ابي مقبل
والمُحَمَّمَات ولعلم ارادوا بهذه التسمية الاشارة الى احكام نظمها والحام شعرها
كما تقدم . واصحابها الفرزدق وجريير الخطافي والاخلط التغلبي وعبيد الراعي وذو
الومة والكبت والطرمأح بن حكيم الطائي

فهذه تسع واربعون منظومة لتسعة واربعين شاعراً اذا تصفحتها تبين لك
في كثير منها مزايا هذه الملاحم القصيرة المختصة بلغة العرب ولا سيما ما قيل
منها في الجاهلية كالمعلقات فانك ترى فيهن من سرمد الحوادث وتفصيل الوقائع
وتمثيل المشاهد وبداهة النكر ما يعد في اعلى طبقات الشعر القصصي . وفيهن
ايضاً من بديع التصوير والسذاجة وحسن التصرف البديعي واجادة الرصف
وابداع الوصف واحكام التشبيه ما يسمو بهن الى ارفع درجات الشعر الموسيقي
فهن بهذا المعنى قد جمن بين نحاسن الطريقتين في الشعر العربي كما جمعت
الياذة هوميروس بين اطراف المحاسن في الشعر اليوناني

فالمعلقات اذاً رأس الملاحم العربية . واقرهن الى منظومات الشعر القصصي
على ما يراد به في العُرف معلقة الحارث بن حلزة لاناضته في وقائع بكر وتغلب
وتضيه بفوز قومه ونكال عدوه . ومفاخر عشيرته على ما يماثل تغني هوميروس

في الأياذة . وتليها بهذا المعنى معلقة عمرو بن كلثوم ثم معلقة زهير
ويلحق بالمعلقات باعتبار أنها ملاحم عربية مجمرة بشر بن أبي خازم وأمية
ابن أبي الصلت . ومنتقيات مهلهل بن ربيعة ودريد بن الصمة والمنتخل بن
عويمر . ومذهبة قيس بن الخطيم . ومشوبة النافذة الجعدي . ومنتحات الفرزدق
والكيت والطبرماج
وانت ترى ان معظم اصحاب الملاحم من الجاهليين وان احسنها المعلقات
وجميع اصحابها من ابناء الجاهلية وقد عرا الشعر القصصي بعدم ضعف الملاحم
اليه فلا حاجة الى التكرار

ملاح المولدين

اذا قصر المولدون عن الجاهليين بالبداهة الفكرية فقد رأيت انهم فانوم
بسمو التصور والرفعة وصعدوا فوقهم درجات في سلم البلاغة بفضل القرآن . ولو
لم تغير مناجي شعرهم لما تقدم بسطه من الاسباب لابتدعوا في جميع الاساليب
الشعرية . ولكنهم لم يستثمروا الاقتباس والا فلو استرشدوا ببعض السور القرآنية
كسورة يوسف وسورة مريم وسورة الانبياء مما بعد نبأ نبي الملاحم لفاقوا
الجاهليين بالشعر القصصي كما فانوم بالشعر الموشقي
ومع هذا فان للمولدين نوعاً من الملاحم خاصاً بهم وهو المقامات المسجدة بما
يتخللها من الشعر كقامات المزداني والحريري . ولكن التجرد فيها للاغراب في
اللفظ يحول الفكر فيها عن التصرف بالمعنى . على ان اللفظ احياناً رنات مطربة
بنفسها . وهذا النوع من الانشاء من خصائص اللغة العربية . وان كثرة القوافي في
اللغة نسوق الى التسجيع حتى لقد يكون ذلك حيث لا مسوغ له كالأبحاث العلمية
والنفاسير القرآنية حتى كتب التاريخ التي لا يستحسن فيها الاكثر من الشعر والسجع
ويلحق بالمقامات القصص التي يمتزج بها الشعر والنثر كقصة عنترة العسي وكثير
من القصص التي لتداولها العامة في جميع البلاد العربية
وان من احسن ملاح المولدين "المحمة" ثربة جمع فيها صاحبها شئت المعاني

واوغل في التصوّر حتى سبق دنتي الشاعر الايطالي وملتن الانكليزي الى بعض تخيلاتهما الا وهي رسالة الغفران لابي العلاء المعري . ولكن استغلاق عبارتها وفقدان الطلاوة الشعرية منها يخطان بها عن درجة امثالها من ملاحم الاعاجم . واما المنظومات الاخبارية والاراجيز التاريخية التي يقصد بها تدوين الاخبار فهي كثيرة في كل عصر من عصور العرب في الشعر الفصح والعامي وقد باد معظم ما قيل منها في الجمالية وهي اشبه شيء بالاراجيز العلمية وكتب التواريخ المسجعة كتاريخ العتي وليست في الغالب الا سلسلة حوادث مصوغة في القالب الشعري البسيط لا تتناول الا القليل من بديع التصوّر الذي يهيج النفس ولا مجال فيها للخيال . ومن هذا القبيل ارجوزة ابن عبد ربه ^(١) في اخبار الملك الناصر عبد الرحمن الاندلسي التي مطلعها :

سبحان من لم تحوّر اقطارُ ولم تكن تدركه الابصارُ
ومن عنت لوجهه الوجوه فما له ندى ولا شبيه

فهذه وامثالها مما لا يعدّ من نفائس الشعر القصصي ولا الموسيقى وقد شاعت هذه الطريقة في بلاد المغرب ونظموا فيها الموشحات المعروفة بالملاعب بالشعر العامي وابدعوا في بعضها ابداعاً يكاد يلققها بالشعر النصح ككلمة الكفيف المكاسي في السلطان ابي الحسن المريني ^(٢) هذا جلّ ما يمكن ابراده بالايجاز عن ملاحم العرب وهي كما ترى جامعة بين اعلى طبقات الشعر وادناها



(١) المقدنريد ج ٢ : ٢٨٨

(٢) ابن خلدون ١ : ٥٣١

الحقيقة والمجاز

التشبيه والكنابة والاستعارة

نظروهم يروى الى الحقائق نظرة الباحث الخبير فتجلت له من وراء حجاب الخيال .
وامعن في احوال الطبيعة حسنها ومعنويتها . فبرزت له باهى مظاهرها . فاستوحى
قيانه فأوحى اليه وحى الآلهة للانبياء

عمد الى الرمم غدير متكاث ولا متأنق والصدق مرماه . والبداية دليله
فسلك سبيلاً عدلاً غير ذي عوج فما تفتت ولا اضلته الجاهل
رأى ان الحقيقة في غنى عن التستر والتبرج فذلك يخفى جمالها وهذا يشوب كمالها
فابرزها على فطرتها فاذا بها فتانة للقلوب خلاصة للبهائر

علم ان معارضة الاشياء والنظائر من مزيلات الاوهام المقربات الى الافهام
فاكثر من التشبيه والمقابلة حتى الم بكل احوال البشر وسائر المخلوقات . وان
احسن شيء في تشبيهاته حلولها جميعاً نحلها . فاذا تجلت له الصورة رسمها
بصراحة واتسق غير مداح ولا محاذر فاطنب واوجز وصعد وهبط على
ما يقنضه الموقف

فاذا وصف فارسين متساوين شدة وبأساً شبههما بلبشين كما قال في مكطور
ونطرقل وهما يقتتلان حول جثة بطل طرودي : (ص ٨٥٢)

... وهكطور عن خيله نزلوا وفي طلب الجثة اقتتلا ...

كثيئين بينهما ظبيئة بها فتكافؤ طود علا ...

واذا وصفهما وقد ذل احداهما الآخر شبه احداهما بالبيت والآخر بالظبي كقوله

في منيلاوس وفارس : (ص : ٣١٤)

كالبيت يضوره السغب والظبي ليدى يفطرب

فعلبه منقضا يشب ولو القناصون اقربوا

بضراء تقبل للصد

واذا بدت له الشدة قبل النزال وحب البروز من الاعتزال رأى ان
الجواد العتي المنقطع على مربطه اقرب الى تلك الصفة من الليث لخله من عقاله
واجراه جري جواد امرى القيس (ص: ٢٠٠ و ٤٨١)

واذا نزل به الى ساحة القتال فانهزمت من وجهه الابطال عدل عن التشبيه
بالحيوان الفرد الى ما هو اوقع في النفس فثله بالسيل الجارف (ص: ٣٨٩)
وابرز لك بالتشبيه الصادق جميع صفات البشر وما يقابلها من صفات
الحيوان بجميع حالاته فنظر الى الكبير منها والصغير والقوي والضعيف والوحشي
والداجن فوصف الاسود والذئب والغرائص والمها والظبي والابلة وغير ذلك
مما لم يستدله الانسان . والخليل والحبر والبغال والكلاب والبقر والمز والغنم وغير
هذا مما دخل في حظائر الناس

وتناول الطيور من النسور والعقبان الى البط والاوز والرهو والغرائق
والزراير والحمام . وانعطف الى الزحافات والدبابات والديدان وانتهى الى الموام
والحشرات فوصف الافاعي وشبه بالصراصر والزناير والنحل والذباب و « ان الله
لا يسهي ان يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها »

ولقد عابه بعض المتسرعين على التشبيه بصغار الحيوان . ولكنك اذا نظرت
الى كل ما قال فيها علمت انه انما ذكر الشيء الحقير ليستخرج منه الامر
الخطير وتلك عبرة يجب ان ينظر اليها بعين الاعظام والاكبار . فاي تشبيه
لعمية تذود عن حوضها وتنفاني في الدفاع عن العرض والمال اوقع من قوله
قول الشفري مشبهاً بالنحل والزناير: (ص: ٢٥٥)

مثل الزناير ذبت عن خشارها والنحل لا يُغفل عن خليته
واي تمثيل لبيش كفيف يوم وجند من حول زعمائها تدور اصع من قوله
قول عنزة مشبهاً بالذباب: (ص: ٢٨٩)

حشوا بغمته في عذو غمضت يصلون نار انتقام داخل الكبد
مثل الذباب اذا حان الربيع وقد حامت بمنة راعي العنز والنقد

تمافت تبغى الابان هاجمة على القصاع بلا حصير ولا عدد
 وكل سيد قوم قام منفرداً بهم كراع بما يستاق منفرداً . . .
 ثم انه نظر الى الطبيعة فتناول بتشبيهاته منها كل ما بلوح للناظر ويروق
 الخاطر فوصف النار من القبس والشرار الى الحريق الذي يلتهم الغاب ويدمر
 المدن الكبار . ووصف الاهواء والانواء من النسيم العليل الى الزوبعة والعاصفة
 والاعصار الويل . وجميع المهابة من صبا ودبور وجنوب وشمال . والسحب
 والامطار من البخار المتصاعد حتى الغيم المتلبد ومن القطر الى الغيث المدرار
 والسيل الهدار . واحاط بالبروق والرعود وظواهر الجو من قوس قزح حتى
 الشهب الثواقب . وضرب في النياقي وصعد الجبال فمثل بالتشبيه جميع ما فيها من
 شجر وغاب وصخر وتراب ووصف الورقة الجفافة والشجرة السماء . وارلقى الى عالم
 الافلاك واتخذ ما شاء لموصوفاته من شمسا وقمرها وثوابتها وسياراتها . ثم
 خاض عباب البحر فاخذ بناصية حيثانه ونبثانه وسائر سكانه من حيوان ونبات .
 وتلقى عجابه واستقبل امواجه ومثله صافياً وساكناً ومشتدداً ومربداً ومزبدداً
 مرصداً . وجال الانطار وعبر الانهار فوجل جوف الارض فمثل ما فيها وما تحتها
 وما فوقها وما يكنفها من ماء وهواء

واذ فرغ من ذلك مد بصره الى احوال البشر فاخذ يقابلها بعضاً ببعض
 فما ألهام الملك القور والزعيم الجصور عن الجندي الفقير والطريد الكسير . وما
 اغفل عاملاً ولا صانعاً ولا تاجراً ولا زارعاً . وتطرق الى الشؤون البيتية
 فما غادر اباً ولا امماً ولا زوجاً ولا زوجة ولا اخاً ولا اختاً ولا ابناً ولا ابنة
 والم بكل قريب ونسيب . وبحث في اطوار الحياة فمثل حالة الشيخ والكهل
 والشاب والطفل . وهو في كل ذلك مستنفر الى الخير منفر من الشر يشتد
 موضع الشدة ويرق موضع الرقة . فيقف بك تارة ترقب العواصف والانواء
 وقد اكفهراً الجو واضطرب اليم ومادت الجبال وزلزلت الارض زلزالها ثم ينثني
 بك طوراً وقد هاج العاطفة واستنزل الحنان بالتمثيل النابذ والتشبيه السهل

المتنع قترى وصفه في معنم ذلك غريب الصنعة قريب الناول . فاي وصف
للائذ اصدق من لباذ الطفلة بامها اذ يقول : (ص : ٨١٣)

شفت كطفل جوت تسرع ورف دونها امها تهرع
فتعلق في ذيل اثوابها ومقلتها صبياً تهمع
وترسل طرفاً بليلاً اليها عناء بذلتها يشفع
ونجذبها وهي ضارعة لتحملها فكف البكا

واي تمثيل اصدق وارق من قوله مشياً موت فتى غص الاهاب في مقبل
الشباب وقد مال رأسه على صدره وهو يحضر : (ص : ٥٣٤)

فأرأس الفتى لما بجنته مني يغفرو المسرود أثقل يغني
كرهرة خشخاش يبانع روضة بثقلها طل الربيع فتثني

ومن مزايبا شعره انه كان يطلق عنان التصور في التشبيه فلا يوقف القول
الا حيث وقف الخيال فقد تناول تشبيهه ابياتاً وتدرج طيه تشبيهات اخرى
وقد يشبه في شطر او بعض شطر . وهذا ايضاً من مزايبا الشعر الجاهلي التي اسلفنا انها
ضعفت في المولدين وان اجادوا الرسم كابن المعتز ما خلا افراداً قليلين تناولوا
المعاني فألّوا بجميع اطرافها كابن الرومي

وكان مبغضاً للاغراب باللفظ والمعنى لا يقول الا ما ترضاه الخاصة وتقبه
العامة بنتحي نجارة الفطرة وإنطاق الطبيعة يسمى الى الحقيقة ولا يتوخى المجاز
فلا يتطلبه في شعره ولا يتجنبه اذا عبّر عن فكره . ولهذا كان كالجاهليين من
العرب كثير التشبيه قليل الكنابات والاستعارات لا يأتي المجاز الا مرسلأ
فجاء جميع ما ورد منه في شعره آية في بابه على فله كقوله (ص : ٨٣٩)
واغمض عينيه ستر المنون . وقوله (ص : ٥٩٤) او تفغر الحرب المهدة النما .
وامثال ذلك من الاستعارات البسيطة السهلة

البدييات

اما بديياته فحدث عنها ولا حرج . فلقد تراه يخوض بحر المعاني فينثر

ما النقط منها من ابكار الافكار ثم بلفت يميناً وشمالاً فيدرك بعين بصيرته ما طرق فكر سامعه فيمدُّ بصره الى مخيلة ذويه الالباب منهم ويستخرج ما ارتسم في اذهانهم بسباق الحديث فيعبر عنه ببداهة ترتاح اليها النفس ويطمئن الخاطر . فاذا اتى مثلاً على وصف وقعة القتم فيها القتال وتلاحمت الرجال وتعالى الصياح وتألق السلاح علم انه يجيب السامع شيء من البديهيّات المطروقة فقال له :

والارض تحت الرجل والمجلد مادت لثقله هاته الملل
او قال : وكان السهول طارت شراراً بسير الاغريق فوق السهول
او قال : وفوق الصدور الطامحات تألقت صوامعهم والامر اي تألق
وامثال ذلك من المعاني التي لا يحتاج فيها الى شعذ ذهن واعمال فكرة .
وهي مع هذا ليست مما يستهان فالمعنى البديهي اذا حلّ تحله خف على الطابع
وقد يؤثر بحسن وقعه على كثرته تأثير المعاني المبتكرة على قلتها

النقل والسرقة وتوارد الخاطر

يسوفنا واجب الاستطراد في هذا البحث الى مواخذة بعض الباحثين في الشعر العربي اذ يذعنون البديهيّات موضع المبتكرات فينكرون على كل شاعر متأخر ان يتحل معنى سبق اليه فيخلطون بين السرقة وتوارد الخاطر . فلهذا لا نرى رأي صاحب « الابانة عن سرقات المتنبي » بقوله ان ابن الرومي وابا الهندي ومحمد بن هاشم العاري والمتنبي تنافلوا بعض من بعض معنى طول اللين فقال ابن الرومي :

فكانَ ليلتنا عليّ لطولها ثبتت ففُض عن صباح الموقف
وقال ابو الهندي :

يا ليل هل لك من صباح ام هل لنجحك من براح
وقال العاري :

اللياذة الشعر العربي — النقل والسرفة وتوارد الخواطر * ١٨١ *

سهرت لي فقوم العين متبول
وقال المنبي :
كأن لي يوم الحشر موصول

من بعد ما كان لي لي لا صباح له
فهذا من المعاني البديهة التي لتوارد فيها خواطر الشعراء وغير الشعراء . وإنما الفرق
في التعرف فيها أفلا ترى ان كلاً من الاربعة تصرف تصرفاً ثغافاً للآخر
ومثله قول صاحب « الموازنة بين ابي تمام والبحتري » ان ابا تمام كان ناقلاً
لما قال :

كان بني نهبان يوم وفاته
اخذه من قول جرير في رثاء الوليد بن عبد الملك :
امسى بنوه وقد جلت مصيبتهم
او من قول ريم بنت طارق وهي ترفي اخاها :
كنا كأن نجم ليل بينها قر
ومما اخرى هذا المعنى ان يكون شائعاً في امّة صفا جو ارضها وسامرت
القمر والنجوم طول ليلها . فليس هذا كله من باب النقل وإنما النقل في مثل
ما استشهد به صاحب الابانة من قول المنبي :

حتى رجعت واقلامي قوائلي
اكتب بنا ابدًا بعد الكتاب به
المجدد للسيف ليس المجدد للقلم
فانما نحن للاسياف كالخدم
فهو مأخوذ عن قول ابن الرومي :
كذا فقى الله للاقلام مذ خلقت
ومثله ما استشهد به صاحب الموازنة من قول ابي تمام :
مضوا وكان المكرمات لديهم
فانه منقول عن ابي نواس اذ قال :

سنّ للناس الندي فندوا
فكان الخجل لم يكن
واما شعراء اللاتين والافرنج فلم يحاذروا مثل هذه المحاذرة في نقل امثال

❖ ١٨٢ ❖ الاياذة والشعر العربي - النقل والسرقة وتوارد الخواطر

هذه المعاني ولا سيما بالنظر الى الاياذة فانهم اغاروا عليها غارة شعواء فطارقوا
بمعانيها اجياد منظوماتهم من الملاحم الى التمثيلات الى القصائد فنقلوا ونسخوا
ومسخوا وسلخوا واقتبسوا وعارضوا وضمنوا وتصرفوا وم في الغالب لا يصرمون
السرقة بل يفاخرون ان يعلم انهم تحدوا هوميروس حتى لو نظرت الى تلك
المنظومات. لرأيت المعاني الهوميرية مزدحمة فيها بتصرف او بغير تصرف ولا سيما
مما ابعده هوميروس يصبر فاستنبطه بالتصور من الماثلاث البديعة او استخرجه
بالتشبيه من مكنونات الطبيعة كقوله في مثل معنى امرىء القيس بوصف جواده :

(ص: ٦٩٩)

وهب الطراود والتصقوا وفي الصدر مكطور مندفق
كجلمود صخر قد انتزعا من الثم سيل به اندفعا
له الغاب مرتجة ترتجف الى القمر حيث بعنبر يقف
فنقله قرجيلوس الى « اناذته » اللاتينية فقال (ن ١٢)

*Ac veluti montis saxum de vertice praeceps
Quum ruit avulsum vento, seu turbidus imber
Proluit, aut annis solvit sublapsa vetustas,
Fertur in abruptum magno mons improbus actu,
Exsultatque solo; silvas, armenta, virosque
Involvens secum:....*

واخذه عنه تاسو الايطالي فقال « في اورشليم » : (ن ١٨)

*Qual gran sasso tal hor, che o la vecchiezza
Solco da un monte, o svelle ira de' venti
Ruionosa dirupa, e portu, e spezza
Le selve, e con le case anco gli armenti
Tal giù trahea de la sublime altezza
L'horribil trave e merli, e arme, e gente,
Diè la torre a quel moto une, o duo crolli;
Tremar le mura, e rimbombano i colli.*

ومثله قوله بلسان زفس بعد مشاجرة بينه وبين اخيه فوسيدون اسفرت عن
ارعواء فوسيدون واستكانته : (ص: ٧٨٦)

اللياذة والشعر العربي — النقل والسرقة وتوارد الخاطر * ١٨٣ *

ففسيد في بطن العباب قد التجا ومن نار غيظي في حزازته نجبا
والا لأهمت فانتكات أ كفننا بنا عرقاً بهي به كل عارق
وكان اصطداماً بالعوالم يحدق ويزعج ارباب الجحيم وبقلق
فيا نعم مسعاه له ولعزّي فإنا كُنينا فلق تلك الفلائق
فاخذهُ ملائكة الانكليزي لوصف ارتداد جبريل عن ابليس فقال في « فردوسه »

.....Not only Paradise
In this commotion, but the starry cope
Of heav'n, perhaps, and all the elements
At least had gone to wrack, disturb'd and torn
With violence of this conflict, had not soon
Th' Almighty, to prevent such horrid fray, &c.

وكثيراً ما نقلوا عنه التصورات الغريبة والمعاني الطويلة المشبعة بأصولها
وفروعها وأصروا فيها كما نقل قولتير الفرنسي نجوى زفس للطرواد اذ قال :
(ص : ٦٢٦)

(كتيبة تلك ضمت جلم عدداً جنداً اتمد الى كيد العداة بدا)
كادت تجوز حفير القوم عابرة اذا بطير لها تحت السماء بدا
فاستوقفت جزعاً في الجرف حائرة تطيراً وهو عن يسرى السرى وردا
نسر نخالبه في الجو قد نشبت بافعوان خضيب تحت قبضته

فالانفوان وفيه لم يزل رَمَقُ ما بين اظفاره في الجو يصطفقُ
حتى عليه التوى بالعنف بلسه في بارز الصدر حيث التفت العنقُ
فصاح عن المِ مرّةً واقلته وراح تحت مهبّ الريح ينطلقُ
والأنفوان هوى للارض مخضباً حياً وطروادة ارناعت لرويته
فقال قولتير منصرفاً ومتفتناً في مقدمة منظومته « كاتيلينا » :

Tel on voit cet oiseau qui porte la tonnerre,
Blessé par un serpent élané de la terre;
Il s'envole, il entraîne au séjour azuré
L'ennemi tortueux dont il est entouré.

*Le sang tombe des airs. Il déchire, il dévore
Le reptile acharné qui le combat encore;
Il le perce; il le tient sous ses ongles vainqueurs;
Par cent coups redoublés il venge ses douleurs.
Le monstre, en expirant, se débat, se replie;
Il exhale en poison les restes de sa vie;
Et l'aigle, tout sanglant, fier et victorieux,
Le rejette en fureur, et plane au haut des cieux.*

وان امثال هذه المنقولات عن المعاني الهوميرية مما يملأ الاسفار ولم يُعَبَّ عليها هؤلاء الشعراء الا من. تعمّد السرقة وشفّ نهجه عن ادعاء الابتكار على نجو ما نرى الكثيرين من المطفلين على الشعر في هذا العصر

فعل الحضارة في استهجان المستحسن

واستحسان المستهجن في التشبيه والمجاز

إنّ ممّا بُهِتَ له بعض المتأخرين من نقلة الأياذة واشكل عليهم في لغاتهم تشبيه الانسان في بعض احواله بانواع من الحيوان ينظرون اليها بعين المهانة ويضعها هوميروس موضع العزة والكرامة . وهذا ولا ريب من نتائج طول العهد بالحضارة . ولا أعلم أهي حسنة لهذه الحضارة تُمدح عليها أم سيئة تؤاخذ عليها وانما اعلم ان في اصناف كثيرة من الحيوان مزايا يمز على الانسان ان يتصف بأحسن منها . ولا اذكر حيواناً تقادم العهد على وضعه موضع الحسن والمهوان كالكلب فقد عرّض هوميروس بذكره مراراً للسباب والتحقير وهكذا فعل اكثر الكتاب من المتقدمين . وفي شعر العرب وكلام مؤرخيهم وادبايهم من هذا المغنى ما لا يدركه حصر فلا يكادون يشبهون الى شخص يريدون ازدرائه او شتمه الا قالوا « هذا الملعج الكلب » و « هذا الكلب البذي » وما اشبهه . فكأنهم تناسوا جميع ما في هذا الحيوان الامين من كرم الخلال واغاروا على شيء من الدناءة فيه وان كان لم يستأثر بها دون سائر الحيوان ناطقاً كان او غير ناطق . ومع ذلك فقد وثى هوميروس كل صفة حقها . فهو اذا وصف الكلب بالبذاءة فما اغفل

سائر ما فيه من الحاصل فأطراً أمانته ومهارته في نقفي القنينة وبسالته في تأثر الضواري . وفعل فعله شعراء الجاهلية مما عارضناه بشعر هوميروس في موضعه
واما ما بقي من الحيوانات فقد اقتطع منها هوميروس صفات حميدة وصف بها كبار قومه وكرامهم وهو ما اردناه بقولنا انه اشكل على بعض كتّاب الافرنج وثقل عليهم نقله الى لغاتهم . فاذا شبه رجلاً صبوراً بالحمار رأيتهم يتشاقلون بنقل الكلمة بل ربما اكلوا الحمار برمته كما فعل يوب في النشيد الحادي عشر وعذرهم في ذلك انه يشوه وجه ترجمتهم . واذا شبه هوميروس عظيم القوم بالثور عظم عليهم الامر وحسبها ورطة يجب التماس منها . وربما بدلوا حيواناً بحيوان فجعلوا الخنازير دبةً والكلاب ذئاباً وهم يزعمون انهم لطّفوا المعنى ولا اخلّم فعلوا

ولستُ بمنكرٍ ان الانقلاب الذي طرأ على مفاد التعبير عندهم قد أصابنا منه شيء كثير . فليس منا من يستحسن تشبيه كريمة قوي الجنان رابط الجأش بالحمار ولا تشبيه باسلي مغوار بالخنزير . على ان اليقين ان ابناء الجاهلية من كل قوم لم يكن هذا شأنهم ايام كانت الفطرة تأخذ بالظاهر ولا تتكلف التأويل . ولتشبث بالحقيقة مهما ثقلت

وحسبنا ان نرجع الى ايام جاهليتنا وما وليها من مُقْتَبَل الاسلام ونتصفح معاجم لغتنا فنرى ان هوميروس لم يأت شيئاً قريباً — قال في اساس البلاغة « الثور الفحل من البقر والسيد وبه كنّي عمرو بن معدى كرب » . وبما يذكر هنا استطراداً ان الثور لا يزال لقباً مكرّماً في السودان . ويقال مثل ذلك في الجَدَع بمصر وهي من الجَدَع . وفي محيط المحيط الجَدَع من البهائم قبل الثني والشاب الحدث ومنه قول دُرَيْد :

يا ليتني فيها جَدَع اخب فيها وأضع

وفي كتب اللغة الكباش الحمل وسيد القوم وقائدهم والمنظور اليه فيهم ومنه قول لبيد :

بكتائب رجح ا تعود كبشها نطح الكباش كانهن فجوم
وقول اسد بن ناعصة :

ولرب كبش كتيبة غادرته يكو لجهته مريماً اطحلا
متنجماً قد دق في حيزومه صدر القناة على الفرار بعدلاً
والقرم الفحل ثم استعمل للسيد العظيم على التشبيه له بالفعل وقد اجتمعا في
قول المتنبي بمدح سيف الدولة

ولكننا نداعب منك قرماً تراجمت القروم له حقافا
اي نمازح منك سيداً صارت الرجال بالنسبة اليه كالنبايق بالنسبة الى
فحول الجمال

والرث الخنزير الذكر وأجرى مجازاً على الباسل المقدام فيقال هو رث من
الرتوت وهو من رتوت الناس اي من عليتهم وسادتهم (اساس)
والقبُّ الجمل والرئيس والملك . والفنيق الفحل المكرّم من الابل لا يؤذى ولا
يركب . والسيد المسنن من المعز والرئيس . والأصيد الملك والبعير الذي فيه داء
الصيّد وهلم جرّاً

ويقال مثل ذلك في بعض ما برز من اعضاء الحيوان كالناب والمخروطوم
والانف والقرون فهي وان كانت مما قد يستهان به الآن لم يوضع اكثرها في
الكلام عن الناس الا للرفة والسيادة . فاذا راجعت كتب اللغة قرأت : الخراطيم
اسياد القوم . انياب القوم ساداتهم . ومنه قول الشاعر

كنت لهم في الحدّثان نابا التي العدى وضيغاً وثأبا
ولم اكن هردبة وجأبا (اساس)

القرن السيد تشبيهاً بقرن الثور لبروزه . انف القوم سيدهم ومنه قول الحطيئة في
بني انف الناقة

قومهم الانف والاذناب غيرهم ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا
ولا عبرة بما قيل ان العرب كانت تعين بني انف الناقة بذلك اللقب

وليس النعت بهذه الاوصاف مما خُص به بنو الجاهلية بشعرهم بل اتضل منه شيء بشعراء التابعين والمولدين حتى انه لا يندران نرى شيئاً من هذه الالفاظ في كلام المؤرخين كقول العتبي في السلطان محمود بن سبكتكين واقبل كالفعل الفتيق . ولا تكاد تجد مؤرخاً لا يقول قول ابن خلدون : وكان فحل ذلك الشول وكبش تلك الكتائب الخ . واثال هذه الالفاظ لا تثقل على مسمع العربي حتى يومنا . بل لا يزال بعضها مما يحلّى به جيد الكلام

واننا بهذا الاعتبار نقسم هذه الالفاظ الى اربعة اقسام : ما أهملت حقيقته ومجازه كالزيت والقَبّ فلا نرى من يستعملها لانسان ولا لحيوان وما بقيت حقيقته ومجازه كالفعل والكبش فاما وان كانا موضوعين للحيوان فقد يوصف بهما الانسان وصف تكريم فنقول هو فحل من فحول الشعراء وكبش من كباش العبياء

وما أهملت حقيقته وبقي مجازه كالجدع عند العامة في مصر فهي اما تستعمل للاطراء وان كانت لا تزال على معناها الوضعي في اماكن اخرى وما أهمل مجازه وبقيت حقيقته كالثور والحمار وهو اكثرها . فما منا من يرضى ان يلقب حماراً ولو قيل له ذلك كان لقب مروان بن محمد الخليفة الاموي الحازم لقب به على ما اجمع المؤرخون لصره ورياسة جأشه وشجاعته . قال القرماني : ويقال في المثل فلان اصبر من حمار في الحروب . وهو ايضاً اللقب الذي لقب به يعقوب ابنه يسأكر في التوراة . وليس من يسره ان يكنى بالثور وان كانت تلك كنية عمرو بن معدى كرب سيد العرب . وما من احد يرنح ان يقال له انف الناقة وان وضع الخطيئة ذلك اللقب موضع رفعة واجلال . وقد نأبى ان يعرف احدنا بالجلل وان عُرِف به ابن عم النبي حمزة بن عبد المطلب . على اننا من وجه آخر لا نرى غضاً من قدر من يلقب بالسرطان وان كان ذلك لقب الذئب او يكنى بأبي خالد وان كانت تلك كنية الكلب

مزية العربية على لغات الافرنج في هذا الباب

لما كنت قد آليت على نفسي ان لا احرف الكلام عن مواضعه وان لا اعبث بوصف او تشبيه فأميل به عن اصله الوضعي تفادياً من ثقل على الآذان عمدت الى نهج يفي بالمرامين: استبقاء الاصل على وضعه وبند الالفاظ التي باتت بعرف الحضارة من باب الحوشي الساقط في المدح فلا يمدح بها كبير ولا صغير. وفي لغتنا والحمد لله متسع فسيح لمثل هذا المجال بخلاف لغات الافرنج التي لا تعاد لكتابتها عن استعمال اللفظة بعينها والا اضطرروا الى تبديلها او اغفالها اصلاً

فاذا عرض لي مثلاً تشبيه رجل باسلي بالخنزير الذكر بنسج لي باب في كتب اللغة لانتقاء كلمة اخرى فاقول الرث او الخرنوص فلا اغير شيئاً من المعنى واكتفى مؤونة آفة القارى. واذا اضطرت الى استعمال لفظة الحمار بمقام المدح وهو تشبيه شبه به اياس البطل الباسل عمدت الى كلمة اخرى فقلت « الجأب » وهو الحمار بعينه

واذا آتست رنة خشنة على الأذن بذكر الكلاب بهذا اللفظ قلت « النواص » و « الغصف » و « الضراء » وما اشبه

واذا خشيت هجنة بان يقال فطيع البقر قلت « الصوار » وهو هو ولزيادة الايضاح اضرب لك مثلاً واحداً مما ستري اشباهه بمطالعة الليادة : اطراً الشاعر بسالة مكطور (ص : ٥٣٦) في واقعة فشبهه وهو يتمقب الاعداء بالكلب الذي يتأثر الاسد المذعور او الخنزير البري فقال :

ومكطور صدر الجيش يجري ويلغب وبكساً في الارداد من يتمقب
كأغصف هول قد تأثر ضعفاً ندعراً او خرنوص بر يككب
فاراني لو قلت : ككلب كبير قد تأثر ضعفاً او خنزيراً الخ لما زدت على المعنى ولا انقصت ولكن شتان ما وقع هذا التعبير وما ذاك على السامع

الخاتمة

قال بعضهم :

للسادة الشعراء فضلٌ ثابتٌ ولم مقامٌ شامخٌ ومكانٌ
وم سلاطين الكلام ألا ترى كلَّ امرئٍ منهم له دِيوانٌ
نظر صاحب هذين البيتين الى الشعر العربي من حيث انه دليل البلاء
وجبة اللغويين وشاهد الخطأ والصواب . ولكنه لو أراد الزيادة لقال ان سلطان
الشعراء يمتدُّ الى ما فوق ذلك . وان الشعر ريحانة النفوس ومبدد البؤوس .
وقد كان في غابر العهد سيجل الحكمة ومنهل النعمة ونعط الفخار ومطمح الابصار .
وان شاعرًا واحدًا كان يرفع قبيلةً ويخفضها ويعزُّها وبذلُّها فينهذ كلامه في
الاحساس ولا تفوذ احكام الامر المستبد بالناس . وان سلطة الشعراء في الجاهلية
كانت تباري سلطة الرؤساء . والقبائل تستثمر سلائق النتيان أبيان توسمت فيها
الذكاء استثار بني الحضارة كلَّ غرس زهبي وفرع زكي . فاذا نبغ فتاه وقال
قولاً نافذاً تباشر به الكهول والشبان والشيوخ والولدان وخرجت النساء بالزاهر
وغنبن ورقصن وقلن اذف الفرج فقد صينت الاعراض وحفظت الانساب
وارتفعت الاحساب وحُمي الدمار وتخلدت الآثار . وطارت البشائر فأقبلت الوفود.
من سائر العشائر كأنهم في يوم نصرٍ عظيم

ولطالما قال شاعرهم ابياتا فتناقلتها الركبان واومضت وميض البرق فبهريت
الانظار وقضت الاوطار . — قالوا ان الاعشى الاكبر كان يأتي سوق عكاظ
في كل عام فيتجاذبه الناس في الطريق للضيافة طمعاً بهدحه اياهم في سوق عكاظ
فمرَّ يوماً ببني كلاب وكان فيهم رجل يقال له الملقى فقير الحال ضيق المعاش
وله ثمانى بنات لا يخطبهنَّ احد لمكان ابيهنَّ من الفقر ونحول الذكرك . فقالت له
امراته ما يمنعك عن التعرض لهذا الشاعر وإكرامه فما رأيت احداً اكرمه الا

واكسبه خيراً فقال ويحك ما عندي الا نافي فقالت يخلفها الله عليك . فتلقاه
 قبل ان يسبق اليه احد من الناس . وكان الاعشى كفيفاً يقوده ابنه فاخذ
 المحلق بخطام الناقة فقال الاعشى من هذا الذي غلبنا على الخطام فقال فتى
 شريف كريم . ثم اتى به منزله واكرمه ونحر الناقة وجعلت البنات يدرن حوله
 ويبالغن في خدمته فقال ما هذه الجواري حولي فقال المحلق بنات اخيك وهن
 ثمان نصيبن قليل فقال الاعشى هل لك حاجة فقال تشيد بذكري فلعلني اشر
 فتخطب بناقي فنهض الاعشى من عنده ولم يقل شيئاً فلما وافى سوق عكاظ انشد
 قصيدته التي انشأها في مدحه وهي التي يقول فيها

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة الى ضوء نار بالبقاع يخرق
 تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحاق

فاشتهرت القصيدة ولم تمض على المحلق سنة حتى زوّج بناته وبسرت حاله
 وان في كتب العرب من اخبار شعراء الجاهلية ما لا تعد هذه الرواية بجانبه
 امراً خطيراً

وكان المولّدون مع تبذل الجمل الغفير منهم وانحطاط منزلاتهم عن شعراء
 الجاهلية ينالون بشعرهم ابد المطالب . — روى ابن خلكان انه قدم بين يدي
 المأمون نصر بن منيع وكان قد امر بضرب عنقه فقال نصر يا امير المؤمنين اسمع
 مني كلمات افولها فقال قل فانشأ يقول :

زعموا بان الصقر صاد مرة عصفور برّ سافه التقدير
 فتكلم العصفور تحت جناحه والصقر منقض عليه بطير
 اني لمثلك ما اقم لقمة ولئن شويت فاني لحقير
 فتهاون الطير المدل بصيده كرمًا وافلت ذلك العصفور

فعفا المأمون عنه

واما الاموال التي كان يستدرها الشعراء بشعرهم فما يفوق التصوّر . وم
 وان كانوا يجازون بها احياناً بحاذرة من هجوم والجمام لا لستهم فكثيراً

ما كانوا ينالونها بما اطربوا وارقصوا وخذلوا العقول . — ذكروا ان ابن باجة
التيجي آخر فلاسفة الاسلام بالاندلس انشد ابا بكر الصخراوي صاحب سرقسطة
موثقا في مدحه فاطر به حتى كاد يفقده الرشد فما بلغ قوله :

عقد الله آية النصر لأمير العلا ابي بكر

حتى شق الممدوح ثوبه من شدة الطرب وحلف لا يمشي ابن باجة الا على
الذهب نفاق الشاعر عاقبة الامر فجعل في نعله ذهباً ومشى عليه

تلك كانت منزلة الشعراء عند العرب في سالف الزمان وتلك هي ايضا
منزلتهم في سائر الملل . فان في اخبار شعراء الفرس ما يفاهي اخبار شعراء
العرب . وقد علمت ان اليونان ما زالوا يصعدون بهوميروس حتى اخرجوه من
مصاف البشر واصلوه بين الآلهة وبنوا له المعابد . وكانوا يتماكظون ويتنافرون
ويتنافسون ويتعسسون على نحو ما كان يفعل العرب في سوق عكاظ وشعراؤهم
في كل ذلك كحيل الرمان « فالسابق السابق منها الجواد » . — ذكروا ان
فنداروس الشاعر الموسيقي الذي نبغ بعد هوميروس باربعة قرون كان اذا جلس
للانشاد في الحفلات الاوليية وغيرها تحس له الشعب وشقت نعرتهم كبند السماء
وكللوه باكاليل الظفر . فلما مات اخذوا الكرسي الذي كان يجلس عليه في موقف
الانشاد ووضعوه بين انصاب الآلهة يشاد له اهل ثيبس هيكلاً واقاموا له
فيه نصباً وهو بعد حي . ولما اكتسح الاسكندر بلدة ثيبس ودمر بيوتها أمر
ان لا يُمس بيت فنداروس بسوء

وكم من شاعر اثار خواطر أمة بأسرها فاستنفر واجب واستصرخ فتألبت
له جيوش الكلام فغلبت كئائب الحسام . وفي الاثر ان صاحب الشريعة الاسلامية
كان ينصب لحسان بن ثابت منبراً في المسجد يقوم عليه ينافع عنه فكان
ذلك على قریش اشد من وقع النبل . وان حسناً قال له « لاسلك منهم (اي من
قریش) سلاً الشعرة من العجين ولا فريتهم فري الاديم » فصب على قریش من
هجائه شأبيب شر فقال له « شفيت يا حسان واشفيت » ثم قال « حسان حاجز

بيننا وبين المنافقين»

وليس العهد ببعيد بما كان من نفوذ سهام الشعر البليغ في بلاد المغرب من عهد بيزن إلى هذه الايام
ولسنا بآملين في هذا المصراع ان يشب شعراؤنا الى تلك المنصة الشائخة وانما نطمح ان يظلوا سائرين بنهضتهم سيرا حثيثا ويمجروا نيار الترفي فلا يطدو عليهم . ولم في ذلك الفوز والفلاح والامة الخير والصلاح

قال ابو بكر الخوارزمي « من روى حوليات زهير واعذارات النابغة وحساسيات عنزة واهاجي الحطيئة وهاشميات الكيث ونقائض جرير وخمريات ابي نواس وتشبيهات ابن المعتز وزهرات ابي العتاهية ومراثي ابي تمام ومدائح الجعدي وروضيات المنوبري ولطائف كشاجم ولم يخرج الى الشعر فلا اشبه الله قرنه » وهو كما نرى قول متحسٍ مولع بالشعر وقد انالته الفطرة منه حظا وافرا . والا فالخروج الى الشعر متعذرا على من لم يكن ذلك في طبعه . على ان هذا القول صادق على من كان الشعر في سجيته فان مطالعة نفيس الشعر تشخذ الذهن وتهذب اللفظ وتحلو المعنى فتستقيم بذلك وجهة الشاعر المطبوع واللغة العربية شعربة بطبعها لتفرع مفرداتها وتنوع اشتقاقاتها القياسية على اسلوب لا يرى له مثل في اللغات الآرية . والقواري مزدحمة فيها ازدهاما يسهل النظم . وهي بخلاف ما يزعم بعض الاعاجم جزلة التركيب تحكة الانجم . وفيها من طرق الحذف والتقدير والتأخير ما ينفس معه المجال للشاعر لصوغ عبارته على قوالب شتى . وتلك مزينة تمسح عليها اللغة في الشعر وان عيبت في النثر حيث يقصد الجري على نمط واحد جلي . وهي على الجملة متسعة للشعر اكثر منها للنثر . فشمعها منذ القدم ارفع طبقة من معظم نثرها وجيده اسهل منلا من جيد النثر حتى لقد تجد النثر شمرا في كثير من الاحوال

ولا شك ان الرمان قد طوى كثيراً من الفاظها الوضعية . ولكن ما بقي منها فوق حاجة الشعراء إتأدية المعاني الفطرية والافكار البديهية والادوصاف الخلقية والحقائق الحكيمية وسائر ما توخى تدوينه قدماء الشعراء كهوميروس وفنداروس وفرجيليوس وهوراس . ففي بهذا المعنى لا تقصر بشيء عن لغة الالباذة اليونانية المشهورة بمجالة تركيبها ورفقتها وانسجامها وإحكام وضع المفردات فيها ولا ترجع اليونانية على العربية الا باتساعها لمشاكلة الالفاظ للمعاني وتوفر اسباب النحت فيها للصوغ الالفاظ المركبة . وفي ما سوى ذلك لا اخال لها رجحاناً بل ترجح العربية في اتساع المفردات وتشعب طرق التركيب والخروج بقياس الاشتقاقات الى ما لا نهاية له من المعاني

واقدر بدا لي اثناء التعريب من ثروة العربية في الالفاظ الوضعية القديمة ما اغتاني عن الانحراف بالمعنى على نحو ما اضطرر اليه بعض نقلة الافرنج على ما تقدم في الفصل السابق . ورأيت من المماثلة بين اللتين في دقة الوضع ما يدهش له الناظم والناثر . وينبئك ذلك ان العرب لم يغفلوا وضع شيء من الالفاظ الدالة على جميع مطالعاتهم وتحسوساتهم حتى اصبحت مفردات اللغة في زمنهم رايية على حاجة التعبير ولا سيما في الحسيات . وما هذا النقص البادي الان في إحكام التعبير وخصوصاً في المنويات الانتيمة إهمال الخلف اقتفاء آثار السلف

وهو معلوم ان الالباذة أنظمت في زمن كانت احوال المعاش فيه قريية لاحواله بين قدماء العرب . ولهذا كان على العرب ان يقابل معانيها بما رادفها من لغة العرب بلا انحراف ولا تأويل واللغة منسعة لذلك . فاذا وصف لناظم السلاح وهو سلاح العرب ففي اللغة لفظة بل الفاظ للدلالة على كل ما قال من الشككة اي السلاح الكامل الى الحبر . فلا يُعدم الناقل وسيلة للتعبير عن كل ما ذكر من السيوف والمدى ومناصلها واغادها . والرياح والزجاج وكوبها واستنيتها وصعدها . والدلاص والابدان والدروع وحلقها وزردها وتروها . والحوذ

والتراثك والمغافر ويضها وقوانسها وعذاباتها . والتروس والجواشن وحرايتها وحماثلها
وهذائها . والقسي وما لازمها من النبل المقذذ والسهم المريش والوتر والفوق
والفرس والسرية والنيك . وسائر ما أهمل أو كاد يُهمل من معدّات العجوم
والدفاع كالفأس والمخدفة والفطيس — وإذا اتى على ذكر الخيل فما من لغة
أوسع من العربية بأوصافها وتمثيل عدوها وجربها وتطبيقها وتقريبها وحضرها
وارتفاعها — وإذا ذكر الحروب وعليها مدار الإلياذة فلم تفتن أمة فوق العرب
بوصف القتال والنزال والمجاول والمصاوله والمشق والرشق والحذف والقذف والماصمة
والنفع بالمناصل والضرب بالمغاول والوخز بالعوامل . وقس على ذلك جميع ما تناول
وصف الاحوال المعاشية والروابط القومية والاحكام العرفية والمناظر الطبيعية من
وما دى وهضاب ومطير وسحاب وبحر وبر وزرع وخرع وماء وهواء وارض
وسماء . — بل قد تجد خزانة العربية اجمع وثروتها اوسع بما حوت من الالفاظ
المفردة التي لا يعبّر عنها في لغات الاعاجم الا بعبارات . وفي موردك لك الآف
امثلة مما عبّر عنه في اليونانية بكلمات فأكثرت ويتيسر رده في النقل العربي
الى كلمة واحدة في الافعال والاداءات والموصوفات . ذلك كالتسلب للجواد الطويل .
والاجيد للجواد الطويل العنى . والاجرد للفرس القصير الشعر . والقبط للغيل الضامرة
والقياديد للغيل الطويلة . والتبييع والتبيعة لولد البقرة لحول واحد والحولي لابن
سنة من ذوات الحوافر وغيرها . والسديس للذي اتم خمس سنين . والجبهاء للعريضة
الجبهة . والأكبس لمن اقبلت جبهته وادبرت هامته من الناس . والطسور
للقوس البعيدة الرمي . والزجاج والمطارد للرماح القصيرة . والثلة لجماعة الغنم والمعر .
والزعيل للقطعة من الخيل . والصوار لقطيع البقر . والدسيع لفرز العنق من الكاهل
والوتيرة لما بين المنخرين . والبأديل للعم بين الابط والتندوة او لم الثدي . وصريح
بمعنى رمى ولم يُصِب وامثال ذلك مما ستري منه في الإلياذة شيئاً كثيراً
ومن جميل المشاكلة بين اليونانية والعربية في الاصل والتعريب على نمط
واحد جري بعض الالفاظ تجري واحداً باللغتين في الحقيقة والمجاز . فمن ذلك

ما تشترك فيه . معهما لغات كثيرة كإطلاق لفظة (γερωντες) الشيوخ بطريق
الجاز على الزعماء وكبار القوم . ومنه ما لا يكاد يبعداها الى غيرها كاستعمال
لفظة (خبي) (χαινη) للشعر وورق الشجر ويقابلها الفرع بالعربية
وبين اليونانية والعربية فرق كبير في نسج العبارات وتركيب الجمل من
حيث التقديم والتأخير وصيغ الاشتقاق والجمع والحروف والنحت وتركيب الاسماء
ولكن نهج كل لغة حسن في بابها واسباب الفصاحة متيسرة لابناء كل لغة اذا
احكموا الرصف على نهجهم

ولكن للعربية مزيتان في مفرداتها تقصر اليونانية وسائر اللغات عن مجاراتها
فيها . وهما كثرة المترادفات في الالفاظ الدالة على المعنى الواحد وتعدد المعاني
للفظة الواحدة . فقد ذكروا عشرات ومئات من الالفاظ الموضوعة لمسميات
مميّنة من الحيوان كالاسد والحية والبعير والناقة والفرس والثور والكلب والحر .
والما كولات كالتمر واللبن والعسل . والمشروبات كالماء والخمر . والسلاح كالسيف والرمح .
والصفات كالطويل والقصير والكبير والصغير والشجاع والجبان والكريم والنجيل .
وغير ذلك من ما لو فهم كالنور والظلام والشمس والقمر والسحاب والمطر والتراب .
والحجر . ولم مثل ذلك في الافعال . فقد عدّ احدهم اكثر من الف فعل
يمكن اطلاقها على معنى واحد . ويقابل ذلك تعدد معاني اللفظ الواحد فاذا
نصفحت معاجم اللغة وقرأت باب افعال والحال والمعين والعجز وامثالها تولاك
الحجب لكثرة معاني كل كلمة منها

ولقد يعلم اللبيب ان كل تلك المترادفات لم توضع في اللغة على نية الوضع بل وقع ذلك
اتفاقاً : إما لمنقول عن الاعاجم . واما لاختلاف المدلولات في لغات القبائل المتباعدة .
واما للمع صفية مقصودة بتغيير بها المعنى تغييراً طفيفاً لا يشعر به لوحدة المسمى .
فالخمر مثلاً انما سميّت كذلك لاختيار موادها فاذا قيل الراح لمع الى الروح
والارتياح . او الرحيق نُظر الى صفاتها وطيب رائحتها . او السلبيل قصدت
سهولة مساعها وهلم جرا . ولكن هذه المميزات فقدت في الاستعمال واصبحت

المترادفات متشابهة يقوم كل منها مقام الآخر مع انه لا يوجد سبب في الاصل. ترادف تام في مفردات اللغة الا في ما صدر عن لغتين لقييلتين مختلفتين كالليث والورد للاسد او نقل من لغة الاعاجم الى العربية مع بقاء اللفظ العربي فيها كالينا من اليونانية للفرضة البحرية.

وان لناظم فائدة من هذا الاتساع اذ ييسر له ان يلتقط من هذه المترادفات ما وافق بحره وقافيته . فقد اتفق لي اثناء التعريب ان استعملت كثيراً من اسماء الاسد كالليث والغضنفر والضرغام والقسورة والمزبر والورد والضيغم . ولكن هذه الفائدة لا تذكر في جنب ما يلقبه هذا التراكم من العثرات في سبيل المنشئ النائر والطالب الراغب في الاحاطة باوائد اللغة وشواردها حتى لقد يرتبك بها الشاعر في بعض الاحوال . ومن ذا الذي تحفه الدعوى الى زعم الاسام يجمع هذه المترادفات بل اي حافظة تعي خمسة اسم للاسد ومثلين للحية ومثلين وخمسين للناقة . وما عسى ان تكون الجدوى من وجود اربعمئة اسم للداهية . ونعم القول قول الثعالي « ان تكاثر اسماء الدواهي من الدواهي » . فامثال هذه المترادفات عبث ثقيل على كاهل اللغة . فانما يحسن حفظها في مطبوعات المعاجم للرجوع اليها في استجلاء غوامض الكلام والشعر القديم ضناً بذلك الذخر الثمين ان ينشئت وتذروه عوامل الغموض والنسيان . ولكنه لا يجدر بالطلاب والكتاب ان يشبهوا بوحشيتها ومهمليها لئلا تستغلق عبارتهم وتجهل قريحتهم على غير جدوى فيستعبون ويتعبون ويثقل روحهم على روح المطالع

وقد جرت للعرب منذ القديم عادة حميدة في تجارة الزمان وسنين العايعة واهمال ما تقدم العهد على نبذه . فكانوا يتحاشون في شعرهم ونثرهم ايراد الالفاظ المهمة في عصرهم . وفي روايات الاسمي كثير من كلام الاعراب المتوغلين في البداهة مما لم يكن يفهمه اهل زمانه لاهمال النطق به والعدول عنه الى مرادف اسهل واطلى . وايضاً فانهم لم يكونوا يكثر من استعمال الالفاظ الدالة على معاني مختلفة الا في ما شاع من معانيها مطّرحين ما غمض منها او احتاج الى

تأويل . ولهذا كان شعر المولدين اقرب مما سواه الى فهمنا لقرب عهده منا وخلوه من كثير من غوامض الكلام . ويتلوه شعر المخضرمين ثم شعر الجاهليين . فحسبنا ان نتبع خطتهم فنبلغ بالنظر الى عصرنا ما بلغوا بالنسبة الى عصرهم فيسقط ما قضى عليه الزمن بالسقوط ويبقى ما صلح للبقاء

يؤخذ مما مرّ ان العربية قد خُصّت بثروة في مفرداتها واتساع في طرق تعبيرها تفاخر بهما سائر اللغات القديمة والحديثة . ولكن تلك الثروة؛ وذلك الاتساع قد يسيان بالاهمال وسوء الاستعمال ضيقاً وفقراً . — فاذا شكونا الزيادة فما احرانا ان نشكو النقصان . فقد مرّت القرون وتماقت الاجيال واللغات الحديثة جارية مع العلم والحضارة جري الشقيق الشقيق . والعربية كانت حتى هذا الزمن القريب ثابتة في موقف واحد كأن باب الاجتهاد قد أوصد في وجهها وليس في سنن الخلق ما يوجب ذلك الايصاد بالنظر الى اللغة . بل اذا تتبعنا خطه السلف من عهد الجاهليين الى انقضاء العصر العباسي رأينا أبناء هذه اللغة عاملين على تحجيصها وتهذيبها وابداعها كل ما بدر وصدر من نتاج العلم او اقتضته ملازمة سائر الملل . فكانت في مقدمة اللغات اتساعاً لكل مادّة ومعنى . ولم تكن تضيق عبارة ناظم ولا ناثر عن تأدية كل مفادٍ عصري . فما بالها وهي لا تزال ذلك البحر الزاخر تضيق الآن عن كثير من التعبيرات العلمية والصناعية والسياسية . ولا مسميات فيها لكثير من اسماء الاختراعات والآلات الحديثة والادوات البيتية . أفكان يزفّ قدامه العرب بهذا النقص وقد وضعوا الاسماء العديدة لخشببات الصنّاع والقصور والقلاع وحبالها والنافّة وعقلها والملوك والزعماء والموارف والوفود والفيوج والاجلاف والاحزاب والانصار والطلائع والسرايا والعهود والمواثيق وسائر ما دعيتهم اليه حاجة . او عرف ولا ينحصر هذا النقص في ما تقدّم بل يمتدّ الى كثير من المعاني العصرية والتعبيرات الخيالية والتصورات التي استحدثها الزمان . فالعربية في حاجة الى نظير

في كل ذلك . وهو امرٌ طبيعيٌ لامناس منه اذ لو نُشر هوميروس وامروء القيس وأرادا تمثيل جميع هذه الاحوال بلفتيهما لاضطربت عبارتهما واشكل عليها التعبير . ولو ركب الدابة سفينة البخار لما اجاد بوصفها اجادته بوصف سفينة البر اي ناقته الضاربة في فيافي البيداء

وكان شغف العرب بلفتهم يدفعهم الى الحرص عليها ومباراة الاعاجم بها فما بدت لهم ثغرة الا وسدوها ولا حلية الا وزينوها بها حتى انه لم يكن يثقل على طباعهم ان ينقلوا اليها مئات من الالفاظ الاعجمية ثم ردوها اليهم ألوفاً مؤلفة . بل لم يستكنوا من التصرف ببعفها وصوغ الافعال منها وتصريفها وان كانت غير مصرفة في الاصل فقالوا « فلسفة » و « تفلسف » و « زنديق » و « تزندق » و « طراز » و « طرز » و « دهقان » و « دهقن وتدهقن »

ولكن هذا الاخذ عن الاعاجم لم يكن إلا نزرًا يسيرًا بجانب ما استخرجوه من مفردات لغتهم وحبّوه على المعاني المستحدثة ولا سيما في العلوم التي لم يكن لها اثرٌ في الجاهلية والاصطلاحات التي اقتضاها انتظام احكامهم وتوغلهم في الحضارة . فانهم لما شرعوا في وضع العلوم العربية كالصرف والنحو والمعاني والبيان والبدع والعروض . والدينية كعلم الكلام والتفسير والنقح والحديث . والعلوم الطبيعية والرياضية وسائر ما نقلوه من كتب الاعاجم كالفلسفة والمنطق والطب والملك والحساب والهندسة والجبر والكيمياء شرعوا في كل ذلك وليس في لغتهم الا شبه شيء مما يشير الى مدلولاته فما كان ايسر عليهم من ان يستخرجوا من لغتهم اوضاعاً استكملوا بها جميع مدلولات العلوم العربية والدينية ومعظم مدلولات العلوم الطبيعية واتسعت لغتهم لكل ذلك حتى عوّل الاعاجم على كثير من موضوعاتهم ونقلوها الى لغاتهم « كالجبر والسمت والقلي والنظير والكحول والسموم » ولما اتسعت احكام سياستهم وتغيرت طرق معاشهم وازدادت تصوراتهم بما رأوا وسمعوا وقرأوا وكتبوا وضعوا اسماً وانعالاً لكل ما استحدث لديهم من طعام وشراب ولباس ومتاع ونظام حكومة وطريق سياسة وتوسّعوا في المعاني الشعرية

والاساليب الانشائية فكانت اللغة تجاريهم في النمو والسعة
وان اردت الثبوت من توسعهم في ذلك الاستحداث ندونك كتب اللغة فلا تكاد
تجد صفحة منها خالية من الاصطلاحات الموضوعة بعد الاسلام واليك امثلة منها :
الدَّور الحركة وعود الشيء الى ما كان عليه . . . والدَّور عند الحكماء
والمحكِّمين والصوفية هو توفُّف كلِّ من الشَّيْئين على الآخر . . . وقياس الدَّور
عند المنطقيين هو ان تؤخذ نتيجة القياس وتضمُّ الى عكس احدى مقدمتيه . . .
والدَّور في الحيات عند الاطباء عبارة عن مجموع النوبة او زمانها . . . والدَّور
عند الموسيقيين القطعة المنقلة من الشغل . . . وعلم الادوار علم الموسيقى . . .
والدَّور عند الشعراء القطعة من الموشح ونحوه . . .
الدرجة المرقاة . . . ودرجات الامزجة عند الاطباء مراتبها في الشدة
والضعف . . . والدرجة عند اهل الجفر وارباب علم التفسير تطلق على حرفٍ من
حروف سطر التفسير . . . وعند اهل الهيئة تطلق على جزء من ٣٦٠ جزءاً من
منطقة الفلك . . . ودرجة الكوكب عندهم هي مكانه من فلك البروج ومنها
درجة طلوع الكوكب ودرجة غروب الكوكب ودرجة مَرِّ الكوكب . . .
الحال . . . عند الحكماء كيفية مختلفة بنفس او بذى نفس . . . وتطلق عند
الاطباء على ثلاثة امور الصعة والمرض والحال المتوسطة . . . وعند الاصوليين
على الاستصحاب . . . وعند السالكين على ما يرد على القلب من طرب او حزن
او بسط وقبض . . . وعند النحاة على نظير يدلُّ على الحال اي الزمان . . . وعند اهل
المعاني على الامر الداعي الى التكلم على وجه مخصوص . . .
وان من تصنع كتاب « التعريفات » او الكشاف للتهانوي يرى ان تعريف
قسمٍ من هذه الاصطلاحات قد اضطرَّ العلماء الى تأليف المجلدات الضخمة
والحاجة ام الاختراع . فلما كان ابنا هذه اللغة مشتغابن بها كانوا يقدمون
فتقدم ويرتدون قارقي . فلما وقفوا وقفت وانحصرت سجلاتها في خزائن افراد
من العلماء معدودين . وما كان وفوقها ليجز فيها او تناد في معدن جوهرها

الوضّاح ولكنها عوامل قاهرة أصابت أهلها فافعدهم معظم هذا الزمان . وما
هبت نسائم النهضة الأخيرة في مصر وسوريا حتى أسرع أبناء القطرين الى
استخراج تلك الكنوز الدفينة . ولو ثابعت التآليف العلمية التي فتح لها محمد
علي وخلفاؤه ارحب الابواب وتواصل تدريس العلوم العالية بها . او لو لم تُصَبَّ
سوريا بما أصيبت به مصر من ضرورة التقاعد عن وضع المؤلفات العلمية لانتقال
الدروس في تلك العلوم الى اللغات الاجنبية لما عوزنا الآن تعبير في علم من
العلوم او فن من الفنون . ولما رأيت ناشئة هذا العصر اذا احتاجت الى تعبير
عليّ عمدت الى لسان اعجمي

ولكن تيار الافكار اذا اندفع بأمة قضّ السدود وتجاوز الحواجز . فان أبناء
العربية شاعرون ان حياتهم بحياة لغتهم وقد علموا الآن انه لاعين لهم غير انفسهم
على بلوغ امنيتهم منها . فاذا اخلطوا النية فلا حائل يصدّم عن النهوض بها . ولا
نكر أنهم اعدوا الكرة فوثبوا بها وثبة جديدة في هذه الآونة المتأخرة وهذه
تجالاتهم وجرائدهم قد صعدت في مرقاة الكمال درجاتٍ لا عهد لهم بها قبل اعوام .
واصبح الكثير من اصطلاحاتها الحديثة « كالمجلة والجريدة والصحافة والتمطاد » مقبولا
عند الخاصة والعامة كواضع القدماء . وان في مؤلفات الكتاب والادباء ما يعدّ لهم
نغماً في هذا الموقف الحرج . واعظم من كل ذلك انتشار الميل الى المدارس الوطنية .
فلمنة البلاد لانيها الى مدارس البلاد

والشعر من توابع اللغة ولوازمها فاذا ارتفع شأن اللغة فبشر الشعراء . على ان
مطلب الشعراء يختلف عن مطلب العلماء والمؤلفين . فحاجة الشاعر ايسر وموادها .
اوفر وذخيرته في دماغه فاذا جلاها العلم كانت له ولبنى لغته مورداً صافياً ومنهلاً
عذباً . وفي الامّة والحمد لله فطاحل خرجوا عن جادة التقليد البحت فماؤوا ميل الزمان
واخذوا يسعون الى استجلاء المعنويات سعي رصفائهم الى استجلاء الحسيات . وما
هي الا جولة واختها مدة من الزمن حتى تستعيد صناعتهم مقاهيها الشاغرة
وتعدها الباذخ.

التشيد الاول

خصام أخيل واغامنون

مُجَمَّلُهُ

لما اكتسح الاغريق (اليونان) بلاد الطرواديين عاثوا في مدائنهم وسبوا نساءهم وحصروا اليون عاصمة بلادهم عشر سنوات على مامرّ بك في المقدمة . وكان في جملة السبايا فتاتان فتاتان تدعى احدهما خريسيديس (او خريسا) والاخرى بريسيديس (أو بريسا) أجمع زعماء الجيش على تملك الاولى منها لاغامنون ملك ملوكهم والثانية لأخيل ملك المرميدونة وبطل الاغريق . على الاطلاق . فحمل خريس كاهن أفلون ماغلا وعزمن المتاع والمال الى معسكر الاغريق فكاكأ لابنته خريسا وبذلك افتتح هوميروس أناشيدهُ

ففتح الزعماء الى اجابة ملتبس الكاهن الشيخ ولكن اغامنون أغلظ له المقال وردّه خائباً . فانتفى من حيث أتى يستغيث الاله افأون فأغاثه وضربهم بوباء « ففدت جندهم تخرُّ فلولا » فقتل عليهم الرزء ولم ينفقوا له سبباً . فهاجت الحمية صدر اخيل ودعاهم الى مجلس شورايم للمفاوضة في استطلاع كنه الامر . فلما اجتمعوا أنبأهم العراف كلخاس ان افلون ناقم منهم لحية كاهنه وانه لاسبيل الى استرضائه مالم يستلينوا قلب الشيخ برد فتاته اليه . فعظم الامر بادىء بدء على أغامنون ثم ما لبث ان لان واذعن لحكم كلخاس على ان تساق اليه سبية أخرى بدلاً منها . فعارضه اخيل واشتد الخصام بينهما حتى كاد اخيل يقتل باغامنون لولا ان ائينا (الالهة الحكمة) هبطت من السماء وصدته قسراً . ثم توسط بينهما نسطور الحكيم اخماداً للفتنة فلم زادا الا احتداماً وارفض الجمع على غير وفاق واعتزل اخيل القتال

واما اغامنون فلم يردد الا اغتراراً والحزازاً بماله من السيطرة على سائر
الانصار فأمر بارسال خريسا الى ابيها وبعث قنبض على بريساً في واحدتها
في خيمته في جملة ممالك . فشق الامر على اخيل و" " أمه ثيتيس (احدى
بنات الماء) فأسمعت صوت تفجعه من لجأ البحر فشقت العباب اليه واستقصته
الخبر ورقيت الى زفس أبي الآلهة تلتبس الاخذ بيد أخيل والانتقام له من
الاغريق . فوعد زفس بخذلهم واعلاء شأن الطرواد الى ان يطيب أخيل نفساً .
فقطنت هيرا زوجة زفس لما جرى من الحديث بينه وبين ثيتيس وفي نفسها
حزازة على الطرواد فهبت بالاعتراض عليه فأوسعها وعيداً وزجراً وبادر هيغت
وسوى الخلاف وادار السلاف فظل الارباب في طرب ونعيم الى ان خيم الظلام
فتوسد كل مضجعه ونام

تستغرق وقائع هذا الشيد اثنين وعشرين يوماً تسعة ايام مدة الوباء ويوماً مدة
اجتماع الزعماء ونزاع الملكين واثني عشر يوماً مدة اقامة زفس بين الاثيوبية . ومجرى
الحوادث اولاً في معسكر الاغريق ثم في بلدة خريسا واخيراً في الالمب



فهرس الكتاب

صفحة	صفحة	اهدايه الكتاب
٥	٣	الديباجة
		المقدمة
الايادة	هويروس	
٣٢	٩	اسمه ولقبه
٣٣	١٠	نسبه
٣٥	١١	مولده ونشوءه
٣٦	١٢	مدرسته
٣٧	١٢	اسفاره
٤٠	١٣	شروعه في فرض الشعر
٤٢	١٣	ثقة اسفاره
٤٣	١٥	مرضه ووفاته
٤٤	١٦	فذلكه ما تقدم
٤٥	١٩	تاريخ ظهوره
٤٦	٢٠	منزله عند القدهاء
٤٧	٢٤	رأى المتأخرين فيه
٥٠	٢٥	قول العرب فيه
٥١	٢٨	منظوماته
٥١	٢٩	الاوذيسية
٥٣	٢٩	معارضة الاياده بالاوذيسية
٥٤	٣٠	سائر منظومه

صفحة	صفحة
التعريب	٥٦ فلسفتها وآدابها
٦٨ حكاية المغرب	٥٦ سبب الریب فيها
٦٩ تعريب الاصل	٥٧ الایاذة ومعارف عصرها
٧٢ كتابة الشرح	٥٧ الایاذة والتاریخ
٧٤ المعجم والمقدمة	٥٨ الایاذة والجغرافیه
٧٤ اصول التعريب	٥٨ الایاذة وسائر العلوم
٧٥ معربو العرب	٥٩ الطب
٧٧ مسلك المغرب فی تعريب الایاذة	٥٩ الفلك
٧٨ المحافظة علی الاصل	٥٩ الحرب
٧٨ اجتناب الوحشی والحوشی	٥٩ السیاسة والحکومة
٧٨ الانماط التي لامرأف لها فی العربیه	٦٠ الدین
٧٩ التراکیب الوصفیه	٦٠ الفنون وسائر الاعمال
٧٩ تعريب الاعلام	٦٠ الایاذة والصنائع
٨٠ تلاعب النساخ	٦١ سبب حیاتها وخلودها
٨١ عودہ الى تعريب الاعلام	٦٢ انتشارها ونقلها الى سائر اللغات
٨٣ الحروف التي لامقابل لها فی البیونانیة	٦٢ اللاتینیة
٨٣ العربیه " " " "	٦٢ الهندیه والفارسیة
٨٤ تنافر السین والثناء	٦٣ السریانیة
٨٤ الباء والماء	٦٣ لغات الافونج
٨٥ طریقة ابن خلدون	٦٣ اغفال العرب نقلها الى لغتهم
٨٨ النبر	٦٤ الایاذة والنصرانیة
٨٨ التصرف بالحروف والحركات	٦٥ الایاذة والاسلام
٨٩ الانماط العربیه من البیونانیة	٦٦ نقلة العرب
٨٩ النظم فی التعريب	

صفحة		صفحة	
٩٩	(التخفيف والتشديد)	٩٠	اوزان الشعر وابوابه
٩٩	(التحريك والتسكين)	٩١	(تناسب الاوزان والمعاني)
٩٩	(الاختلاس والاشباع)	٩١	(الطويل)
٩٩	(المسوغات الغربية)	٩١	(البسيط)
٩٩	عيوب القافية وسنادها	٩٢	(الكامل)
	(الاكفاء والاجازة والاقواء)	٩٢	(الوافر)
٩٩	(والاصراف)	٩٣	(الخفيف)
١٠٠	(سناد التأسيس)	٩٣	(الرملي)
١٠٠	(سناد الاشباع)	٩٣	(السريع)
١٠٠	(سناد الردف)	٩٣	(المقارب)
١٠٠	(سناد التوجيه والحدو)	٩٣	(المتدارك)
١٠٠	تكرار القافية	٩٣	(الرجز)
١٠٠	التجنيس		(المضارع والمقنضب والمجث
١٠١	ضروب النظم في التعريب	٩٤	والهزج والمديد والمنسرح)
١٠٢	(التخاميس والاراجيز)	٩٤	القوافي
١٠٢	المثنى		القوافي والاوزان اليونانية
١٠٢	المربع	٩٤	والافرنجية
١٠٣	المثنى او المربع المسمط	٩٥	القوافي في لغة العرب
١٠٤	الموشع المثنى	٩٥	تناسب القوافي والمعاني
١٠٥	الموشع المردف	٩٦	القوافي الضيقة والثقيلة
١٠٥	المستطرد	٩٧	رنة القافية
١٠٦	مصرع المقارب	٩٧	جوازات الشعر
١٠٦	مصرع الرجز ومقفاه	٩٨	(المأنوس والمكروه)
	الالياذة والشعر العربي	٩٨	(الصرف ومنعه)
١٠٧	الشعر القديم	٩٩	(ألمد والقصر)

صفحة	صفحة
مناهج المولدين في ابواب الشعر	١٠٨ اصله
١٤٩ وفنونه واساليبه	١٠٩ طموسه
(التشطير والتخميس والمعنى	١٠٩ عكاظ
١٤٩ والغز والدؤيبت الفارسي)	١١٠ القرآن و لغة قريش
١٥٠ (التاريخ الشعري)	مقابلة بين لغة قريش المضربة ولغة
١٥٠ (الموشع الاندلسي)	الاياذة اليونية وكيف عاشت
١٥٢ (الشعر العامي)	١١٣ الاولى وتلاشت الثانية
١٥٢ (المواليا)	اطوار الشعر العربي او طبقات الشعراء
(الزجل . عروض البلد . المزدوج	بالنظر الى ازمانهم ومزية كل طبقة
الكاري . الملمعة . الغزل . الزهيري	١١٥ منهم
١٥٢ (المعنى)	١١٦ النهضة الجاهلية
١٥٢ (الحكم والامثال)	الحلة الفاصل بين شعراء الجاهلية
١٥٦ علوم الادب عند المولدين	١١٧ والمخضرمين
١٥٦ العروض	الطبقة الاولى او شعراء الجاهلية
١٥٧ البديع	(مدة هذه الطبقة ومزيتها وفحولها)
١٥٨ البيان	الطبقة الثانية او المخضرمون وشعراء
١٥٨ اطوار شعر المولدين ومزاياه	١٣٠ الدولة الاموية
١٦١ طبقة المحدثين او المتأخرين	(مزية هذه الطبقة ومدتها وفحولها)
١٦٢ الشعر المصري	الطبقة الثالثة . المولدون او شعراء
١٦٢ الملاحم او منظومات الشعر القصصي	١٣٧ عصر العباسيين
١٦٣ ضروب الشعر عند الافرنج	نظرة في شعر المولدين
١٦٥ ملاحم الاعاجم	(اقتضاب الوصف الشعري)
١٦٧ العرب	(التبذل في المدح)
نظرة في الجاهليتين جاهلية العرب	(ابتذال الغزل)
١٦٨ وجاهلية اليونان	١٤٧ (المعجون والإخماض)

١٩٣	(ثروتها والفاظها الوضعية)	١٧٠	ملاحم الجاهليين
	(الحقيقة والمجاز في بعض الفاظ	١٧٢	جمهرة اشعار العرب
١٩٤	الفتين)	١٧٤	ملاحم المولدين
	(الفرق بينهما في نسج العبارات ١٩٥	١٧٦	الحقيقة والمجاز
	(المترادفات وتعدد معاني اللفظ	١٧٦	التشبيه والكنابة والاستعارة
١٩٥	(الواحد)	١٧٩	البدعيات
١٩٦	(الالفاظ المهملية)	١٨٠	النقل والسرقة وتوارد الخاطر
	(عجز العربية في تأدية المعاني		فعل الحضارة في استعجان المستحسن
١٩٧	الحديثة)	١٨٤	واستحسان المستعجن في التشبيه والمجاز
	(نقل الالفاظ الاعجمية واستحداث		مزينة العربية على لغات الإفرنج
١٩٨	(الالفاظ العربية)	١٨٨	في هذا الباب
	(نهج العرب وتوسهم في اللغة) ١٩٨		الخاتمة
١٩٩	(اصطلاحاتهم)		في الشعر واللغة
٢٠٠	(سبب وقوف اللغة)	١٨٩	(الشعراء)
	(النهضة الاخيرة ومستقبل اللغة	١٩٢	(اتساع العربية للشعر)
٢٠٠	والشعر)	١٩٣	(مقابلتها باليونانية)



۱۹۹۶ / ۴ / ۳۶۳...

قضايا وحوارات النهضة العربية نظرية الشعر

١- مقدمة ترجمة الياذة- سليمان البستاني

اتت ترجمة الياذة لسليمان البستاني، والصادرة في اللغة العربية للمرة الأولى عام ١٩٠٤ وكانها استدراك لنقص ثقافي عربي عمره أكثر من ألف عام على الأقل، ففي حين نقل المترجمون العرب في العصر العباسي كتاب الشعر، لأرسطو باكراً، فإنهم لم ينقلوا «الشعر» الذي بنى عليه أرسطو كتابه أو تنظيراته، وبطبيعة الحال فقد كانت «الياذة» إلى حانب الشعر التمثيلي اليوناني، من جملة التراث الشعري اليوناني الذي اعتمد أرسطو عليه في بناء نظريته في الشعر، والتي نقلت للعربية أكثر من مرة وشرحها أهم الفلاسفة امثال الفارابي وابن سينا وابن رشد.

لكن اهتمامنا هنا ليس متعلقاً بالياذة تحديداً، أو بترجمتها، بل هو يتوجه نحو المقدمة النقدية كبيرة الأهمية والتي كتبها سليمان البستاني (١٨٥٦-١٩٢٥) مصدراً بها ترجمة الياذة، والتي اداها البستاني شعرياً، مما جعل أكثر مقدماته يدور حول فن الشعر، وحول فهم البستاني لهذا الفن، ففي هذه المقدمة تكلم البستاني عن هوميروس وشعره والشعر اليوناني، وعن أسباب امتناع المترجمين العرب قديماً عن نقل هذا الشعر، وخصوصاً الياذة، معيداً ذلك الى وثية اليونان، والى اعتداد العرب بفنهم الشعري، وبعدها تكلم البستاني عن ترجمة الشعر، ثم بحث عن ملاحم شعرية عربية تقارب الياذة، ثم قارن بين الأوزان الشعرية العربية واليونانية، وخلال ذلك تحدث عن الشعر العربي القديم ونظريته، ثم قارب الحديث عن الشعراء المحدثين في عهده.

يصدر قريباً في سلسلة: قضايا وحوارات النهضة العربية :
مرحلة الاحياء والديوان. كتب مدرسة الديوان. مرحلة مجلة أبولو.
مرحلة مجلة شعر... وغيرها..

يشرف على السلسلة: محمد كامل الخطيب

طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٦

في الاصدار المبرمج: تمايادل

٣٤ ل.س.

سعر البغلة داخل الغمطر

١٧ ل.س.